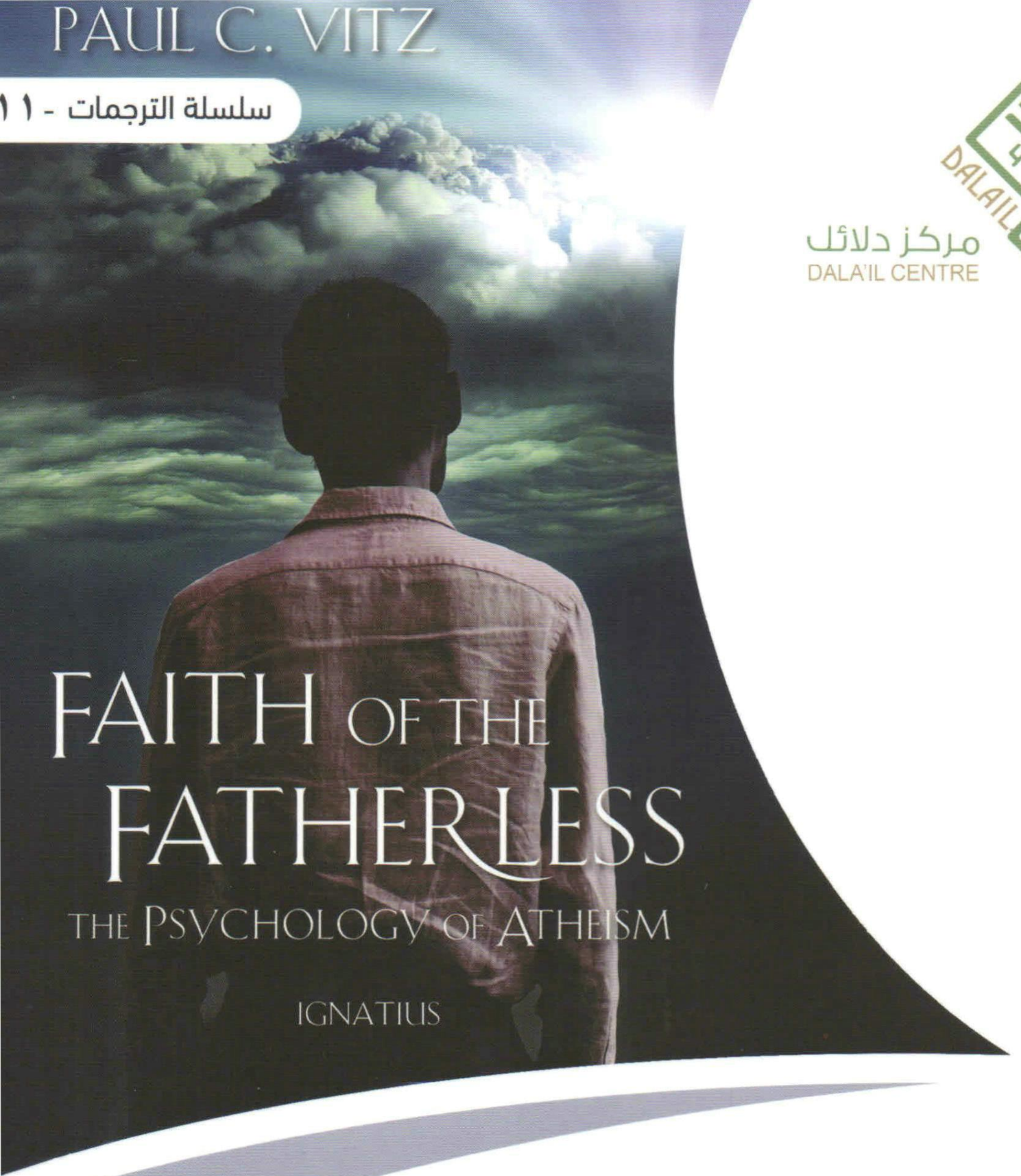
سلسلة الترجمات - ١١



مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

نفسية الإلحاد

د. بول سي فيتز

ترجمة : مركز دلائل

الطبعة الثانية : مزيدة ومنقحة

نفسية الإلحاد

إيمان فاقد الأب

نفسية الإلحاد

The Psychology of Atheism

إيمان فاقد الأب

Faith of the Fatherless

الطبعة الثانية – ٢٠١٣م

2nd Edition – 2013

بول سي فيتز

Paul C Vitz

ترجمة

مركز دلائل

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

دار وقف دلائل للنشر

نفسية الإلحاد/ دار وقف دلائل للنشر - الرياض ١٤٣٨هـ

٢٨٨ص؛ ١٧,٥٠ × ٢٥سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٨٨٢-٦-٤

١- الإلحاد والملحدون أ- العنوان

ديوي ٢٤٩ ١٤٣٨/٣٥٤٧

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٣٥٤٧

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠

طبعت في

Faith of the Fatherless:	**إيمان فاقد الأب :**
The Psychology of Atheism	**نفسية الإلحاد**
Paul C. Vitz	**بول سي فيتز**
	ترجمة: مركز دلائل

First published in 1999 by Spence Publishing Company, Paul C. Vitz

الإهداء

إلى أولادي

ربيكا، وجيسكا، ودانييال، وبيتر، ومايكل، وآنا...

مع خالص حبي...

***

تصدير:

لا شك أن الترجمة هي من أوسع أبواب الاستزادة المعرفية والعلمية وتبادل الخبرات بين البلدان والأمم والثقافات والشعوب، ومن هنا كان لسلسلة (الترجمات) لدى مركز دلائل عناية خاصة في انتقاء أفضلها وأكثرها ملاءمةً، مع الوضع في الاعتبار عدم تبني المركز لكل مكتوب أو منقول بالضرورة.

وفي هذا الكتاب:

سنتجول مع عملٍ فريدٍ في بابه، نادرٍ في تخصصه، يلمس قلب مشكلة الإلحاد الحقيقية بعيدًا عن الشبهات السطحية التي يحاول الملحدون التخفي من ورائها، ألا وهو المشكلة النفسية لدى أغلب الملحدين ولا سيما مشكلة الأب، حيث سيتجول بنا (بول فيتز) Paul Vitz في أغلب جوانب هذه الظاهرة التي تكررت عند الكثير من أشهر الملحدين في العالم كما سنرى، وهو إذ يفعل ذلك يفعله عن تجربة شخصية مع الإلحاد بالفعل في شبابه، في جانب التأثير النفسي للإلحاد، ولا سيما مشكلة الأب (فقدان الأب - أب قاسٍ - أب متسلط إلخ) مع ما أضافه في هذه الطبعة الثانية من الكتاب بخصوص مشكلة الأم كذلك، وبرغم عدم موافقتنا على كل ما يُسقطه المؤلف من أفكار على هذه الحالات (إذ يتعلق

بعضها بنظرة أبوة الإله في النصرانية) إلا أنه يكشف أساسًا لا ينتبه إليه أكثر مَن يتعاملون مع الملحدين؛ وهو دافعهم النفسي الحقيقي للإلحاد أو التمرد على السلطة الدينية والحياتية ونحو ذلك.

ولا يتبنى المركز كامل طرح المؤلف؛ بل لنا عليه ملاحظات عديدة، وإنما يهدف المركز في ترجمته لهذه الدراسة إلى توفير محتوى معرفي يَدرس الحالة الإلحادية من زوايا مختلفة، كما أننا نُدرك الفرق بين وصم الإلحاد بـ (المرض النفسي) وهو ما لا نميل إليه، وبين تقديم ترجمة لدراسة مُثيرة تسلط الضوء على (تحليل) دوافع الإلحاد النفسية، سعيًا منا إلى مزيد من الفهم للحالة الإلحادية.

ولا شك أن الكتاب يحتوي على أفكار مثيرة تستحق النظر والمناقشة والتقويم، خاصة في تركيزه على أن الدافع لاعتناق الإلحاد هو دافع نفسي لا صلة له بقوة الأدلة أو موضوعية المنهج، وهذا طرح لا ينبغي أن يمر دون إخضاعه للتفكير المتعمق، فهناك شواهد عملية تدعمه وتؤكده، وكأن أكثر الملاحدة لديهم مشكلة شخصية مع الدين، فتتشكل مواقفهم بناء على نفور نفسي متراكم، وكراهية متنامية تحول بينهم وبين تحكيم المنهجية العلمية والمعايير الموضوعية في الأدلة بأنواعها؛ العقلي منها، والتجريبي، والحسي (الباطني) أو ما يُسمى صوت الفطرة الداخلي.

نتمنى أن نكون وفقنا في اختيار هذا الكتاب المُثير في فكرته ومكانة مؤلفه، كما نعد بطرح المزيد من الدراسات النفسية المتخصصة لدوافع الإلحاد في المرحلة القادمة إن شاء الله من منشوراتنا.

مركز دلائل

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

إيمان فاقد الأب

الجزء الأول

الملحدون والمؤمنون وآباؤهم

الجزء الثاني

حالات نفسية أخرى ذات صلة بالكفر

***

المقدمة...

يمكننا رؤية مدى غرابة العالم الحديث فقط عندما يبدأ في التلاشي، ومن الطبيعي أن نحتاج إلى الابتعاد مسافة ما لتتضح لنا ملامح العالم الحديث؛ فلا شيء أكثر نمطيةً في العالم الحديث، وخصوصًا في الحياة العامة، من افتراض الإلحاد، وتعميق نفي الخالق من الخطاب العام تمامًا، حتى إننا اليوم نُعلم استخدام الواقي الذكري وممارسة العادة السرية في المدارس الثانوية، ولكن يُحظر علينا قانونيًا أن نشير إلى الخالق.

ويُعد نبذ الخالق في مدارسنا مجرد مثال بسيط لانتصار الإلحاد، وهو أمر لافت للنظر جدًا؛ بل مستغرب، رغم أن الولايات المتحدة كانت معروفة منذ زمن بعيد بأنها دولة شديدة التدين. وقد بين ألكسيس دو توكفيل في أربعينيات القرن التاسع عشر بشكل واضح الطابع الديني العميق للولايات المتحدة؛ حيث قال: «لا تزال أمريكا المكان الذي حافظ فيه الدين المسيحي على أكبر سلطة حقيقية على أرواح الرجال؛ فقد كان الجو الديني في البلاد أول شيء لفت نظري عند وصولي إلى الولايات المُتحدة؛ لذلك ينبغي أن يُعد الدين – وإن لم يتدخل

مباشرة في حكم المجتمع - من طليعة المؤسسات السياسية الأمريكية»[1].

كما أشارَ المُؤرخ جيمس تيرنر الذي درس نشوء الإلحاد في المجتمع الغربي وعلى وجه الخصوص في أمريكا إلى أن «عدد المُلحدين المعروفين في أوروبا وأمريكا قبل الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) كان ما بين عشرة وعشرين ملحدًا؛ إذ بقي قبول حالة عدم الإيمان بالله يعادل قبول حالة عدم الإيمان بمفهوم الجاذبية»[2]. بقيت أمريكا إلى درجة ما أمة خالية من الإلحاد لعدة عقود حتى القرن التاسع عشر، ولم يصبح الإلحاد مُحترمًا حتى ضمن الأوساط الفكرية والأكاديمية إلى عام ١٨٧٠م، أي أكثر بقليل من قرن مضى، واستمر ذلك مقتصرًا على عدد قليل من المثقفين حتى القرن العشرين[3]. ولم يصبح افتراضًا عامًا سائدًا حتى منتصف القرن الماضي.

ورغم أنه طوال فترة الخمسين سنة الماضية التي طُرِح خلالها سؤال «هل تؤمن بالله؟» من خلال استفتاء الرأي العام[4]، كان جواب أكثر من ٩٠٪ من الأمريكيين على نحو منتظم هو الإيجاب، مع ذلك فقد أصبحت الإشارة إلى الله في الحديث العام نادرةً جدًا، أصبحنا أمة من المُلحدين الفعليين والعلنيين، ويصور ريتشارد جون نيوهاوس هذه الحالة الاجتماعية تصويرًا دقيقًا في كتابه «الساحة العامة العارية»[5].

وتعد الإشارة الجدية إلى الله في الكتابة العلمية ضمن العالم الأكاديمي مَحظورة كليًا، فضلًا عن استخدام مفاهيم مثل «العناية الإلهية»، أما المفاهيم العلمانية المُجردة مثل «التقدم»، و«صراع الطبقات»، و«المجتمع الأبوي»، و«تحقيق الذات»، وغيرها من المفاهيم الأثيرية (غير المادية) الأخرى المشابهة مثل «البقاء للأصلح» و«التطور»، فهي مفاهيم متعارف عليها ومقبولة؛ فالوضع ضمن الوسط الأكاديمي يكفي الإشارة إلى الله بأي طريقة لتضع منحة الشخص التعليمية محل التساؤل.

كما يتفق المؤرخون بشكل عام على أن الإلحاد ظاهرة غربية حديثة ومُتميزة، وأنه لا وجود لثقافة أخرى قد جاهرت بمثل هذا الرفض العام الواسع الانتشار للإلوهية[٦]. ونظرًا لفجائية التحول العام من الإقرار بالإيمان إلى الإقرار بالإلحاد، ولندرته في السجل التاريخي للثقافات الأخرى، ولاستمرار ارتفاع معدل انتشار الإيمان بالله بشكل سري، فإن الإلحاد يحتاج إلى الدراسة والتفسير.

لقد باتت أهمية الإلحاد واضحة؛ نظرًا لأنه يُشكل أحد المُحددات الرئيسة لنظرة الشخص للعالم[١]؛ فمثلاً إذا كان الشخص يُؤمن بإله شخصي، سيكون للحياة عنده معنى واضح، وسيأخذ بشكل عام قضايا المسؤوليات الاجتماعية والأخلاقية على محمل الجد.

(١) على سبيل المثال انظر كتاب كيلباتريك W.KILPATRICK المسيحية والإسلام والإلحاد: الصراع على روح الغرب (مطبعة أغناطيوس) سان فرانسيسكو ٢٠١٢.

وتجدر الإشارة هنا إلى قول فولتير: «لا تخبر الخدم بأن الله غير موجود، وإلا فإنهم سيسرقون ما لديك من فضة». وقد شاركه سيغموند فرويد هذا الرأي في وقت لاحق، حيث اعتقد أن الدين كان ضروريًا لمنع الجماهير من التصرف وفقًا لدوافعهم العدوانية والجنسية[٧].

وفي المقابل تُحدث نظرة أولئك الذين يرفضون وجود الله مشاكل مثل عدم وجود معنى للحياة، والعزلة في الحياة الحديثة التي ظهرت كثيرًا هذه الأيام، ويُعد الإلحاد الافتراض الرئيس للكثير من الإيديولوجيات الحديثة والحركات الفكرية كالشيوعية، والاشتراكية، والكثير من الفلسفات الحديثة، وأغلب علم النفس المعاصر، والعلم المادي، ومن ثَمَّ سأعتبر الإلحاد باعتباره إحدى سمات ما يُقصد بمصطلح «حداثي» أمرًا من المسلمات.

وقد يقول البعض الآن إن سبب هيمنة الإلحاد هو الاعتقاد بعدم وجود إله، وسأتناول بعض جوانب هذه المسألة في الفصل الأخير، حيث سأبحث بشكل موجز مسألة كيفية التعامل مع قضية الإيمان، أما الآن فاسمحوا لي أن أشير ببساطة إلى أنه رغم أن إثبات وجود الله أمر ممكن، إلا أن إثبات عدم وجود الله أمر ظاهر الاستحالة؛ لأن إثبات عدم وجود أي شيء أمر مستحيل، وبمعنى آخر فإن الإلحاد افتراض أدلى به بعض الناس حول طبيعة العالم، وقد لاقى هؤلاء الناس في القرن الماضي نجاحًا غير عادي في السيطرة على هذه الصورة المقبولة ضمن هذا الشأن، وعلى وجه الخصوص يبدو أن هناك افتراضًا واسع

النطاق في أنحاء كثيرة من مجتمعنا الفكري بأن الإيمان بالله بني على جميع أنواع الاحتياجات والرغبات غير الناضجة وغير العقلانية، في حين يَنبع الإلحاد أو التشكك من وجهة نظر عقلانية، راشدة، بعيدة عن الهراء حول الأشياء كما هي في الواقع.

والطعن في الطبيعة النفسية لوجهة النظر هذه هو المحور الرئيس للكتاب[٨]؛ ففي الوقت الذي أقدم فيه أدلة من حياة المُلحدين، سأقوم بالبحث عن التناسق، من خلال الأنماط التي تميز حياتهم عن حياة مجموعات مُماثلة من المؤمنين، أو في حالة التوحد بالمقارنة مع عموم الناس.

توجد ثلاثة عناوين ذات صلة بنفسية الإلحاد قد أخذت موقعها بعد فترة جمعي للأدلة والتحضير للإصدار الأول لهذا الكتاب عام ١٩٩٩ وهي من الأسباب الرئيسية لهذا الإصدار الجديد.

أولًا- يوجد موضوع جديد نسبيًا هو بحث تعلق الطفل مع شخصياته الوالدية، وهذه المقاربة المعتمدة على نظرية التعلق قد زادت بشكل كبير من تقديرنا ومعرفتنا بأهمية هذه الروابط المبكرة، وما هو أكثر أهمية لموضوعنا أنه قد طبقت مؤخرًا إجراءات تتصل بأمان في التعلق وفقد الأمان في التعلق على فهم الإيمان الديني والكفر.

ثانيًا- إن موضوع الإلحاد خلال العقد السابق أو مدة تقرب من ذلك قد أصبح شعبيًا جدًا في معظم الثقافة الأنجلو - أمريكية وذلك كما يظهر من الكتب الجديدة الداعمة للإلحاد من قائمة الكتب الأكثر مبيعًا، وأصبح مؤلفو هذه الكتب مشهورين ويجمعون عادة في فئة «الملحدون الجدد» وسيرهم الذاتية تتصل بالطبع بالتفسير النفسي.

لكن شيوع هذه الكتابات تبين أن الإلحاد قد انتقل مؤخرًا في مجتمع اليوم من الأوساط المثقفة والمتخصصة إلى سوق جماهيري عام بسيط ولكنه هام.

ثالثًا- تم فهم الحياة العقلية للشخص المتوحد مؤخرًا جدًا وبأسلوب قابل للتطبيق بشكل مذهل على مشكلة تفسير نفسية الإلحاد.

إن الإصدار الحالي للكتاب يتناول هذه المواضيع الثلاثة، فيتعرض لنظرية التعلق بشكل رئيسٍ في نهاية الفصل الأول، أما الملحدون الجدد فقد ذكروا في نهاية الفصل الثاني، وطرح موضوع التوحد والإلحاد في الفصل السادس وهو فصل جديد

الشكر

لقد كان الفضل لكثير من الناس والمنظمات في تشكيل أفكاري حول هذا الموضوع خلال الفترة التي صدرت فيها الطبعة الأولى للكتاب ثم الطبعة الثانية هذه، لذا فإنني أتقدّم بخالص الشكر للكاهن اليسوعي إنريكو كانتور، والكاهن

إدوارد أوكس، وجيمس هيتشكوك، والكاهن جوزيف كوتيرسكي لتعليقاتهم المفيدة على المسودات الأولى، كما أود أن أشكر على وجه الخصوص إيان ت بنسون لمساهماته القيمة، وخصوصًا فيما يتعلق بصموئيل بتلر، و(هـ غ ويلز)، و(ووكر بيرسي)، كما أشكر أيضا مارك بروملي لأنه أرشدني إلى تاريخ الحياة الدينية لمورتيمر أدلر، وأشكر ناش مارشال لاقتباسها، وأشكر مايكل كرومارتي لحكمته بخصوص صديقه كريستوفر هتشنز، كما أنني ممتن لصديقي وزميلي كيث هود لتعليقاته ذات الصلة التي جاءت في الوقت المناسب وحسنت من تناول العديد من القضايا الهامة، والشكر موصولٌ لزملائي ورفاقي في معهد العلوم النفسية في أرلينغتون، فرجينيا، وهذا يشمل بيتر مارتن لمساهماته المفيدة والكثيرة في موضوع نظرية التعلق وعلاقتها بالإيمان والكفر، وأشكر مارغريت لارسي لاقتراحاتها المحفزة والمفيدة ولتنبيهي إلى «اليقظة» والارتباط بالتوحد.

والشكر موصول لمنتدى فيريتاس وجامعات الزمالة المسيحية، التي قامت برعاية محاضراتي حول نفسية الإلحاد في عدد من الجامعات، بما في ذلك جامعة فلوريدا، وجامعة جورجيا، وجامعة ولاية أوهايو، وجامعة تكساس للزراعة والميكانيك وجامعة فيرجينيا. وقد استفدت من التعليقات المفيدة للعديد من طلاب تلك الجامعات الذين استمعوا لمحاضراتي، بالإضافة إلى أعضاء المنظمات الطلابية في جامعات برينستون، وكولومبيا ونيويورك.

أدين بالامتنان لأطفالي لصبرهم ودعمهم وبالأخص ابنتي روبيكا فيتز شيريكو لآرائها النوعية المفيدة، وختامًا أعبر عن عظيم امتناني لزوجتي الدكتورة إيفلين (تيمي) بيرج فيتز، فقد كان تشجيعها وانتقاداتها وتحريرها ضروريًا جدًا في كلا إصداري هذا المشروع.

* * *

إيمان فاقد الأب

الجزء الأول

الملحدون والمؤمنون وآباؤهم

١ - الإلحاد الحاد...

من المهم أن أبدأ بدراسة السيكولوجيا الشخصية العميقة للمُلحدين سواء العظماء منهم أو المتحمسون المؤثرون، ومما لا شك فيه أن الإلحاد لم يكن ببساطة هو التعبير عن السيكولوجية الشخصية للمُلحدين المُهمين؛ حيث تلقى الكثير من الدعم من القوى الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، ومع ذلك فقد برز في الحياة الشخصية لأشخاص مُحددين، كان الكثير منهم من المفكرين البارزين في العصر الحديث؛ مثل فردريك نيتشه، وسيغموند فرويد، وبرتراند راسل، وجان بول سارتر، ومن ثَمَّ فإن الإلحاد القوي أو الحاد ينتج بدرجة رئيسة من الحاجات النفسية الغريبة لأنصارها.

لكن لماذا ينبغي للمرء دراسة نفسية المُلحدين بأي حال من الأحوال؟ هل هناك أي سبب من الأسباب للاعتقاد بوجود أنماط نفسية متينة في حياتهم؟ في

الواقع هناك أصل نفسي متماسك للإلحاد الحاد، وتجدر الإشارة هنا إلى أن المُلحدين المصرحين بإلحادهم يميلون بدرجة ملحوظة إلى الظهور في نطاق ضيق من الطبقات الاجتماعية والاقتصادية، كالجامعات وأوساط المثقفين وفي بعضِ المهن، وبذلك فهم يشكلونَ جزءًا مهمًا من الطبقة الحاكمة، وعلى العكس من ذلك، يظهر المؤمنون في نطاق أوسع بكثير في كامل أنحاءِ الطيف الاجتماعي، وهناك بالتأكيد سبب بديهي لتوقع الاتساق في سيكولوجيا غير المؤمنين، نظرًا لأعدادهم الصغيرة نسبيًا، وللعدد المحدود للأوساط الاجتماعية التي يتواجدون فيها.

وقد يتساءلُ القارئ مع ذلك عما إن كان ذلك غير عادل أو حتى غير مبرر، والسؤال الذي يثور هنا: لماذا يخضع الإلحاد للتحليل النفسي؟ هل لهذا صلة بقضيةِ الكفر؟ ويجب علينا هنا أن نتذكر أن الملحدين أنفسهم هم الذين بدؤوا بالاقتراب السيكولوجي من مسألة الإيمان، حيث يشتهر كثير من الملحدين في الواقع بجدالهم حول معاناة المؤمنين من الأوهام، ومن الاحتياجات غير الواعية والطفولية، ومن نواقص نفسية أخرى، وقد غلبَ على موقف الملحدين التفسير العدواني للاعتقاد الديني واعتباره ناشئًا من عوامل نفسية، وليس عن طبيعة الواقع، وعلاوةً على ذلك فقد كان لهذا التفسير تأثير واسع النطاق، وباختصار، فإن النظرية القائلة: إن الله إسقاط لاحتياجاتنا الخاصة، هي موقف حديث

مألوف، ويُقدَّم على سبيل المثال في دورات جامعية لا تُعد ولا تُحصى، لكن المفاهيم السيكولوجية المستخدمة بفاعلية كبيرة في تفسير الدين من قِبَل أولئك الذين ينكرون وجود الله هي سيوف ذات حدين قد تستخدم أيضًا، وبسهولة حقًا، في تفسير عدم إيمانهم.

أخيرًا، هناك سبب وجيه لسبر أغوار علم النفس الإلحادي؛ وهو أنه يقدم لنا فهمًا للأسباب التي تقوم لأجلها بعض القوى التاريخية الشائعة في العهد الحديث بالترويج بثقة للموقف الإلحادي، وسنلاحظ كيف أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تبنت سيكولوجيا مماثلة قد روجت أيضًا لنشرِ الإلحاد، من خلال تحديد العوامل النفسية في حياة أشهر الكافرين بالخالق، ومن خلال البدء بما هو سيكولوجي نستطيع أن نرى كيف يتحول ما هو شخصي إلى سياسي، أي باختصار يوجد تزامن ما بين علم النفس الإلحادي وعلم الاجتماع الإلحادي.

وأود هنا أن أقدم نقطتين متعلقتين بالافتراضات الضمنية للتحليل الحالي:

أولًا- أفترضُ أن العوائق الرئيسة للإيمان بالإله ليست عقلانية، ولكن يمكن أن يُطلق عليها بالمعنى العام أنها نفسية، ولديَّ قناعة تامة بأنه يوجد مقابل كل شخص يحمله النقاش العقلاني بشكل قوي على تغيير رأيه ما لا يعد ولا يحصى من المتأثرين بشكل أكبر بعوامل نفسية غير عقلانية كالعوامل التي أناقشها هنا، وقد كتبَ القديس بول عن واحدة من أقدم نظريات اللاوعي: «لأَن الإِرَادَةَ حَاضِرَة عِنْدِي، وَأَما أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ..... وَلكِنِي أَرَى نَامُوسًا

آخَرَ فِي أَعْضَائِي يُحَارِبُ نَامُوسَ ذِهْنِي» (إلى أهل رومية.٢٣،١٨ :٧)، ويبدو لي بالتالي أنه علم نفس سليم أو نظرية لاهوتية سليمة، تمكن من قبول كون العوامل معيقةً للإيمان، وأن هذه العوامل غالبًا ما تكون غير واعية، ولا يستطيع أحد أن يفهمَ قلب الإنسان جيدًا أو أن يعرف كل عيوبه، لكنها مهمة مناسبة لعالم النفس أن يقوم بالمحاولة على الأقل، وأقترحُ إذًا أن هنالك أهمية كبيرة للعوائق النفسية والعصبية غير المنطقية التي تكمن على طريق الإيمان بالإله.

ثانيًا- لا يزال لكل منا حرية الاختيار في قبول أو رفض الإله رغم الصعوبات المختلفة، ولا يتناقض ذلك مع النقطة الأولى؛ وسيتضح هذا الأمر جيدًا بشيء من التفصيل؛ فقد يجد البعض أن الإيمان بالإله صعب نتيجةً لظروف خاصة سابقة أو حالية، لكن من المفترض أنهم ما زالوا قادرين على الاختيار بين الإقبال نحو الإله أو الابتعاد عنه، وبالمثل يمكن للذين ولدوا دون عوائق نفسية للإيمان أن يختاروا بين هذين الطريقين.

ورغم أن المسألة في نهاية المطاف تتبع الإرادة فمن الممكن مع ذلك التحقيق في العوامل النفسية التي تقود أحدهم إلى الكفر، وتجعل الطريق نحو الإله صعبًا على نحو استثنائي[١].

***

نظرية الإسقاط لتفسير الإيمان بالله[2]...

كما هو معروف عمومًا، فإن انتقاد فرويد للإيمان بالله يجعل هذا الإيمان غير جدير بالثقة بسبب أصولِهِ السيكولوجية، أي أن الإله مجرد إسقاط لرغباتنا الشديدة غير الواعية، وهو محقق للأماني المستمدة من الاحتياجات الطفولية للحماية والأمان، وأي إنكار لمثل هذا التفسير يكون بمثابة إعطاء مصداقية له بما أن هذه الأماني غير واعية إلى حد كبير، ومن الملاحظ أنه مع طرح هذا النوع من النقد يرفع فرويد من درجة أهمية شخصنة هذه المناظرة؛ حيث جعل موقفه أوضح ما يكون في كتابه (مستقبل وهم)، «نشأت الأفكار الدينية من ذات الاحتياج الذي نشأت منه جميع إنجازات الحضارة: «من ضرورة الدفاع عن النفس ضد قوى الطبيعة المتفوقة الساحقة»[3]، فالمعتقدات الدينية بالتالي هي «أوهام، تحقق أقدم وأقوى وأكثر الرغبات البشرية إلحاحًا... وكما نعلم أصلًا، فإن الانطباع المرعب للعجز في مرحلة الطفولة قد أثار الحاجة إلى الحماية - الحماية من خلال المحبة - التي تم توفيرها من قِبَلِ الأب... وهكذا يُهدئ الحكم الخير للعناية الإلهية من مخاوفنا تجاه مخاطر الحياة»[4].

وعند النظر بدقة إلى موضوع الجدال هذا، نرى أنه ضعيف جدًا على الرغم من قبول العديد له بشكل حماسي، وقد أخفق فرويد في المقطع الأول، بخلاف ما تنص عليه كلماتُهُ الخاصة، بأن يشير إلى أن جداله ضد المعتقد الديني صالح

على حد سواء لمواجهة العديد من الإنجازات الحضارية، بما في ذلك التحليل النفسي بذاته.

ويورد فرويد في المقطع الثاني ادعاءً آخر يبدو غريبًا، وهو أن الرغبات البشرية الأكثر قدمًا وإلحاحًا هي الحصول على الحماية المُحِبة والإرشاد من قِبَلِ والد قوي، ومع ذلك، إذا كانت هذه الرغبات قوية كما يدعي، فسيتوقع المرء أن الديانات التي سبقت المسيحية مباشرةً أكدت بقوة أن الإله بمثابة الأب الخير، ولم يكن هذا هو الحال بشكل عام بالنسبة للديانات الوثنية في بلدان البحر الأبيض المتوسط، ولا ينطبق كذلك على الأديان الرئيسة كالبوذية والهندوسية، وتمتلك المسيحية في الواقع كثيرًا من النواحي المميزة في تأكيدها على أن الإله كالأب المحب؛ (إن هذا التركيز على الأب هو أيضًا من سماتِ العديد من أكثر الديانات بدائيةً).

دعونا نضع جانبًا نقاط الضعف السابقة وننتقل إلى جانب آخر من جوانب نظرية فرويد عن الإسقاط؛ حيث يمكن إثبات أن نظريته ليست في الحقيقة جزءًا من التحليل النفسي - وبالتالي لا يمكن أن تطالب بالدعم من نظرية تحليل نفسي، وبعبارة أخرى، إن جدال فرويد مستقل بالأساس، وتتأصل اتجاهات موقفه الناقد ورفضه للدين في نوازعه الشخصية، ويعد تفسيره للدين نوعًا من التحليل النفسي المتبدل، أو إطار عمل غير مُعتمَد من قِبَلِ المفاهيم السريرية

على وجه التحديد، وبالتأكيد فإن عدم وجود علاقة نظرية ما بين نظرية الإسقاط والتحليل النفسي يُفسر تأثيرها العام واسع النطاق خارج عالم التحليل النفسي، ويوجد دليلان دامغان **لهذا التفسير المتعلق بنظرية الإسقاط:**

الأول- صيغت نظرية فرويد بوضوح منذ عدة سنوات من قِبَل لودفيغ فيورباخ في كتابه (جوهر المسيحية)[٥]، كان تفسير فيورباخ معروفًا جيدًا في الأوساط الفكرية الأوروبية، وقرأ فرويد لفيورباخ بشغف عندما كان شابًا[٦]، والاقتباسات التوضيحية في كتاب فيورباخ جعلت فيورباخ ذا تأثير واضح على فرويد: «إن ما يفتقده الإنسان سواء أكان ذلك حاجةً واضحة، وبالتالي واعية، أو غير واعية - هو إلهه»؛ «يبرز الإنسان طبيعته في العالم الخارجي قبل أن يجدها في ذاته»؛ «العيشُ في صور الحلم المرتقب هو جوهر الدين، يُضحي الدين بالواقع من أجل الحلم المرتقب»[٧]، فالملاحظ أن فيورباخ يصف الدين في كل مكان من كتابه من خلال المصطلحات «الفرويدية» مثل «محقق الأمنيات» وما شابه ذلك، وما فعله فرويد بعد سنوات لاحقة هو إحياء موقف فيورباخ، والتعبير عنه بشكل أكثر بلاغة، ونَشْرِه في الوقت الذي أصبحت فيه الجماهير التي تتقبل مثل هذه نظرية أكثر عددًا، (أحرز الموقف الإلحادي بين عامي ١٨٤١ و١٩٢٧ تقدمًا كبيرًا في المجتمع الغربي)، وباعتبار أن فرويد هو مؤلف الكتاب فيفترض أن تدعم نتائج التحليل النفسي هذه النظرية بطريقة أو بأخرى، وقد ظهرت شخصية فيورباخ

أيضًا في موقف فرويد في كتابه «وهم» من خلال استعماله لجمل مفتاحية مثل «قوة الطبيعة المتفوقة الساحقة» و«الانطباع المرعب للعجز في مرحلة الطفولة» والتي لا تَمُت للتحليل النفسي بصلة، لا اصطلاحيًا ولا في المعنى.

ثانيًا- يعترف فرويد ذاته بأن نظرية الإسقاط لا تنشأ من أدلة التحليل النفسي؛ ففي رسالة أرسلها عام ١٩٢٧م إلى صديقه أوسكار فيستر (محلل نفسي قديم وراعي أبرشية بروتستانتي مؤمن) كتب فرويد: «لنكن واضحين تمامًا في مسألة أن الآراء المُعرب عنها في كتابي [مستقبل وهم] لا تُشكل أي جزء من نظرية تحليلية؛ إنها آرائي الشخصية»[٨].

وعلى الرغم من ذلك يلمح فرويد في كتابه «وهم» إلى أنه ضليع جدًا في أمور علم النفس المتعلقة بالإيمان بالله، ولا تكمن القضية هنا على كل حال؛ فلدى فرويد في الواقع خبرة ضئيلة في التحليل النفسي بما يتعلق بالمرضى المؤمنين بالله أو المرضى المتدينين بصدق[٩].

ولم تتعلق أي من الحالات التي نشرها فرويد في عصر التحليل النفسي بمرضى يؤمنون بالله، ويعني ذلك أن فرويد لم ينشر في أي مكان تحليلًا نفسيًا للإيمان بالله مبنيًا على أدلة سريرية مزودة من قِبَل مريض مُؤمن، ولم يقدم علنًا أي دليل نفسي هام لنظريته في الإسقاط أو لأفكاره الأخرى حول الدين، وبدلًا من ذلك، ركز هاجس فرويد الشخصي الغريب في المقام الأول على نصوص وقضايا

مستمدة من علم الإنسان، والتاريخ، والأدب، وليس من أي تجربة تحليل نفسي مذكورة، وباختصار، إن نظرية الإسقاط العامة لفرويد هي نظرية لتفسير الدين معتمدة على ذاتها، وغير مدعمة من قِبَلِ نظرية تحليل نفسي أو من أدلةِ سريرية.

ومن المهم أن أضيف أنه لا يوجد على حد علمي أي دليل عملي منهجي لدعم فرضية الإسقاط في مرحلة الطفولة على أنها أساس الإيمان بالله، إن افتراض أن المعتقد الديني هو اضطراب عصبي وذو نتيجة عكسية من الناحية النفسية قد رُفض بشكل كبير في الواقع، وبدلًا من ذلك، هناك الآن الكثير من البحوث التي تبين أن الحياة الدينية مرتبطة بالمزيد من الصحة البدنية والسعادة النفسية[١٠].

«نظرية الإلحاد» غير المعترف بها لفرويد...

على الرغم من أن فرويد محق تمامًا في اعتبار أن الإيمان قد يكون وهمًا؛ لأنه مستمد من رغبات قوية أو احتياجات طفولية غير واعية، إلا أن ما يثير السخرية هو أنه يوفر من غير قصد وسيلة جديدة قوية لإدراك أن الوهم هو الأساس النفسي لرفض الإله - وهذه هي نظرية الإسقاط في الإلحاد[١١].

إن المفهومَ الرئيسَ في عمل فرويد بالإضافة إلى اللاوعي، هو عقدة أوديب المعروفة، وسنذكر فيما يلي السمات الأساسية لهذه العقدة في حالة تنمية الشخصية الذكورية، يطور الصبي رغبة جنسية قوية تجاه أمه في سن الثالثة تقريبًا، وفي الوقتِ نفسه، يطور بغضًا شديدًا وخوفًا من والده ورغبة في أن يحل محله

«توق إلى السلطة»، وتستند هذه الكراهية إلى معرفة الصبي بأن والده ذا الحجم الأكبر والأكثر قوةً، يقف في طريق رغبته، وقد يكون خوف الطفل من والده بصراحة هو الخوف من أن يقوم الأب بإخصائهِ، ولكن يتظاهر الوضع النموذجي عادةً بسمات أقل تحديدًا، بالتأكيد لا يقتل الابن والده فعليًا، ولكن يُفترض أن قتل الولد لأبيه هو الانهماك الشائع لخياله اللاواعي ولأحلامه، ومن المفترض أن يحدث «انحلال» للعقدة من خلال إدراك الصبي لعدم مقدرته على أن يحل محل والده، ومن خلال الخوف من الإخصاء الذي يقود الصبي في نهاية المطاف إلى أن يشابه نفسه مع والده - مع المعتدي - وإلى أن يكبح العناصر الأولية المخيفة لهذه العقدة يكتمل هذا الانحلال عادةً في سن الخامسة تقريبًا.

من المهم أن نبقي في أذهاننا أنه، ووفقًا لفرويد، فإن عقدة أوديب لا تُشفى على الإطلاق، وقد تعاود الظهور في فترات لاحقة - على الدوام تقريبًا، في سن البلوغ على سبيل المثال، وهكذا، فالواقع أنه لم تزل العناصر القوية من الكراهية القاتلة والرغبة الجنسية بالمحارم داخل الأسرة أبدًا؛ إنها بالكاد تُغطى وتُكبح فحسب، ويستمر البالغ بالخوف مما أصبح الآن أبًا ضمنيًا، والذي اندمج في الأنا العليا، إن الخوف والعداء الأخلاقي الموجهين ذاتيًا، مستعدان دائمًا للانفجار من اللاوعي، ويُفسر فرويد الاحتمالات العصبية للحالة بقوله: «إن عقدة أوديب هي النواة الفعلية للاضطرابات العصبية... وإن ما تبقى من العقدة في اللاوعي يُمثل

الاستعداد إلى التطور اللاحق للاضطراب العصبي لدى البالغ»[١٢]، وباختصار، تنشأ الاضطرابات العصبية الإنسانية عن هذه العقدة، لا يتم إبداء هذه القدرات بأسلوب عُصابي جدي في كثير من الحالات، ولكنها تظهر في المواقف الحاسمة تجاه الإله والسلطة، وتظهر أيضًا في زلات اللسان، وفي اللاعقلانيات العابرة، وما شابه ذلك.

وبصرف النظر عن الأبعاد الشخصية لعقدة أوديب فقد أعد فرويد نموذجًا ثقافيًا تاريخيًا لهذه العقدة في كتاب «طوطم والحرام»[١٣]، عرضَ فيه اقتراحًا للأصل الأوديبي والطوطمي في الدين، مسلمًا بأن أقدم مرحلة في المجتمع تألفت من «أب عنيف وغيور يُبقي على جميع الإناث لنفسه، ويدفعُ أبناءه بعيدًا عنه حين يكبروا»[١٤]، واقترح فرويد أن حالة البشرية الأولية هي هذه الجماعات البدائية التي لا تملك حضارة حقيقية، ولكن «الإخوة الذين طُرِدوا، جاؤوا في أحد الأيام، فقتلوا وافترسوا والدهم، ووضعوا حدًا للجماعات الأبوية؛ حيث كان لديهم الشجاعة وهم متحدون لأن يقوموا وينجحوا بفعل ما سوف يكون مستحيلًا لو فعلوه بشكل فردي»[١٥]، ويفسر فرويد التهامهم للأب المقتول بافتراضه أن: «أكل لحم البشر الهمجي على الشاكلة التي كانوا عليها، يمر دون ذكر أنهم قد افترسوا ضحيتهم بالإضافة إلى قتلها، ومما لا شك فيه أن الأب البدائي العنيف كان النموذج المُخيف والمَحسود لكل من الإخوة الشركاء؛ وفي

فعل افتراسهم له حققوا تشابههم معه واكتسب كل منهم جزءًا من قوته، وبالتالي فإن وجبة الطوطم، التي ربما تكون المهرجان البشري الأقدم، قد تكون تكرارًا وإحياءً لذكرى هذا الفعل الإجرامي الذي لا يُنسى، والذي كان بدايةً لأشياء كثيرة - بدايةً للمنظومة الاجتماعية، للقيود الأخلاقية وللدين[١٦].

وينهي مناظرته فيما يخص عقدة أوديب: «ولكي تبدو العواقب السابقة تلك معقولة، وبترك فرضياتها جانبًا، علينا فقط أن نفترض أن غوغائية الإخوة الصاخبة أُشبعت بالمشاعر المتناقضة ذاتها التي يمكن أن نراها أثناء العمل على عقد الأب المتناقضة عند أولادنا وعند مرضانا ذوي الاضطرابات العصبية، فقد كرهوا والدهم الذي يشكل عائقًا هائلًا يحول بينهم وبين شغفهم بالسلطة ورغباتهم الجنسية، لكنهم أحبوه أيضًا وأعجبوا به؛ فبعد أن تخلصوا منه وأرضوا كراهيتهم ونفذوا رغبتهم بأن يضعوا أنفسهم في مكانه كان لا بد للمودة التي تم كبحها كل هذا الوقت أن تصبح محسوسة، وبدا ذلك على هيئة الندم، كما بدأ الشعور بالذنب بالظهور، وقد اقترن في هذا المثال بالندم الذي شعرت به المجموعة بأكملها، فأصبح الأب المقتول أقوى مما كان عليه وهو على قيد الحياة[١٧].

إن تطور هذه الفكرة في كتاب «الطوطم والحرام» يوازي بشكل وثيق عَرْضَ فرويد لعقدة أوديب في كتاب «الأنا والهو»، على سبيل المثال، ولكن مع اختلاف واحد مثير للاهتمام[١٨]، يبدو فرويد في مناظرته حول أصل الدين في الطوطم أكثر

انشغالًا بالعنف - مع كره الابن لوالده وتمرده ضده - بينما يُبدي في كتاباته الأوديبية الأخرى تشديدًا أكثر وطأةً على العلاقة الجنسية مع الأم.

وبتصريحه حول أصل الدين، لقي تفسير فرويد رفضًا شاملًا من جهة علماء علم الإنسان، ويعود ذلك جزئيًا إلى أنه وببساطة لا يوجد دليل على أن الحضارة قد بدأت على الشاكلة التي اقترحها فرويد في «الجماعات البدائية» وهي وحدات عائلية أساسية تظهر منذ البداية المطلقة[١٩]، يُقدم فيلهلم شميدت نقدًا بسيطًا ولكنه مدمر لنظرية فرويد الأوديبية الطوطمية عن أصل الدين:

أولًا- هنالك العديد من الحضارات التي لم تصل بعد إلى المرحلة الطوطمية، ومع ذلك، تمتلك الحضارات ما قبل الطوطمية دينًا.

ثانيًا- لم تُظهر بعض الحضارات المتقدمة أنها مرت إطلاقًا بالمرحلة الطوطمية، ومع ذلك فقد كان لها دين مثل جميع الحضارات[٢٠]، لا تستطيع النظرية الطوطمية - وإلى درجة أكبر لا تستطيع النظرية الأوديبية - أن تُفسر أصل الدين، بينما نظرية فرويد عن كيفية نشوء الدين هي نوعًا ما «قصصية إلى حد كبير».

رغم ذلك فقد وضَعَ فرويد من غير قصد سببًا منطقيًا واضحًا لفهم أصل تحقيق الرغبات في رفض الإله عند افتراضه أن عقدة أوديب العالمية هي أصل كل ما لدينا من اضطرابات عصبية، ومع ذلك فإن عقدة أوديب موجودة في اللاوعي،

فهي تنشأ في مرحلة الطفولة، وفوق كل شيء فإن الدافع المهيمن فيها هو كراهية الأب (الإله) والرغبة في عدم وجوده، وهذا ما تمثل في رغبة الصبي بإطاحة الأب أو قتله، وقد وصَفَ فرويد الإله بصورة منتظمة على أنه المقابل النفسي للأب، وبالتالي فإن التعبير الطبيعي للحافز الأوديبي سيكون عبارة عن رغبات قوية وغير واعية في عدم وجود الإله، وضمن الهيكل الفرويدي سيكون الإلحاد عبارة عن وهم ناجم عن الرغبة الأوديبية في قتل الأب (الإله) والحل محله، ويكشف التصرف كما لو أن الإله غير موجود عن الرغبة في قتله، ويشابه ذلك إلى حد كبير كيف أن رؤية صورة أحد الوالدين في الحلم تعد أمنية، والاعتقاد بأن «الإله ميت»، هو إذًا مجرد تحقيق لرغبة أوديبية - بمعنى أنه دلالة على حافز خطير غير واعٍ لم يتم حله[٢١].

ومن المؤكد أنه ليس من الصعب إدراك الطابع الأوديبي في الكثير من الإلحاد المعاصر وفي مذهب الشك، أولئك الذين يعيشون حياة تتميز بالفوضى الجنسية والإلحاد يعيشون خارج التمرد الأوديبي البدائي حسب تحليل فرويد. ولا يتوقف الحلم الأوديبي عند قتل الأب وامتلاك الأم أو غيرها من النساء؛ بل يشمل أيضًا الحل محل الأب، وقد حاول الإلحاد الحديث تحقيق ذلك، إن الإنسان الآن، وليس الإله، هو المصدر المطلق المخصص بشكل واعٍ للخير والقوة في الكون، تمجده الفلسفات الإنسانية هو و«قدراته» بشكل يشابه إلى حد

كبير الطريقة التي يمجد فيها الدينُ الخالق؛ نحن نؤول من إله واحد، إلى آلهة عدة، إلى كون كل شخص هو إلهًا بحد ذاته، حيث يضع المرء نفسه على عرش الإله من خلال نرجسيته ورغباته الأوديبية، وبفضل فرويد يمكننا أن نفهم بسهولة أكبر الانخداع العميق وعلم النفس الأوديبي العصابي تمامًا للكفر.

وأحد الأمثلة المثيرة للاهتمام عن الحافز الأوديبي المقترح هنا هو فولتير الرائد في الشك حول كل شيء يتعلق بالدين، والذي أنكر المفهوم المسيحي عن وجود إله شخصي، وأنكر وجود إله أب، وكان فولتير ربوبيًا يؤمن بوجود إله كوني متجرد من الشخصية وذي صفة مجهولة[٢٢]، إن الشيء المهم على الصعيد النفسي فيما يخص فولتير هو أنه رفض والده بشدة - لدرجة أنه تبرأ من اسم والده (آروت) واتخذ اسم «فولتير»، ولا ندري على سبيل الجزم من أين جاء بالاسم الجديد[٢٣]، نشرَ فولتير عندما كان في العشرينات من عمره (عام ١٧١٨م) مسرحية بعنوان أوديب (أديبوس) وهي أولى مسرحياته التي قام بأدائها أمام العامة، تحكي المسرحية التي حازت نجاحًا كبيرًا تلك الأسطورة الكلاسيكية بطريقة تُبطن بعمق التمرد الديني والسياسي[٢٤].

إن رفضْ فولتير لوالده، ورفضه لوجود إله أب، وأيضًا رفضه السياسي (في مسرحيته) للملك - المعترف به كرمز أبوي - كلها انعكاسات لنفس الحاجة الأساسية، وبكلمات سيكولوجية، فإن تمرد فولتير تجاه والده وتجاه الإله يُفسر

مباشرةً بأنه تحقيق للأماني الأوديبية التي لم يتم حلها والمستمدة من مرحلة الطفولة، وبالتالي فإن رفض فولتير للإله هو وهم مريح، وتبعًا لمنطق فرويد هو معتقد لا يليق بعقل ناضج.

كان ديدرو الموسوعي الكبير والمُصرح بالإلحاد - وهو أحد الإخوة المؤسسين للإلحاد الحديث - يتميز بكل من الانهماك الأوديبي ونفاذ البصيرة. ويستشهد فرويد بملاحظات ديدرو التوقعية مستحسنًا إياها: «إذا تركتَ الهمجية الصغيرة لديه، محافظةً على كل ما تملكه من حماقة، ومضيفةً إلى الإدراك الضئيل لطفل في المهد الشهواتِ العنيفة لرجل في الثلاثين، سيقوم بخنقِ والدِهِ والنومِ مع والدته»[٢٥].

***

نظرية جديدة في الإلحاد
فرضية الأب المَعيب...

أدركُ جيدًا أن هنالك سببًا وجيهًا كي لا نقبل نظرية فرويد الأوديبية إلا بشكل محدود فحسب، ومهما يكن، فرغم أن عقدة أوديب تنطبق على البعض، لكنها نظرية بعيدة عن تفسير الحافز غير الواعي بشكل شامل، وذلك من وجهة نظري الخاصة، ومن ثَمَّ فنحن بحاجة إلى فهم أوسع للإلحاد، وبالأخص لنوع الإلحاد الحاد، وانطلاقًا من أني لا أعلم بوجود أي إطار نظري عدا الإطار الأوديبي فأجدُ نفسي مجبرًا على أن أصمم شيئًا ما من نموذج جديد، ولكني في الحقيقة سأطور فرضية غير مطورة لفرويد نفسه، وقد عقب فرويد في مقالته حول ليوناردو دافينشي أن «التحليل النفسي الذي تعلمنا من خلاله الرابط الوثيق ما بين عقدة الأب والإيمان بالله، أظهر لنا أن الإله المتمثل بشخصية، هو منطقيًا ليس إلا أبًا ممجدًا، ويتضح لنا يوميًا كيف يفقد الشباب إيمانهم الديني بمجرد أن تنهار سلطة الأب»[٢٦].

وهذه الملاحظة المثيرة للاهتمام لا تتطلب أي افتراضات حول الرغبات الجنسية غير الواعية تجاه الأم، ولا حتى حول الكراهية التنافسية العامة المُفترضة التي تُركز على الأب؛ بل قام فرويد بدلًا من ذلك بافتراض الادعاء الأبسط والأسهل فهمًا بأنه كلما أُصيب الطفل أو الشاب بخيبة أمل بوالده الدنيوي أو

فقد احترامه، أصبح مستحيلًا عليه الإيمان بالأب السماوي، وقد افترض فرويد فكرة التمثيل النفسي عند الطفل تجاه والده، وهي الفكرة التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بفهمه لوجود الله تعالى، ثم قام بذلك عدد من علماء النفس لا سيما أخصائيو التحليل النفسي[٢٧]، ويمكننا القول إن خيبة أمل المُلحد من والده واستياءه منه تُبرران رفضه لوجود الله.

ولا شك أن هناك كثيرًا من الطرق التي يُمكن أن تجعل الأب يفقد سلطته أو يخيب أمل ولده بشكل جدي: حيث يُمكن أن يكون غائبًا عن طريق الموت أو الهجرة، ويمكن أن يكون حاضرًا ولكنه ضعيف، واضح الضعف، جبان لا يستحق الاحترام، حتى لو كان مُمتعًا ولطيفًا، أو يُمكن أن يكون موجودًا ولكنه مؤذ جسديًا أو جنسيًا أو نفسيًا، سنسمي هذه المُحددات المُقترحة مجتمعةً من الإلحاد بفرضية «الوالد المعيب» وسأسعى لإبراز أدلة على ذلك من خلال حياة المُلحدين البارزين، حيث إنني كنت بصدد قراءة سيرهم الذاتية عندما وجدت هذا التفسير لأول مرة، وقبل أن أعرض أدلة هذه الفرضية من حياة الملحدين البرازين، سأتوسع في فرضية الأب المعيب وذلك بوضعها في سياق نظرية نفسية حديثة نسبيًا.

***

امتداد للنظرية

فرضية التعلق غير الآمن
(أو عدم الأمان في العلاقة)

منذ بدأ إصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب التي اكتملت تقريبًا في بداية التسعينيات، طُبِّقت نظرية نفسية مهمة لفهم الإيمان وعدم الإيمان، وكان أول من بدأ بتطبيق المقاربة الأساسية المعروفة باسم «نظرية التعلق» هو المختص بعلم النفس الإنكليزي جون بولبي[1] John Bowlby، ثم كانت أول من قاس هذه المقاربة تجريبيًا وأكدت صحتها عالمة النفس الأمريكية ماري أينسورث Mary Ainsworth[2]، تحدد النظرية الأهمية المحورية لرابطة التعلق المبكرة بين الأم (أو شخصية أمومية أخرى) وبين الطفل، حيث تقوم هذه الرابطة بتأسيس النموذج الداخلي للعلاقات الشخصية المتبادلة عند الطفل (وهو النموذج الذي يؤثر عليه

---

(١) ج. بولبي J.Bowlby، التعلق والخسارة Attachment and Loss، المجلد ١، التعلق Attachment (نيويورك: الكتب الأساسية، ١٩٦٩/ ١٩٨٢)؛ بولبي، التعلق والخسارة Attachment and Loss، المجلد ٢، الانفصال Separation (نيويورك: الكتب الأساسية، ١٩٧٣)؛ بولبي، التعلق والخسارة Attachment and Loss، المجلد ٣، الخسارة والحزن والاكتئاب Loss Sadness and Depression (نيويورك: الكتب الأساسية، ١٩٨٠).

(٢) م. د. س. أينسورث، «العلاقة بين الأم ورضيعها Infant-Mother Attachment»، عالم النفس الأمريكي American Psychologist ٣٤، العدد ١٠ (١٩٧٩): ٩٣٢-٩٣٧؛ أينسورث، «العلاقة بين الأم ورضيعها Infant-Mother Attachment»، عالم النفس الأمريكي American Psychologist ٤٤، العدد ٤ (١٩٨٩): ٧٠٩-٧١٦.

طوال حياته، وهو مهم جدًا لفهم نفسية الأطفال والشباب على وجه الخصوص)، إن مركزية وأهمية هذه العلاقة المبكرة - بالإضافة إلى علاقات أخرى تأتي سريعًا بعد تكون العلاقة بين الأم والطفل؛ مثل العلاقة مع الأب ومع الإخوة - ولقد وضح بولبي أهمية هذه العلاقات مستخدمًا كثيرًا من الأدلة السريرية والوصفية، وإنه لمن المهم التفكير بأمان تعلق الطفل بالأب، فعلى الرغم من كونها عمومًا أقل أهمية من تعلق بالأم، إلا أنها تكون عادة مهمة جدًا، وغالبًا ما ينصب التركيز عليها في الدراسات التي تتناول تأثير الآباء على اعتقادات أبنائهم الدينية.

طورت أينسورث Ainsworth إحدى طالبات بولبي اختبارًا لقياس نوع أو نمط العلاقة بين الأم والطفل، وقد أسهمت وآخرون في تأسيس أربعة أنماط للتعلق؛ فالأول هو التعلق الآمن، وهو النوع الأكثر شيوعًا (على الأقل في معظم التجمعات السكانية)، وربما تصل نسبته إلى قرابة ٦٥٪ من العلاقات بين الأم والطفل، أما النمط الثاني فيدعى الانطوائي غير الآمن insecure avoidant أو الرافض dismissive، وهو يشير إلى الأطفال الذين لا يشعرون بالأمان في علاقاتهم مع أمهاتهم (والناس الآخرين)، وتراهم ينكفؤون عن تكوين العلاقات، فيتجنبونها وينؤون بأنفسهم بسبب ما يعتريهم من قلق وخوفٍ أن تؤدي بهم هذه العلاقات إلى الهجر والانعزال، وعندما يصبح هؤلاء بالغين، فإنهم يرفضون بشدة العلاقات المقربة - بما في ذلك الحب - باعتبارها علاقات ليست ضرورية، وأما

النمط الثالث فهو التعلق المضطرب القلق غير الآمن insecure ambivalent؛ ويبدو الأطفال في هذا النمط أيضًا قلقين حيال التعلق، ولكنهم لا يتجنبون العلاقات؛ بل يسعون إليها بأسلوب قلق، بمعنى أنهم عادة ما يتشبثون ويصرون على لفت الانتباه وأن يكون الطرف الآخر متمسكًا بهم، عندما يكبر هؤلاء، فإنهم غالبًا ما يحاولون التمسك بالعلاقة أو التحكم بها، ولهذا النمط اسم آخر وهو الاستحواذ preoccupied، وأما النمط الرابع فليس شائعًا نسبيًا ويسمى غير المنتظم Disorganized أو متزعزع الرأي unresolved؛ ويشير ذلك إلى الانسحاب والارتباك، وإلى نوع من اليأس العاطفي والسلوكي في العلاقات[1].

قد يوجد النمط الانطوائي غير الآمن لدى ٢٠٪ من الناس، والمضطرب القلق غير الآمن لدى ١٥٪، بينما قد تصل نسبة الاستحواذ إلى ٥٪ من السكان، هذه النسب بطبيعة الحال تقريبية وتختلف باختلاف الناس وشرائحهم، وخصوصًا النمط الثالث «الاستحواذ».

---

(١) م. د. س.، أينسورث وزملائها، نماذج التعلق: دراسة نفسية للحالة الغريبة Patterns of Attachment: A Psychological Study of the Strange Situation (ماوا، نيوجرسي: لورنس إرلبام، ١٩٧٨)؛ م. ماين M. Main و ج. سولومون j. Solomon، «اكتشاف نمط علائقي مشوش/ غير منتظم غير آمن Discovery of an Insecure-Disorganized /Disoriented Attachment Pattern، في كتاب النمو العاطفي في سن الطفولة Affective Development in Infancy، تحرير ت. ب. برازيلتون T. B. Brazelton و م. دبليو. يوغمان M. W. Yogman (نوروود، نيوجرسي: أبليكس، ١٩٨٦)، الصفحات ٩٥-١٢٤.

بعد تركيز أنيسورث على أنماط التعلق لدى الأطفال، طورت استبيانات ومقابلات لقياس أنماط لدى البالغين (راجع المرجع أدناه ماري ماين)[1]، وبعد تحديد الأنماط الثلاثة الأكثر شيوعًا عند البالغين، بدأ علماء النفس تحري العلاقة الكامنة وراء التعلق الآمن أو غير الآمن من جهة والأنواع المختلفة لسلوك البالغين من جهة أخرى.

إن اهتمامنا هنا منصب بطبيعة الحال على الدراسات الأحدث التي تربط نمط تعلق البالغين مع الاعتقاد الديني، وعلى الرغم من أن مُنظِّري التعلق يركزون على الأم كما ذكرنا، إلا أن الأبحاث في مجال العلاقة بالله أظهرت أهمية أكبر للعلاقة بالأب، فعلى سبيل المثال، يذكر كل من ليمكي Limke ومايفيلد Mayfield [2] بأن التعلق بالأب ينبئ عن التعلق بالله، إلا أن التعلق بالأم لا ينبئ بذلك، بلغ حجم العينة في دراستهما ١٧٣ طالبًا في جامعة حكومية، معظمهم مسيحيون.

(١) م. ماين و إي. هيس و ن. كابلان، «توقعية السلوك التعلقي والعمليات التمثيلية في أعمار ١ و٦ و١٩سنة: دراسة بيركلي الطولانية Predictability of Attachment Behavior and Representational Processes at 1.6 and 19 Years of Age: The Berkeley Longitudinal Study، التعلق من سن الطفولة إلى البلوغ: الدراسات الطولانية الأساسية Attachment from Infancy to Adulthood: The Major Longitudinal Studies، تحرير ك. إي. غروسمان K. E. Grossman و ك. غروسمان K. Grossman و إي. واترز E. Waters (نيويورك: غويلفورد، ٢٠٠٥)، الصفحات ٢٥٤-٣٠٤.

(٢) أ. ليمك و ب. ب. مايفيلد، «العلاقة بالله: التفريق بين مساهمات الآباء والأمهات باستخدام تجارب على مقياس العلاقات الأبوي»، مجلة علم النفس والدين Journal of Psychology and Theology ٣٩ (٢٠٠١): ١٢٢-١٢٩.

التعلق والتدين

إن أول من بدأ دراسة العلاقة بين التعلق والمعتقد الديني هما كيركباتريك Kirkpatrick وشيفَر[1] Shaver (لم أنتبه لهذه الدراسات إلا بعد بضعة سنوات من صدورها)، وزادت الأبحاث لاحقًا حول هذا الموضوع المهم بسبب عمل «لي كيركباتريك» و«بهر جرانكفيست»[2]، للاطلاع على مراجعة، انظر المرجع أدناه جرانكفيست، ميلكولينسير، وشيفر[3]، (سوف أركز في هذا القسم على تلخيص أعمالهم الأساسية ذات الصلة بموضوعنا، معرجًا على المادة القيمة

---

(١) ل. أ. كيركباتريك و ب. ر. شيفر، «الدين ونظرية التعلق: علاقات الطفولة والمعتقدات الدينية وتغيير الدين Attachment Theory and Religion: Childhood Attachments Religious Beliefs and Conversion، مجلة الدراسة العلمية للدين Journal for the Scientific Study of Religion ٢٩، العدد ٣ (١٩٩٠): ٣١٥-٣٣٤؛ كيركباتريك وشيفر «منهج نظرية التعلق في الحب الرومنسي والمعتقد الديني»، النشرة النفسية الاجتماعية والشخصية Personality and Social Psychology Bulletin ١٨ (١٩٩٢): ٢٦٦-٢٧٥.

(٢) ل. أ. كيركباتريك، التعلق والتطور وعلم نفس الدين Attachment Evolution and the Psychology of Religion (نيويورك: جيلفورد، ٢٠٠٥)؛ بهر غرانكفيست، Pehr Granqvist التعلق والدين: إطار عمل نمائي تكاملي Attachment and Religion: An Integrative Developmental Framework، الخلاصات الشاملة لأطروحات أوبسالا من كلية العلوم الاجتماعية ١١٦ (أوبسالا: السويد: جامعة أكتا الأوبسالانية Acta UniversitatisUpsaliensis، ٢٠٠٢)؛ ب. غرانكفيست و ل. أ. كريكباتريك، «التعلق والتمثيلات الدينية والسلوك»، في كتيب التعلق Handbook of Attachment، تحرير ج. كاسيدي J. Cassidy و ب. شيفر P. Shaver، الإصدار الثاني (نيويورك: جيلفورد، ٢٠٠٨)، الصفحات ٩٠٦-٩٣٣.

(٣) ب. غرانكفيست و م. ميكولينسر و ب. ر. شيفر، «الدين كعلاقة: العمليات الطبيعية والاختلافات الفردية»، مراجعة علم النفس الاجتماعي والشخصي Personality and Social Psychology Review ١٤ (٢٠١٠): ٤٩-٥٩.

للزملاء بيتر مارتين وأندرو سودرجرين)[1].

يعلل كيرك باتريك وشيفر بأنه في حين كون علاقة المرء بالله مختلفة نوعيًا عن العلاقة بالبشر، إلا أنَّها تبقى على الرغم من ذلك علاقة تبادلية؛ وهي بذلك تتأثر بنظام التعلق ونماذج الداخلية الفاعلة عند الإنسان؛ أي بالأنماط الداخلية للتعلق القائمة على دراسة الطفولة وباقي علاقات التعلق الباكرة[2]، وكما سيُذكر هنا كثيرًا، من وجهة نظر يهودية مسيحية، يمكن فهم الله كشخصية مثالية للتعلق: الكائن الفرد العليم القادر الودود، والجاهز دومًا لتقديم الأمن في أوقات المحن وانعدام الأمان، اقترح كيركباتريك وشافير فرضيتين تربطان حالة التعلق بالاعتقاد الديني لدى الشخص؛ تقول الفرضية الأولى – والتي تدعى فرضية المعاوضة –

---

(١) ب. إي. مارتين، التحول الديني: نقد للنماذج العلمية الاجتماعية الأساسية الحالية للردة واستجابة أنثروبولوجية مسيحية Religious Conversion: A Critique of Current Major Social Science Models of Conversion and a Christian Anthropological Response (أرلينغتون، فيرجينيا: معهد العلوم النفسية، ٢٠٠٩)، مستردة من بروكست للإطروحات والرسائل الجامعية ، Proquest Dissertations and Theses
http: / /search.proquest.com /docview /858209388?=27532
(إذن الوصول رقم 858209388)، أ. ج. سوديرغرين، التعلق والأخلاق: منظور كاثوليكي (أطروحة دكتوراه، أرلينغتون، فيرجينيا: معهد العلوم النفسية، ٢٠٠٩)، مستردة من Proquest بروكست للإطروحات والرسائل الجامعية Proquest Dissertations and Theses
http: / /search.proquest.com /pqdtft /docview /911033394 /fulltext /PDF /13
E9988F55A471B4C94 /1?accountid=27532. .(إذن الوصول رقم 3482775)

(٢) كيركباتريك وشيفر «المقاربة النظرية للتعلق Attachment Theoretical Approach، من هنا وهناك.

بأنَّ الأشخاص الذين لديهم نمط تعلق غير آمن يكونون أكثر عرضة للتوجه إلى الله كشخصية تعلق تعويضية بما تقدمه لهم من الأمن والأمان الذي يفتقدونه، وهي ظلال لنظرية الإسقاط لفرويد، ولقد افترضا أيضًا أنَّ هذا التعلق غير الآمن قد يكون له علاقة بالتحولات الدينية المفاجئة، أما الفرضية الثانية لهما فهي فرضية التوافق والتي تعبر عن أنَّ علاقة المرء بربه تتوافق مع حالته التعلقية أو تكون انعكاسًا لها، وفي هذه الحالة سيكون من الأسهل للأفراد ذوي التعلق الآمن إنشاء علاقة وثيقة بالله، بينما سيكون ذلك أصعب بالنسبة للأفراد ذوي التعلق غير الآمن وبالتالي سيكونون أقل قابلية للتدين.

فأيٌّ من هاتين الفرضيتين المتناقضتين تقريبًا هي الصحيحة؟ يبدو أنَّ كلاهما صحيحٌ إلى حد ما، أظهرت الدراسات المختلفة أن الأشخاص الذين لديهم أشكال غير آمنة من التعلق يكونون أكثر عرضة لتغيير دينهم فجأة (راجع أدناه غرانكفيست وكيركباتريك، دراسة تحليل بعدي metaanalysis)[1]، أظهرت بعض الدراسات، (مثل دراسة كيركباتريك وشيفر)، أنَّ التعلق غير الآمن ارتبط مع مستويات أعلى من التدين مقارنةً بالتعلق الآمن[2]، وعلى أي حال، كان هذا

---

(١) ب. غرانكفيست و ل. أ. كريكباتريك، «التحول الديني والتعلق المدرك في مرحلة الطفولة: تحليل بعدي Religious Conversion and Perceived Childhood Attachment: A Meta-analysis»، المجلة العالمية لعلم النفس والدين The International Journal for the Psychology of Religion ١٤، عدد ٤ (٢٠٠٤): ٢٢٣-٢٥٠.

(٢) كيركباتريك وشيفر «المقاربة النظرية للتعلق Attachment Theoretical Approach»، من هنا وهناك.

صحيحًا فقط بالنسبة للأشخاص الذين سجلوا عن تدين والدي قليل، وفي معظم الدراسات، غالبًا ما يصرح أصحاب التعلق الآمن بدراجات أعلى من الالتزام الديني أو المشاركة الدينية مقارنة بالبقية الذين شملتهم الدراسة (كيركباتريك وشيفر)[١]؛ حيث كانوا أكثر قابلية للتصريح عن علاقة شخصية مع إله ودود[٢]، وأكثر قدرة على اللجوء إلى الله في أوقات المحن[٣]، كما أنَّ لهم مراقبةً أكبر لله[٤].

لقد وضح غرانغ فيست وهاجيكل هذه الحالة من خلال تقديم مراجعة لفرضية التوافق، فقد قدموا تصورًا يقول بأنَّ الأفراد الذين لديهم تاريخ تعلق آمن

---

(١) كيركباتريك وشيفر «المقاربة النظرية للتعلق Attachment Theoretical Approach»، من هنا وهناك.

(٢) ل. أ. كيركباتريك، «إله كشخصية تعلقية بديلة: دراسة طولانية على نمط علاقة البالغين والتغير الديني في طلاب الجامعة»، النشرة النفسية الاجتماعية والشخصية Personality and Social Psychology Bulletin ٢٤، عدد ٩ (١٩٩٨): ٩٦١-٩٧٣. ب. غرانكفيست و ب. هاجيكل، «الدين وعلاقة البالغين ولماذا يكون (العزاب selgnis) أكثر تدينًا»، المجلة العالمية لعلم النفس والدين The International Journal for the Psychology of Religion ١٠، عدد ٢ (٢٠٠٠): ١١١-١٢٣.

(٣) أ. بيرغيغارد و ب. غرانكفيست «التوافق بين العلاقة بالأبوين من جهة وبالله من جهة أخرى: ثلاث تجارب باستخدام نماذج لا شعورية»، المجلة العالمية لعلم النفس والدين The International Journal for the Psychology of Religion ٣٠، العدد ٩ (٢٠٠٤): ١١٢٢-١١٣٥.

(٤) د. ف. رينرت، «الروحانية والتمثيل الذاتي والعلاقة مع الأبوين: دراسة طولانية على الطلاب الإكليريكيين الجامعيين الكاثوليك الرومان Spirituality Self-Representations and Attachments to Parents: A Longitudinal Study of Roman Catholic College Seminarians، القيم وتقديم الاستشارة Counseling and Values ٤٩ (٢٠٠٥): ٢٢٦-٢٣٨.

والأفراد الذين لديهم تاريخ تعلق غير آمن يصلون إلى التدين عبر طرقٍ مختلفة. وقد استشهدا بأبحاث تقترح بأن التعلق الآمن يساهم في انتقال القيم الأبوية؛ حيث افترضا بأنه في حالات التدين الأبوي الشديد، ينتهي أصحاب التعلق الآمن بدرجات أعلى من التدين بالمقارنة مع أصحاب التعلق غير الآمن، وفي الحالة المقابلة عندما يكون لدى الأبوين تدين منخفض، فسوف ينتهي الأبناء أصحاب التعلق الآمن بحالة تدين منخفض مشابه، في حين يطور أصحاب التعلق غير الآمن درجاتٍ أعلى من التدين في مثل هذه الحالة، إن العملية الكامنة التي توصل الأفراد الآمنين إلى مستوى تدينهم هي الاختلاط الاجتماعي التدريجي، وبالمقابل، فإن العملية للأشخاص ذوي التعلق غير الآمن مبنية أكثر على أساسٍ عاطفي، يحفزها حاجةٌ عاطفية غير مشبعة للأمان، وبذلك تكون أقل استقرارًا وأكثر عرضة للتغيير المفاجئ[1].

لقد برهن هذا التوضيح أنه مفيدٌ، كما ثبت في النتائج التجريبية، فلقد أظهرت الدراسات أنَّ تدين أصحاب التعلق الآمن عادة ما يكون أكثر استقرارًا مع الزمن، وأكثر توافقًا مع تدين الأبوين، وبعكس ذلك، يكون تدين أصحاب التعلق غير

(١) ب. غرانكفيست و ب. هاجيكل، «التعلق: تنميط التوافق الاجتماعي والتعويض العاطفي Attachment: Profiling Socialized Correspondence and Emotional Compensation»، مجلة الدراسة العلمية للدين Journal for the Scientific Study of Religion ٣٨، العدد ٢ (١٩٩٩): ٢٥٤-٢٧٣.

الآمن محفزًا بالاحتياجات العاطفية، وغير مستقرٍ في كلا الاتجاهين (التحول والردة)، كما يكون ارتباطه بتدين الوالدين أضعف[1].

في حين يبدو أن التعلق غير الآمن ينشئ حاجةً ذات أساس عاطفي أقوى للاتصال بالله، وغالبًا ما يكون أصحاب التعلق الآمن أكثر رضىً عاطفيًا عن علاقتهم بالله[2]، فعلى سبيل المثال، وجد كيركباتريك وشيفر بأنَّ الأفراد ذوي التعلق الآمن بالله سجلوا درجات أقل من القلق والاكتئاب والمرض الجسدي،

---

(١) المرجع السابق. راجع أيضًا. غرانكفيست و ب. هاجيكل، «السعي وراء الأمان في العصر الجديد: في التعلق والتعويض العاطفي Seeking Security in the New Age: On Attachment and Emotional Compensation، مجلة الدراسات العلمية للدين Journal for the Scientific Study of Religion ٤٠، العدد ٣ (٢٠٠١): ٥٢٧-٥٤٥؛ ب. غرانكفيست، «التعلق والتدين في سن المراهقة: التقييمات العرضية والطولانية Attachment and Religiosity in Adolescence: Cross-Sectional and Longitudinal Evaluations، النشرة النفسية الاجتماعية والشخصية nitelluB ygolohcysP laicoS dna ytilanosreP ٢٨، العدد ٢ (٢٠٠٢): ٢٦٠-٢٧٠؛ ب. غرانكفيست، «بناء جسر بين التعلق والكفاح الديني: اختبارات لرؤساء الجلسات والوسطاء Building a Bridge between Attachment and Religious Coping : Tests of Moderators and Mediators»، الدين والصحة العقلية والثقافة Mental Health Religion and Culture ٨، العدد ١ (٢٠٠٥): ٣٥-٤٧.

(٢) دبليو. سي. روات و ل. أ. كيركباتريك، «أبعاد التعلق بالله وعلاقتها بالتأثير والتدين وبناء الشخصية»، مجلة الدراسة العلمية للدين Journal for the Scientific Study of Religion ٤١ (٢٠٠٢): ٦٣٧-٦٥١؛ د. ف. رينرت، «الروحانية والتمثيل الذاتي والعلاقات» هنا وهناك؛ ر. بيكر، «الله كأساس آمن: «العلاقة بالله والاستكشاف الديني»، مجلة علم النفس والدين Journal of Psychology and Theology ٣٤، العدد ٢ (٢٠٠٦): ١٢٥-١٣٢.

ودرجات أعلى من الرضى بالحياة مقارنة مع أصحاب التعلق غير الآمن بالله[1].

ولقد لاحظ تين إلشوف TenElshof و فورو Furrow أنَّ الأشخاص الذين ذكروا نمط تعلق آمن سجلوا درجات أعلى من النضج الإيماني[2]، وفي دراسة مثيرة للاهتمام استخدم فيها اختبارات تسمى بـ «جرد التعلق بالله Attachment to God Inventory»، وجد بيك أن التعلق الآمن بالله مكّن الأشخاص من انخراط أكبر في عالم الاستكشاف اللاهوتي، والتحلي بدرجات أعلى من التسامح مع مختلف المجموعات الدينية[3]، في حين أظهر أصحاب التعلق الآمن انفتاحًا أكبر واستكشافًا أوسع لتجربتهم الروحية مقارنة بأصحاب التعلق غير الآمن بالله، فقد أبلغوا عن درجاتٍ أقل من القلق والاضطراب خلال مسيرتهم، وعلاوة على ذلك وعلى الرغم من انفتاحهم وتسامحهم الأكثر من غيرهم، كان أصحاب التعلق الآمن أكثر التزامًا بالتعاليم الدينية الأساسية مظهرين التزامًا أصوليًا أقوى.

وفي دراسة مرتبطة تقريبًا بهذا، وجد غرانكفيست وهاجيكل Hagekull بأنَّ روحانية العصر الجديد New Age هي في المقام الأول روحانية عاطفية،

---

(١) كيركباتريك وشيفر «المقاربة النظرية للتعلق Attachment Theoretical Approach»، من هنا وهناك.

(٢) ج. ك. تين إلشوف TenElshof و ج. ل. فورو، «دور التعلق الآمن في توقع النضوج الروحي للطلاب في ندوة محافظة The Role of Secure Attachment in Predicting Spiritual Maturity of Students in a Conservative Seminary مجلة علم النفس والدين Journal of Psychology and Theology ٢٨ (٢٠٠٠): ٩٩-١٠٨.

(٣) بك، «الله كأساس آمن God as a Secure Base».

وبالتالي تجذب أعدادًا غير متناسبة من الأشخاص ذوي التعلق غير الآمن"[1]. وقد أظهرت هذه الدراسة أن روحانية العصر الجديد مرتبطة عكسيًا مع التعلق الآمن، وفي دراسة أخرى، سجل غرانكفيست وديكي Dickie أنَّ المشاركة في روحانية العصر الجديد ترتبط مع حالات عقلية غير منظمة (متزعزعة) باستخدام اختبارات جرد التعلق بالله[2]، والآن ننتقل للتركيز على قضية التعلق والإيمان.

التعلق والكفر

يمكن لنظرية التعلق بطريقة ما - مثل نظرية الأب المعيب - أن تتوقع كلا من الذين سيكونون مؤمنين والذين سيكونون غير مؤمنين، مع بعض الفروقات المميزة المهمة، (أنا مدين في هذه المادة لكيركباتريك وغرانكفيست)، فغالبًا ما يكون المؤمنون هم أطفال مؤمنون من أصحاب التعلق الآمن، بينما يعاني غير المؤمنين عادة تعلقًا غير آمن، ولكن يتحول نسبة كبيرة من غير المؤمنين إلى

(١) غرانكفيست و ب. هاجيكل، «السعي وراء الأمان في العصر الجديد Seeking Security in the New Age.

(٢) ب. غرانكفيست و ج. ر. ديكي، «نظرية التعلق والنمو الروحي في الطفولة والمراهقة Attachment Theory and Spiritual Development in Childhood and Adolescence، في كتيب التعلق Handbook of Attachment، تحرير ب. ل. بنسون وزملاؤه (ثاوزند أوكس، كاليفورنيا: ساج، ٢٠٠٦)، الصفحات ١٩٧-٢١٠. راجع أيضًا ب. غرانكفيست و م. فرانسون، «صلات متوقعة بين التعلق غير المنظم/ متزعزع الرأي والامتصاص وروحانية العصر الجديد Prospective Links among Unresolved /Disorganized Attachment Absorption and New Age Spirituality (ورقة مقدمة في الاتفاقية السنوية الـ ١١٥ للجمعية النفسية الأمريكية، سانفرانسيسكو، آب ٢٠٠٧).

مؤمنين بطريقة مفاجئة وحادة عادة، إن تاريخ التعلق المختلف لهذين النوعين من المؤمنين هو على الأرجح ما ناقشه ويليام جيمس بدقة منذ سنوات عديدة في كتابه اختلافات التجارب الدينية Varieties of Religious Experience، فلقد وصف فيه أولئك الذين لطالما كانوا مؤمنين بأنهم «الذين ولدوا مرة»، في حين وصف المتحولين فجأة إلى الإيمان بأنهم «المولودون مرتين»[1]، إن هذا الربط بين التعلق الآمن السابق أو القلق مع الحالة الجيمسية المعروفة (Jamesian distinction نسبة لجيمس) هو ما أشار إليه غرانكفيست صراحةً، سيبقى الملحدون ذوو التعلق الآمن ملحدين، ولكن المشكلة الكامنة بأن التعلق الآمن تأتي من والد محب آمن وخاصة الأب، وهذا يشابه الإله في المسيحية واليهودية. وفي معظم الحالات من غير المرجح أن يؤدي هذا إلى رفض الإلحاد، إلا أنَّه من المحتمل أن يؤهب للتسامح مع ما لدى الآخرين من اعتقاد ديني.

من جهة أخرى وكما نبهني زميلي بيتر مارتين، فإن الأطفال الذين تربوا ملحدين عندهم ميل أكبر لترك موقفهم الإلحادي مقارنة مع الأطفال الذين تربوا ضمن أديان أخرى، يبين أحد البحوث أنه من ضمن كل «المجموعات الدينية»،

(١) دبليو. جيمس، تنوعات التجربة الدينية Varieties of Religious Experience (نيويورك: لونغمانز، غرين، ١٩٠٢).

يملك الملحدون أدنى معدل للبقاء على ما هم عليه بحدود ٣٠٪"[١]، تظهر المجموعات التالية نسب بقاء الأطفال الناشئين في مجموعة دينية معينة على الدين الذي نشؤوا عليه: الأبرشيين ٣٧٪، المشيخيين ٤١٪، الميتوديين ٤٦٪، البوذية ٤٩٪، المعمدانيين ٦٠٪، الكاثوليك ٦٨٪، المورمون ٧٠٪، المسلمين ٧٦٪، والهندوس ٨٤٪. لا شك أن هذه النتائج مرتبطة بعوامل متنوعة كالترابط الاجتماعي أو الإكراه من الجماعة الدينية، ولكن قد يعود ذلك أيضًا إلى مدى امتلاك المجموعات المختلفة عوائل تنشأ فيها تعلق آمن أو تعلق قلق، إن النتائج التي تشير إلى انخفاض معدل بقاء الملحدين كملحدين تقول إن العائلات الملحدة تكون أقل استقرارًا وتعطي بالمتوسط مستويات أقل من أمان التعلق، كما أنني أظن أنَّ الملحدين على الأرجح أقل تزاوجًا، وأقل احتمالًا للإنجاب إن تزوجوا[٢].

---

(١) ناقش هذه النتيجة والمادة المتعلقة بها مركز الأبحاث التطبيقية في التبشيرية Center for Applied Research in the Apostolate في «العائدون: الكاثوليك الذين تركوا وعادوا :The Reverts Catholics Who Left and Came Back) (مدونة)، ١٩ حزيران، ٢٠١٢،

http: / /nineteensixty-four.blogspot.com /2012 /06 /reverts-catholics-who-left-and-came-back.html.

راجع أبيضَ ب. إي. مارتين، الإلحاد كميًا: نتائج تجريبية نم العلوم الاجتماعية Atheism Quantified: Empirical Findings from the Social Sciences(تحضير ماجستير في العلوم، ٢٠١٢).

(٢) بالطبع تخضع هذه الاقتراحات عن العوائل الملحدة ومعدلات زيجات الملحدين للاختبار التجريبي.

أُكمل موضوعنا الآن باقتباس وتلخيص تناول كيركباتريك للعلاقة بين الإلحاد ونمط التعلق الانطوائي، الرافض، ولكن دعونا بداية نلاحظ بأن كيركباتريك نفسه غير مؤمن؛ ويبدو أنه لا أدري أو مشكك، ومع ذلك، فقد قام بعمل رائع عندما لخص كيف يرتبط التعلق غير الآمن مع الكفر، والذي يوحي بعلاقة سيئة مع الأب، حيث كتب:

إن الناس الذين صنفوا أنفسهم بأنهم آمنون كانوا أكثر احتمالًا من المصنفين كانطوائيين على رؤية الله بأنه أكثر حبًا وأقل تحكمًا وأقل بعدًا، وأسهل وصولًا. كان الانطوائيون أقل التزامًا دينيًا مقارنة الأشخاص الآمنين، كما كانوا أكثر عرضةً لتصنيف أنفسهم لاأدريين مقارنة ببقية المجموعات... وأعيد الحصول على النتائج لاحقًا في دراستين غير منشورتين قمت بهما في جامعة ساوث كارولينا[1].

والمعلومات الأخرى ذات الصلة - وهي مرة أخرى من كيركباتريك - تشمل إشارته إلى دراسة أجراها برادلي ستراهان Bradley Strahan أعاد الحصول فيها على بعض النتائج المذكورة أعلاه عند طلاب جامعة تتبع كنيسة في أستراليا، لقد وجد ستراهان بأن الطلاب الانطوائيين الذين شملتهم الدراسة سجلوا نسبةً أقل كثيرًا من باقي المجموعات الأخرى في بند «إنني متأكد تمامًا بأنَّ الله يهتم بي»، وفي هذه الدراسة أيضًا، سجل الطلاب الانطوائيون أو الرافضون

(١) كيركباتريك، التعلق والتطور وعلم النفس في الدين Attachment Evolution and the Psychology of Religion، ص. ١٠٦.

أدنى درجات التدين الداخلي، أي الالتزام الديني الحقيقي، علمًا أن النتائج كانت معتبرة إحصائيًا في هذه العينة ضمن فئة الذكور فقط[1]، وعليه تقدم هذه الدراسة دليلًا جيدًا يدعم ربط عدم الإيمان مع نمط الاستجابة الانطوائي أو الرافض.

لقد استشهد كيركباترك أيضًا بدراسة أجريت قبل ذلك بفترة من قبل فيتير Vetter وغرين Green[2]، حيث درسا عينة من ٣٥٠ عضوًا من أعضاء الجمعية الأميركية لترقية الإلحاد American Association for the Advancement of Atheism، من أجل تحري العوامل والأسباب المحتملة وراء مواقفهم المعادية للدين، من هؤلاء وجدت ٣٠ امرأة فقط، لذا فإن النتائج تسجل موقف ٣٢٠ رجلًا استجابوا للدراسة؛ وقد وصف أعضاء هذه المجموعة غالبًا فقدهم لأحد الأبوين أو ضعف العلاقة مع أحدهما أو كلاهما خلال فترة الطفولة، وينبغي أن نضيف أن الملحدين قد سجلوا نسبًا أعلى من الطفولة التعيسة، والمراهقة التعيسة مقارنة مع طلاب الجامعة المحافظين أو

(١) ب. ستراهان، الأبوة والتدين بين طلاب اليوم السابع للمؤمنين برجوع المسيح المثلثين SDA Tertiary Students: منهج نظرية التعلق Parenting and Religiosity amongst SDA Tertiary Students: An Attachment Theory Approach (مخطوطة غير منشورة، جامعة أفوندال Avondale، أستراليا، ١٩٩١)، مستشهد به في المرجع السابق. cited in ibid.

(٢) ج. ب. فاتير و م. غرين، «عوامل المجموعة والشخصية في صنع الملحدين Personality and Group Factors in the Making of Atheists، مجلة علم النفس الاجتماعي وعلم نفس الشواذ Journal of Abnormal and Social Psychology ٢٧ (١٩٣٢): ١٧٩-١٩٤.

حتى الرجعيين[1]، باعتبار أن الفئتين الأخيرتين يحتمل أنهما من فئات المؤمنين بالألوهية، أشار كيركباتريك إلى تقرير قدمه برودير Bruder وإلى تحقيق منهجي قام به كابلوفيتز Caplovitz وشيرّو Sherrow، إذ وجدوا نتائج مشابهة تخص الأبوين بما يتعلق بالردة أو التخلي عن الإيمان الديني في مرحلة البلوغ[2]، لم تحدد الدراسات السابقة قياساتٍ مباشرةً للتعلق، ولكن يبدو أنه من المنطقي افتراض أنَّ فقد أحد الأبوين أو وجود علاقة سيئة مع أحدهما أو كلاهما مرتبط تمامًا بتعلق غير آمن، وبطريقة مماثلة، يمكننا أن نفترض أنه بالمتوسط يوجد ارتباط بين الطفولة التعيسة والمراهقة التعيسة وبين علاقات سيئة مع الأبوين.

وتابع كيركباتريك بقوله:

كما شاهدنا في فصلٍ سابق، فإن الناس الذين ذكروا علاقات تعلقية انطوائية في البلوغ يميلون جدًا إلى وصف أنفسهم بأنهم ملحدون أو لا أدريون، وهذا يتسق مع المفهوم القائل بأن الناس الذين يفتقرون للنموذج العقلي الآمن

(١) المرجع السابق، ص. ١٨٩.

(٢) إي. إي. برودر E.E. Bruder، «بعض الاعتبارات في فقد الإيمان Some Considerations of the Loss of Faith»، مجلة العمل السريري والرعوي Journal of Clinical and Pastoral Work ١ (١٩٤٧): ١-١٠؛ د. كابلوفيتز D. Caplovitz و د. شيرّو D. Sherrow، المنقطعون دينيًا: الارتداد عند خريجي الجامعات (بيفرلي هيلز: ساج، ١٩٧٧)، استشهد به في كيركباتريك، التعلق والتطور وعلم النفس في الدين Attachment Evolution and the Psychology of Religion، ص. ١١٢.

لعلاقات التعلق سيكونون غير مرجحين (بالتزامن) للاحتفاظ بنموذج من هذا التعلق مع الله أو أي آلهة أخرى، وتمثل معتقدات العصر الجديد New Age كبديل لحالة عدم الإيمان مظهرًا من مظاهر التفكير المتجاوز للطبيعة الذي لا يتطلب مثل ذلك النموذج النفسي"[1].

ونخلص للقول بأن الفرضيتين؛ فرضية الأب المعيب، وفرضية التعلق غير الآمن، عندما يؤخذان معًا تطرحان أنَّ كلَّ ما قد يضعف أو يؤذي علاقة الطفل بوالده أو أبويه سيؤدي عمومًا إلى جعله عرضة خلال مرحلة البلوغ إلى الإلحاد أو الكفر أو إلى معتقدات روحانية أخرى خالية من ذات إلهية (إله شخصي).

***

(١) كيركباتريك، التعلق والتطور وعلم النفس في الدين Attachment Evolution and the Psychology of Religion، ص. ١٣٣.

٢ - الدليل: الملحدون وآباؤهم...

بما أنني سأبحث في الحياة الأسرية وعلم النفس الخاص بالأفراد المُلحدين، فمن الواضح أنني سأعتمد على أدلة من السيرة الذاتية، وللأسف فإن بيانات السيرة الذاتية القديمة للعديد من الشخصيات الهامة نادرة الوجود؛ حيث اعتبرت الطفولة في القرون الماضية غير مهمة نسبيًا، ولم تسجل غالبًا الحقائق الأساسية لهذا الجزء من حياة الناس.

ومع ذلك فإن ما أسعى إلى البحث عنه هو النمط الموجود في حياة الكثير من المُلحدين؛ فلا تُعد حياة مُلحد واحد قاعدة أساسية أو كافية لقبول أو رفض فرضية «الوالد المعيب» أو فرضية فقد أمان التعلق (وهاتان في الحقيقة فرضية واحدة لأن الآباء المعيبين يفترض أنهم ينشؤون عدم أمان في التعلق)، ويجب على القارئ أن يتحفظ على إطلاق الحُكم حتى يتم عرض أدلة السيرة الذاتية، ليس فقط بالنسبة للمُلحدين ولكن أيضًا للمُؤمنين المعروفين من نفس المجتمعات والفترات التاريخية، وفي حال تم اعتبار المُلحدين «مجموعة تجريبية»، فإن المؤمنين الذين سأتحدث عنهم في الفصل التالي يعتبرون هم «مجموعة المراقبة»، وسيشكل

الفرق بين الأنماط المتواجدة عند هاتين المجموعتين ما يُمكن اعتباره الدليل الأهم.

وقد اخترت للدراسة أولئك الذين اشتهروا تاريخيًا بأنهم مُلحدون، وهم كبار المُفكرين وغالبًا ما يكونون فلاسفة، والذين كان رفضهم لوجود الله تعالى عاملًا واضحًا في مواقفهم العامة وحياتهم الفكرية، ولن آخذ في الحسبان العلماء والفنانين؛ فالعلماء يهتمون عادة بالبحوث التجريبية كشأن أساسي لهم ولا تُعتبر نظرتهم للعالم عادةً سواءً كانوا مُلحدين أو مؤمنين شاغلًا رئيسًا في عملهم، كما أن من الصعب فصل القناعات الفكرية عن أعمال الخيال في الفن الخيالي والموسيقى والفنون البصرية، وبغض النظر عن ذلك فإن الأشخاص الذين نتعامل معهم هنا هم المعروفون بصفة عامة بأنهم المُؤسسون والمروجون للإلحاد الحديث وجحد الإيمان.

ولكن من هو المُلحد؟ وما علاقة هذه الفكرة بالحالات المشابهة مثل اللاأدرية والربوبية ووحدة الوجود وما شابه ذلك؟ وسأتناول هنا موضوع الإلحاد على أنه يعني رفض الإيمان بالله الواحد الذي يَسمو فوق العالم والذي قد يكون له علاقة شخصية بالبشرية، وهذا يعني في الديانة اليهودية المسيحية رفض الله الذي خلق العالم وقائم على حفظه ويتفاعل معه، ويعني في المسيحية الله الأب.

ونبدأ مع ما أسميه مُتلازمة «الأب الميت»، لأنها تُوفر الدليل الأكثر وضوحًا والموثق تاريخيًا لفرضية الأب المعيب، يُعد الأب الميت معيبًا لسببين:

الأول- هو أنه من الواضح أن الأب الميت لا يُمكن له أن يقوم بتربية الأطفال، ووفق هذا المعنى كلما كانت الفترة التي يكون فيها الأب ميتًا طويلة في حياة الطفل كان الأب معيبًا بشكل أكبر.

والثاني- أنه يتم تفسير وفاة أحد الوالدين عادةً من قبل الأطفال الصغار بأنه رفض وخيانة؛ حيث لا يفهم الأطفال الصغار الموت أنه ضرورة إنما يعتبرونه اختيارًا، ومع ذلك يعتمد تأثير هذا الإحساس بالرفض والخيانة على طبيعة العلاقة بين الأب والطفل، فالرفض عادةً عند وفاة الأب الذي لا يعرفه الطفل أقل أثرًا من حالة وفاة الأب الذي كان الطفل متعلقًا به.

ويبدو أن تأثير وفاة الأب في الطفل أكبر عندما تحدث عند الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث وخمس سنوات، **وهناك ثلاثة أسباب نفسية على الأقل لفهم هذه الفترة الحرجة:**

أولًا- الطبيعة النفسية لتطور العلاقة بين الطفل ووالده؛ حيث يكون الطفل في السنة الأولى أو نحو ذلك مرتبطًا بوالدته أكثر لأسباب معروفة، كما يُصبح الطفل عادةً أكثر ارتباطًا بوالده بمجرد أن يكون قادرًا على المشي والكلام، وهذا يحدث تقريبًا في حوالي السنتين، وبطبيعة الحال تبقى علاقة الطفل مع والدته قوية، ولكن

علاقة الطفل مع والده تبدأ عادةً في مثل هذا الوقت، على الأقل في أنواع الأسر التي سنتحدث عنها، ثم تستمر هذه العلاقة بالتطور بشكل وطيد، ولكن كثيرًا ما تضعف هذه العلاقة إلى حد ما في الوقت الذي يبلغ الطفل سن السادسة أو السابعة بسبب علاقات الأقران، وهي عادةً صداقات مع زملاء المدرسة وغيرهم من الأطفال، كما تبدأ بالنمو قدرة الطفل على فهم الموت كشيء آخر غير الرفض وذلك عند بلوغه سن المدرسة، ومع بلوغ الشخص سن العشرين، تكون وفاة أحد الوالدين - رغم أنه مؤلم - أقل ترجيحًا بكثير من أن يشكل تجربة نفسية أساسية.

ويخرج السبب الثاني من علم النفس الأوديبي، الذي بدأه فرويد ولا يزال يُشكل جزءًا هامًا من التحليل النفسي المُعاصر؛ حيث تُعد الفئة العمرية بين ثلاث وخمس سنوات في علم نفس الأطفال هي الفترة الأوديبية التي يتعلق فيها الطفل بشكل كبير بوالده ووالدته، كما هو مُوضح في الفصل الأخير، ويَحل الطفل عادةً الصراع الأوديبي في عمر خمس سنوات من خلال التطابق مع والده، وهذه الفترة حاسمة لتأسيس نفس الطفل - الأنا العُليا - (النظام الأخلاقي المستمد من الأب)، بالإضافة إلى تشكيل الهوية الجنسية.

و(سنهتم هنا في المقام الأول بعلم نفس الذكور، كون المُلحدين المُهمين تاريخيًا جميعهم رجالًا، أما إلحاد النساء فهو حالة خاصة ستعالج في وقت لاحق).

قام جون باولبي بمساهمة هامة لفهم تكوين الشخصية المُبكر، وثيقة الصلة جدًا بما نناقشه؛ وهي: مفهوم «قلق الانفصال» الذي يعد السبب الثالث؛ لكون خسارة الوالد المُبكرة مُدمرة، ويحدث عن طريق فصل الطفل عن أحد الوالدين المُحب، أو فقدانه، أو استبداله، وتنطوي هذه الظاهرة عادةً على فصل الطفل عن والدته، ولكن يُمكن للانفصال عن الوالد أيضًا أن يكون مصدر هذا القلق القوي والأساسي جدًا، وقد حدد باولبي الأعمار بين الثانية والرابعة بأنها حاسمة لتأسيس قلق الانفصال[1].

***

الآباء الميتون...

فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠):

سأقوم بدراسة المُلحدين ومن ثَمَّ المؤمنين حسب ترتيب الولادة الزمني، ولكنني سأبدأ مع نيتشه لأنه ربما المُلحد الأكثر شهرةً في العالم؛ حيث قام برفض المسيحية والإله المسيحي خصوصًا بشكل كبير ومثير، وتُعد مقولته الشهيرة إن «الله قد مات» معروفة للملايين، لقد كان مشغولًا جدًا بالدين طوال حياته، واستنكر بقلق شديد ومُتكرر الأفكار المسيحية ومن يؤمن بها، كما أن سيرة حياة نيتشه تتفق مع أفكاره المتصلة بشكل عميق بنفسيته المُعقدة والمُميزة، وقد قدم نيتشه نفسه الأساس وراء هذه الصلة حين قال: « اتضح لي تدريجيًا ماذا كانت كل فلسفة عظيمة حتى الآن: وبالضبط الاعتراف الشخصي لواضعها ونوع من

المذكرات غير الواعية وغير الإرادية ... وبالمقابل لا يوجد عند الفيلسوف أي شيء غير ذاتي؛ وفوق كل هذا تقدم أخلاقه شاهدًا حاسمًا وواضحًا عن كينونته»[٢]. وبشكل مشابه ادعى نيتشه بأنه: «لا يوجد لديَّ أي معرفة بالإلحاد باعتباره نتيجة للمنطق، ولا يزال أقل من كونه نتيجة، فهو بالنسبة لي فطرة»[٣]، لهذا لدينا سبب جيد للاعتقاد بظهور نفسية نيتشه غير المقصودة «فطرته» ضمن فلسفته.

وُلد نيتشه في قرية صغيرة في مقاطعة ساكسونيا - بوروسيا (ألمانيا) في ١٥ أكتوبر عام ١٨٤٤م، وهو نجل لقس لوثري، كان هناك العديد من رجال الدين في كلا طرفي عائلته، تُشير إحدى سيره الذاتية رغم كونه لم يتعلم الكلام حتى بلغ الثانية والنصف من العمر إلى أنه: «كان لديه بحلول ذلك الوقت علاقة وثيقة للغاية مع والده، والذي سمح له بالدراسة بينما كان يعمل»[٤].

توفي والد فردريك القس لودفيغ نيتشه في ٣٠ يوليو عام ١٨٤٩، قبل شهرين أو ثلاثة أشهر من عيد ميلاد نيتشه الخامس، حيث كان يعاني مرضًا في الدماغ، وقد أظهر تشريح الجثة وجود «تليين» أثر تقريبًا بمقدار ربع دماغه[٥]، كما كان يُعاني أحيانًا قبل وفاته وحتى قبل مرضه نوبات صرع صغيرة شكلت مصدر قلق لزوجته الشابة[٦]، يتحدث نيتشه غالبًا عن والده بشكل إيجابي وعن وفاته بأنها خسارة كبيرة لن ينساها، وقد ذهب أحد كتاب السيرة الذاتية إلى أن نيتشه كان «مُتعلقًا بشغف بوالده، وكانت صدمة فقدانه عميقة»[٧]، كما كتب نيتشه عندما كان

في سن المراهقة ذكريات من طفولته بعنوان Aitsmeinem Leben – أي (من حياتي) – والذي تضمن عرضًا لليوم الذي توفي فيه والده: «عندما استيقظتُ في صباح ذلك اليوم سَمعتُ بكاءً في كل مكان حولي، جاءت والدتي العزيزة عيناها تدمعان وهي تنتحب قائلة «يا إلهي! عزيزي لودفيغ قد مات!» ورغم كوني صغيرًا وبريئًا، إلا أنه كان لديَّ بعض الأفكار عما يعنيه الموت، بكيت بكاءً مريرًا لذهولي من فكرة كوني انفصلت عن والدي الحبيب إلى الأبد، مرت الأيام التي تلت ذلك بالبكاء مع الاستعدادات للجنازة، يا إلهي! لقد أصبحتُ يتيمًا ووالدتي أرملة! في ٢ آب سُلمت بقايا جثة والدي العزيز إلى الأرض... بدأت المراسم في الساعة الواحدة، يرافقها قرع من الأجراس.. آه، ستبقى دائمًا الضجة الصاخبة الجوفاء من تلك الأجراس في أذني، ولن أنسى أبدًا اللحن الكئيب لنشيد Jesu meine Zuversicht (أي المسيح هو إيماني)[٨].

أعربَ نيتشه الشاب في نفس هذه السيرة الذاتية المُبكرة عن الشعور الديني القوي وحدد الله مع والده الميت حين قال: «أرشدني الله بأمان في كل شيء كما يقود الأب طفله الضعيف الصغير... وأنا كالطفل كنتُ على ثقة في نعمه»[٩].

كتب نيتشه عندما كان في الرابعة والعشرين عن والده بأنه: «مات في وقت مُبكر جدًا، لقد افتقدت التوجيهات الصارمة والفاضلة من الفكر الذكري»[١٠]. ولكن بينت تعليقات أخرى من نيتشه بوضوح أنه على الرغم من كونه أحب والده

وأُعجب به، إلا أنه اعتبره إنسانًا ضعيفًا وواهنًا، يفتقر إلى «قوة الحياة»، وكان قد كتب في يوليو عام ١٨٨٨م قبل ستة أشهر من الانهيار العصبي الذي لم يتعافَ منه، بأنه يعاني «تحت ضغط من الإرهاق العصبي (والذي جزء منه وراثي - من والدي الذي توفي أيضًا من عواقب عدم تفشي قوة الحياة)»[١١]، وأوضح نيتشه هذا الربط عندما كتب: «توفي والدي في سن السادسة والثلاثين، كان رقيقًا ومحبوبًا وكئيبًا، وكأنه يجري مندفعًا لقضاء هذا العالم بزيارة عابرة - تذكرة لطيفة من الحياة عوضًا عن الحياة ذاتها»[١٢].

ارتبط ضعف والده العام ومرضه أيضًا بالنسبة لنيتشه بطبيعة الحال بما فيه الكفاية مع مسيحية والده، وكان انتقاد نيتشه الكبير للمسيحية (بمعناها المُتضمن الفضيلة ويسوع اللاهوت المسيحي والمعنى الكلي لإله المسيحية) هو أنها تعاني غياب أو رفض ما يُسمى «قوة الحياة»، كان الإله الذي اختاره نيتشه هو ديونيسيُوس (تعبير وثني قوي عن قوة الحياة)، ومن ثَمَّ ليس من الصعب ملاحظة رفض نيتشه لوجود الله والمسيحية باعتباره رفضًا لضعف والده، ويُمكن أن يُنظر إلى فلسفة نيتشه الخاصة - مع تأكيده على وجود السوبرمان «الإنسان الأمثل» (أو Ubermensch)، وعلى «الرغبة في السلطة» و«القساوة» و«ما سماه بالـ blond beast: الذي يقصد به أي شخص يتصرف بطريقة مفترسة»، بالإضافة إلى تشويه سمعة النساء المعروفة عنه (حيث إنه علق على سبيل المثال: «أنت

ذاهب لرؤية امرأة؟ لا تنس أن تأخذ سوطك!» و«إن سعادة الرجل هي بما يفعله هو، وسعادة المرأة هي بما يفعله الرجل»)[١٣] - على أنها جميعها تعبير إضافي عن محاولته تحديد النموذج الذكوري الذي لم يكن والده أبدًا قادرًا على توفيره، وبالنتيجة ولا حتى دين والده، لقد ضَعف بحثه عن الذكورة أيضًا بسبب سيطرة والدته وقريباته عليه بعد وفاة والده، حيث عاش ضمن أسرة مسيحية مع والدته وشقيقته الصغرى وجدته لوالده واثنتين من عماته حتى ذهب إلى المدرسة في سن الرابعة عشرة، ولذلك ليس من المُستغرب أن تكون الأخلاق المسيحية بالنسبة له شيئًا خاصًا بالنساء علامة على الضعف وعقلية العبيد، قال نيتشه في سيرته الذاتية Ecce Homo: «عندما أبحث في مُتناقضاتي العميقة - صغائر الأمور التي لا تُحصى من الغرائز - دائمًا أجدها متعلقة بوالدتي وأختي، وبالنسبة لي فإن هذه الطبيعة البسيطة والعامية تعدُ كالتجديف بحق ألوهيتي.

ملأتني المعالجة التي تلقيتُها من والدتي وأختي حتى هذه اللحظة برعب لا يُوصف: «ومما لا شك فيه أن هناك أداة شيطانية تعمل هنا»[١٤].

لقد واجه نيتشه في المدرسة المحلية التي ارتادها في صباه صعوبة في إقامة علاقات مع الأولاد الآخرين، حيث استهزؤوا به ولقبوه بـ«القس الصغير» نظرًا لحزمه وانضباطه وتدينه، ولم يُشارك بألعاب الصبيان، بسبب إصابته بقصر النظر وحساسيته السلبية من الناحية الجسدية ومرضه المُتكرر، وللتعويض عن مقدار

النقص الاجتماعي أكد نيتشه في هذه السن المُبكرة على إرادته، كانت لديه رغبة حقيقية في ضبط النفس، فقام ذات مرة بإثبات شجاعته للأطفال الآخرين من خلال أخذ حفنة من عيدان الثقاب وإضرام النار فيها وحملِها في كف يده حتى تدخل أحد المُتفرجين وأجبره على طرق يديه على الأرض، لكن يده كانت قد احترقت بشدة[١٥].

لاحظ العديد من الأشخاص الكثير من التناقض بين فلسفة نيتشه القاسية والمُثيرة والذكورية (الشخصية الخيالية التي ابتكرها) وبين سلوكه ومزاجه الحقيقي، كما كتب: «الحرب هي شيء آخر، أنا بطبيعتي مولع بالحرب، ومن بين مواهبي الهجوم»[١٦]، ولكنه كان مُتحفظًا وعقلانيًا، ومصابًا بالصداع وآلام المعدة ومشاكل صحية أخرى، بما في ذلك أعراض مرض الزهري؛ ومن ثَمَّ فقد كانت حالته الصحية سيئة وكثيرًا ما كان يبدو طريح الفراش وتتم رعايته من قبل أخته الصغرى ووالدته، ويُمكن أن تُفسر فلسفته على أنها صراع فكري شديد للتغلب على ضعف والده المسيحي، ذلك الضعف الذي كثيرًا ما بدا أنه يُلازمه، كما في هذا المنام، الذي راوده وهو صبي صغير عام ١٨٥٠م بعد ستة أشهر من وفاة والده وقبل وفاة شقيقه الرضيع بفترة قريبة: «سمعتُ عزف أورغ الكنيسة كما لو أنها جنازة، وعندما نظرت لرؤية ماذا يحدث، انفتح قبر فجأة وخرج والدي منه في كفن، فقام بالركض إلى الكنيسة وسرعان ما عاد مع طفل صغير على ذراعه، انفتحت كومة التراب الموضوعة على القبر مرةً أخرى وتسلقها عائدًا من جديد

إلى القبر، وعادت شاهدة القبر للغوص في التراب فوق الفتحة، توقفتْ عندها ضخامة الضوضاء الصادرة من الأورغ، ثم استيقظت وفي الصباح أخبرت والدتي الميتة بهذا الحلم، وبعد فترة قصيرة مرض جوزيف الصغير فجأة، وأُصيب بتشنجات ومات بعد بضع ساعات»[١٧].

باختصار، لدينا في حالة نيتشه رد فعل قوي وفكر ذكوري ضد الوالد الميت والمسيحي الذي كان يحبه ومعجبًا به إلا أنه ينظر إليه على أنه واهن وضعيف، وهذا يُمثل ما يُمكن تسميته بـ«قوة الموت»، أي أنه شخصية نقيضة تمامًا لشخصية الإنسان الأمثل التي حاول نيتشه جعلها مثالية. وكما وصف أحد كتاب السيرة الذاتية لنيتشه، بأنه يُمكن أن يُنظر إلى معظم حياته على أنها «السعي الدائم للأب»[١٨]، في الواقع يُمكن تفسير الإنسان الأمثل على أنه الشخصية المثالية لوالده.

ديفيد هيوم (١٧١١م - ١٧٧٦م):

لم يُعرف إلا القليل عن طفولة هذا الفيلسوف المهم، الذي كان مُلحدًا في وقت مُبكر أو مُتشككًا في الوقت الذي كان فيه الإلحاد الصريح خطرًا اجتماعيًا وسياسيًا، ينحدر ديفيد من عائلة ثرية وبارزة نسبيًا؛ إذ كان العديد منهم محامين[١٩]. ويبدو أن ديفيد كان على علاقة جيدة مع والدته وشقيقه الأكبر قليلًا منه وشقيقته الصغرى[٢٠]، تربى ديفيد كالمؤمن جنبًا إلى جنب مع عائلته وغالبية المجتمع في ذلك الوقت كتابع للكنيسة المَشيخية الاسكتلندية.

لكنه فقد إيمانه في عمر الشباب، على ما يبدو بعد قراءته مؤلفات لوك وكلارك[21]، ومن ثم يُوصَف هيوم بأنه أنيس الطبع ودمث الأخلاق، وقد أُعجبَ به كثيرون ممن خالفوه في أفكاره[22]، وَصَف هيوم شغفه المسيطر بأنه «حب للشهرة الأدبية»[23].

لكن هناك حقيقة أكثر أهمية وهي أن جوزيف والد ديفيد توفي عام ١٧١٣م عندما كان عمر الفيلسوف المستقبلي سنتين فقط[24]، ولا تذكرُ سيرة حياة هيوم أي أقرباء أو أصدقاء للعائلة كان يمكن أن يلعبوا دور الأب، وقد عُرِف عنه أنه رجل بلا أي معتقدات دينية وبقيامه بإثارة نقاشات ضد الدين بأي شكل ظهر به، وخاصةً النقاشات المُشككة، وقد خصص هيوم لموضوع الدين خلال فترة حياته المهنية القسم الأكبر من كتاباته أكثر من أي موضوع آخر؛ ولذلك أستنتج أن هيوم كان مُلحدًا بشدة وأن فرضية «الأب الميت» تنطبق عليه.

بيرتراند راسل (١٨٧٢م-١٩٧٠م):

يُعرف بيرتراند راسل بشكل عام بأنه الملحد الإنكليزي الأبرز، ومن المعروف جيدًا موقفُه الموجه نحو رفض الديانة المسيحية تحديدًا، ولعل أفضل تلخيص لموقفه كان في مجموعة مقالاته «لماذا لست مسيحيًا؟» (١٩٥٧م)، لكنه في الواقع عبر عن موقفه هذا بوضوح قبل ذلك بعدة عقود عندما نشر عددًا كبيرًا من مقالاته لأول مرة.

اتسمت حياة والدي بيرتراند الأرستقراطيين بأقصى درجات التطرف السياسي[٢٥]، فكانت مذكرات طفولة والدُ راسل اللورد أمبرلي مليئةً بالشؤون الدينية، ثم أصبح مُلحدًا في مرحلة البلوغ، وقد توفي عندما كان عمر بيرتراند أربعَ سنوات، أي أن بيرتراند أدرك لحظات النهاية فقط، ومما زاد الطين بلة وفاة والدة راسل قبل ذلك بعامين، فكانت رعايته على يدي جده وجدته، اللورد جون راسل والسيدة راسل، لكن جده كان شخصيةً بعيدةً نوعًا ما عنه، وقد توفي عام ١٨٧٨م عندما كان عمر بيرتراند ست سنوات، لذلك كانت والدته الفعلية هي السيدة راسل، التي عُرفتْ بلقب «البلادونا السامة»[٢٦]، فكانت ذات تأثير واضح في حياة بيرتراند، خصوصًا أنها تابعةً للكنيسة المشيخية الأسكتلندية منذ ولادتها، وهي ذات طابع متزمت، ويتميز سمتها الديني «بالتواضع المسيحي الحزين»[٢٧].

كان الدين في نُزُل بيمبروك؛ مكان إقامة جدته، نوعًا من البروتستانتية الانتقائية وهو أساس الحياة اليومية[٢٨]، ورغم اهتمام بيرتراند بالدين طوال حياته، إلا أنه أصبح لاأدريًا أو ملحدًا، ومن الواضح أن الدين الذي رفضه كان دين جدته، ووصفت كاثرين ابنة بيرتراند ذلك بقولها: «إن الشكل الوحيد من المسيحية الذي عرفه والدي جيدًا، أن الحياة في هذا العالم مجرد بيئة اختبار كئيبة من أجل النعيم المستقبلي... لقد تخلى والدي عن هذا الاعتقاد المريع بشكل كلي»[٢٩]. ووفقًا لما قالته ابنته، فقد سخر راسل من المسيحيين «لأنهم تخيلوا أن الإنسان

ذو أهمية في نظام الكون الشاسع... لكنه مع ذلك اعتقد أن الإنسان والحفاظ عليه هو الشيء الأكثر أهمية في العالم»[٣٠]، ثم ختمت بقولها «أعتقد شخصيًا، أن حياته كلها كانت بحثًا عن الله، أو بالنسبة للذين يفضلون مصطلحات أقل خصوصية، كانت بحثًا عن الحقيقة المطلقة»[٣١].

إن الشخصيات الوحيدة الأخرى التي لعبت دور الأهل بالنسبة لراسل هم سلسلةٌ من المُربيات اللواتي ارتبط بهن كثيرًا: وقد أصبح بيرتراند ذو الأحد عشر عامًا «لا عزاء له»[٣٢] عندما رحلت إحدى مربياته المحبوبات، وسرعان ما اكتشف بعد ذلك بفترة وجيزة بأن «إحدى طرق التخلص من الحزن لهذا التغير المستمر للمرافقين له هي القراءة والانسحاب إلى عالم بعيد وتجريدي أكثر فأكثر»[٣٣]. ويمكن أن تكون الوفاة المُبكرة لوالديه وجده، بالإضافة إلى «الخسارة» المُتكررة للمربيات، هي سبب توقه المدهش إلى الحقيقة: «أردت الحقيقة بنفس الطريقة التي يريد بها الناس الإيمان الديني»[٣٤]، بالإضافة إلى ذلك، كان بيرتراند خلال نشأته منعزلًا إلى حد بعيد، ولم يكن لديه أي صديق مقرب حقيقي.

وقد وصف راسل نفسه خلال السنوات المُبكرة من حياته التي تميزت بفقدانه لأحبته وبحياته الانعزالية في المنزل مع المُربيات، كالتالي: «ظلت مشاعري العميقة وحيدة دائمًا ولم أجد صُحبةً في الأمور البشرية... يَعني لي البحر والنجوم ورياح الليل في الأماكن القاحلة أكثر حتى من أحب الناس إلى نفسي،

وأنا مدرك بأن الوجدان البشري بالنسبة إلي هو في الحقيقة محاولة للهروب من البحث غير المجدي عن الله»[٣٥].

إن هذا الاقتباس اللافت للنظر يوحي بامتداد من فرضية الوالد المعيب إلى التنبؤ بأنه إن بدت كل العلاقات البشرية العاطفية مهددة فإن العلاقة مع الله وبالأخص مع الإله المحب تصبح مهددة كذلك، ومصدر هذا الانسحاب داخل الشخص قد ينتج عن فشل التعلق المبكر مع الوالدين والأسرة والأصدقاء أو من الاستعداد البيولوجي كما يوجد في الأفراد المصابين بالتوحد (انظر الفصل السادس عن التوحد والإلحاد أدناه)رغم أن هذا الشخص الانفعالي والانعزالي انكب على البحث عن أمر وحيد وهو الحقيقة والصفاء، لكنه ظل رجلًا مليئًا بالتناقضات: «هل نملك الإرادة الحرة؟ لقد أجاب بـ«لا» عندما كتب في الفلسفة، لكنه تصرف وكتب «نعم» عندما تعلق الأمر بشغفه الأخلاقي، هل هناك تقدم في العالم؟ ربما يجيب بـ«لا» ويسخر من الأشكال السخيفة له، لكنه تصرف بـ«نعم» وبنى حياته المليئة بالأمل على ذلك»[٣٦].

جان- بول سارتر (١٩٠٥م-١٩٨٠م):

يُعد سارتر أحد الملحدين الأكثر شهرةً في القرن العشرين؛ إذ ترتكز فلسفته الوجودية على الإلحاد، ويُلخص موقفه بشكل جيد بكلامه الشخصي: «إذا رفض الشخصُ الإله الأب، لا بد أن يقوم أحد ما بابتكار القيم... ولا يعني قولنا بأننا من يوجد القيم إلا ما يلي: لا يوجد معنىً مسبق للحياة؛ فقبل أن تأتي إلى الحياة

تكون الحياة عديمة المعنى، يعود أمرُ إضفاء المعنى عليها إليك، وليست القيمة إلا المعنى الذي اخترته»[٣٧].

توفي جان بابتيست والد سارتر عام ١٩٠٦م عندما كان عمر جان بول الصغير خمسة عشر شهرًا فقط[٣٨]، درسَ مؤرخ السير الذاتية رونالد هيمان علاقة سارتر بأمه وجده وزوج أمه بشكل جيد جدًا؛ فقد أقام سارتر ووالدته بعد وفاة والده مع جديه والدي أمه، كان جده تشارلز شفايتزر مُعلمه في صغره، لكن علاقتهما لم تكن وطيدةً عاطفيًا أبدًا، بالمقابل، أنشأ سارتر علاقةً وطيدةً جدًا مع أمه، كما يلاحظ هيمان: «ركزت [والدة سارتر] طاقتها العاطفية على ابنها الصغير الذي قامت بتلبية كل حاجاته، فكانت تغسله وتلبسه ملابسه، وأحذيته، وترجل شعره... لقد كان وسيمًا ذا بشرة وردية ووجنات منتفخة وشعر مجعد، وقد التُقِط له عدد لا يحصى من الصور»[٣٩].

وصلت هذه العلاقة الأوديبية الشاعرية و«الناجحة» إلى نهاية مؤلمة مع زواج أمه مرةً أخرى عندما كان عمر سارتر اثني عشر عامًا؛ فلم يكن مُقربًا من زوج أمه الجديد، وفي الواقع رفضه بشدة، وعند زواج أمه مرةً أخرى، «تعرض سارتر لخسارة لم يتعافَ تمامًا منها أبدًا، كان يشعر بأمان تام باستحواذه عليها، عندما كان يتقرب إليها بشكل أكبر خلال سن المراهقة، وقد أصبح جده الذكر المنافس الوحيد أضعف وأقل تهديدًا»[٤٠]، بذلك نشأ سارتر دون أب، دون أي

معنى نفسي حقيقي للأبوة. بمعنى آخر، توفي والد سارتر الحقيقي (تخلى عنه) في وقت مبكر جدًا، وكان جده هادئًا وبعيدًا، وقد أخذ زوجُ والدته أمه المحبوبة بعيدًا عنه.

بقي سارتر مقيمًا مع جديه بينما انتقلت أمه للعيش في شقة مع زوجها الجديد، ورغم أن جوزيف مانسي زوج والدته بذل جهدًا «ليكسب محبة ابن زوجته» إلا أنه وجد أن ذلك مستحيل[٤١]، لم يكن قد مضى على زواج والدته إلا ما يقارب العام عندما اتخذ سارتر الشاب قرارًا في نفسه: «أتعرف ماذا؟ الله غير موجود»[٤٢].

اعتبر سارتر في سيرته الذاتية «الكلمات» بعد ما يقارب الخمسين عامًا، أن وفاة والده كانت شيئًا من الحظ السعيد: إذ لم يتوجب على سارتر حتى نسيانه[٤٣]. ومع ذلك، كان سارتر مَهووسًا بالأبوة طوال حياته - ومن الواضح أنه لم يتغلب أبدًا على فقدانه للأب، لاحظ هيمان بعضًا من ذلك بوضوح باقتباسه من سيناريو لسارتر: «أردتُ أن أقتل أبي فيك"[٤٤]، في غضون ذلك، وفي طراز أوديبي حقيقي، أحاط سارتر نفسه بصف طويل من النساء المُحبات الأصغر سنًا.

وهناك شواهد عدة على استمرار انشغال سارتر بأفكار الأبوة في سيرة حديثة لحياته كتبها روبرت هارفي، وعنْوَنها على نحو ملائم بعنوان: «البحث عن الوالد: سارتر، الأبوة وقضية الأخلاق»[٤٥]، ويمكننا هنا أن نستعرض فقط بعض الجوانب

من انشغال سارتر الهوسي بالأبوة وبوالده وبالله، لقد شجب وتأمل الأبوة بشكل متكرر، وتدور فلسفته حول «الرجل العصامي» وعن تحول الإنسان إلى إله، وكثيرًا ما وصف الآباء في كتاباته مجازيًا بالحمل الثقيل، أو كعبْء يسحق أبناءهم، في المقابل، كان الطيش (وحتى الطيش غير المحتمل) عاقبة عدم امتلاك الأب، وتم العثور على أحد الانتقادات النموذجية للأبوة في كتابه «الكلمات» بقوله: «ليس هناك أب جيد، هذه هي القاعدة، فلا تلقِ اللوم على الرجال وإنما على رابطة الأبوة الفاسدة، الرغبة في إنجاب الأولاد: يا له من أمر رائع، أما امتلاكهم: فيا له من ظلم! لو أن والدي بقي حيًا، لارتمى بكامله عليَّ وسحقني، ومن حسن الحظ أنه مات صغيرًا»[٤٦]، لكن مع ذلك هناك الكثير من التناقض الوجداني طوال حياته في معالجته النقدية لموضوع الأبوة فمن الواضح أنه «يشكو بشكل زائد فعلًا».

كيف لسارتر أن يعلم أن الأب كان يمكن أن يكون عبئًا ثقيلًا؟ فهو لم يجرب والده فعليًا أبدًا، يقول هارفي عن مسرحية سارتر «الذباب» إنه «تحت حماس سارتر الجامح للحرية المطلقة يوجد حنين للمسؤولية كما تتجسد في الأب الغائب»[٤٧]، ومما يدعم هذا الادعاء أن هارفي لاحظ أنه في كتابات سارتر «وبانتظام يمكن التنبؤ به» تقيم «علاقة بين غياب المسؤولية الأخلاقية... وغياب الأب أو غياب عاطفة الأبوة في أب مُحتَمل»[٤٨].

يقوم سارتر تقريبًا في كل مكان «برسم الآباء بألوان قبيحة»[٤٩]، رغم وجود بعض الاستثناءات، ويدفع ذلك المرء مُجددًا للتعجب من كيفية امتلاك سارتر للأساس النفسي والتجريبي الذي بنى عليه أحكامه، فمن المؤكد أنه لم يكن نتيجةً لوجود والده، وعلينا أن نستنتج في المقابل أن غياب والده كان حقيقةً مؤلمةً لدرجة أن جان بول أمضى حياته في محاولة إنكار الخسارة وبناء الفلسفة التي يكون فيها غياب الأب والله نقطة البداية الحقيقية للحياة «الجيدة» أو «الفعلية».

بول ألبير كامو (١٩١٣م-١٩٦٠م):

يلائم ألبير كامو - الملحد والفيلسوف الوجودي الفرنسي الآخر - النمط نفسه أيضًا؛ حيث توفي والده لوسيان عام ١٩١٤م في معركة المارن، عندما كان عمر ألبير عامًا واحدًا[٥٠]، ويكشف كامو أهمية هذه الخسارة في روايته التي تكلم فيها عن سيرته الذاتية «الرجل الأول» (١٩٩٥م)، والتي نشرت بعد خمسة وثلاثين عامًا من وفاة الكاتب[٥١]؛ وقد كان والده هو الشغل الشاغل الرئيس لهذا العمل.

ويروي الجزء الأول «البحث عن الوالد» قصة الزيارة التي قام بها بطل الرواية (المُسمى جاك، الذي يمثل كامو) إلى قبر والده في فرنسا، حيث لم يزره قبل ذلك أبدًا، ويتكلم الفصل الخامس بشكل كامل عن والده، ويدل على ذلك بالتحديد المقطع الذي يصف فيه كامو شخصية مهمة لأب ومعلم بقوله: «لم يعرف هذا الرجل [معلمه] والده [والد جاك] أبدًا، لكنه كثيرًا ما تحدث لجاك

عنه بطريقة خرافية نوعًا ما، وقد عرف كيف يلعب دور الأب في أي حالة تحدث بوقت حرج، وهذا سبب عدم نسيان جاك له أبدًا»[٥٢]، وباختصار، يتضمن هذا العمل الأخير له والمعبر بشدة عن سيرة حياته بحثًا ضمنيًا كئيبًا عن والده - حزن يتخلله التزام جاك بالحياة والحب، ونوع من التضامن مع جميع الناس.

آرثر شوبنهاور (١٧٨٨م-١٨٦٠م): انتحار الأب:

كانت علاقة آرثر شوبنهاور، المعروف بالمتشائم الأكبر، بوالده فلوريس إيجابيةً نوعًا ما حتى وفاته عام ١٨٠٥م، على ما يبدو نتيجةً للانتحار، حيث: قفز (أو سقط) شوبنهاور الكبير من نافذة بارتفاع ثلاثة طوابق وسقط في قناة[٥٣]، كان فلوريس تاجرًا غنيًا وعالميًا، وملحدًا نوعًا ما ومعجبًا بفولتير، كانت علاقة الأب والابن قويةً وإيجابيةً على نحو معقول رغم أن آرثر قضى معظم الأوقات في المدرسة أو بعيدًا عن والده في أوقات سفره، وقد كتب المترجم المعاصر و. ب. بريدج ووتر أن يوم وفاة الأب كان «أسوأ يوم في حياته (حياة آرثر)»[٥٤].

وفي المقابل، فإن علاقة شوبنهاور بأمه كانت سلبيةً للغاية، حتى في سن الرضاعة والطفولة كان حبه لوالدته على ما يبدو غائبًا أو ضئيلًا، يذكر روديغر سافرانسكي، كاتب سير بارز آخر، بأن شوبنهاور واحدٌ من الذين «لم يتلقوا الحب الابتدائي، الحب الأمومي»[٥٥]، نظرت والدة آرثر التي لم تكن «تنوي» إنجابه إلى ابنها على أنه سبب فقدانها المؤلم للحرية الشخصية، وكرمز «لنكرانها لذاتها»[٥٦]. لقد نشأ على بُغضها، وكانا منفصلين عن بعضهما بعضًا لمعظم حياتيهما، وبعد

أن عاش فترات قصيرة من السعادة في أواخر سن الطفولة، لم يعرف شوبنهاور فترات كهذه مرة أخرى؛ فهو لم يتزوج قط، وقد قطع علاقته بأخته ولم يحظَ على ما يبدو بأي علاقات أخرى تغذي عواطفه أبدًا.

وتتحدث ذكريات آرثر الشاب حول سنواته الأولى «عن الشعور بالوحدة والخوف بشكل حصري تقريبًا»، لقد تمت رعايته بشكل رئيس من قبل مربية أطفال ومجموعة من الخدم، يقول آرثر: «عندما كنت طفلًا بعمر ست سنوات، وجدني والدي في إحدى الليالي بعد عودتهم من نزهة في حالة من اليأس الشديد؛ لأنني اعتقدت فجأة أنهم تخلوا عني للأبد»، بدأ والد آرثر يهتم جديًا بابنه عندما أصبح عمره ثماني سنوات تقريبًا - وهي بداية الفترة القصيرة من ذكريات شوبنهاور الإيجابية[٥٧].

رغم أن والدة شوبنهاور قالت إن وفاة والده كانت طبيعية، إلا أن آرثر بنفسه «حمل والدَته مسؤولية انتحار والده»[٥٨]، حدثت وفاة فلوريس عندما كان عمر آرثر سبعة عشر عامًا، ويتضح ضمنيًا علاقة هذا الحادث برفض شوبنهاور وجود الله في ملاحظاته الراجعة بقوله: «عندما كنت شابًا، كنت سوداويًا دائمًا، وذات مرة، وكنت حينها في الثامنة عشرة على الأرجح فكرت مليًا حتى في ذلك العمر المُبكر: هل يُفترض أن هذا العالم قد خُلق من قِبَلِ إلهٍ؟ كلا، بل على الأرجح من قبل شيطان»[٥٩].

اختلف آرثر مع والده خلافًا حقيقيًا واحدًا، عندما أصر والده عليه أن يصبح تاجرًا، وقد أطاع آرثر أمر والده على مضض حتى وفاته، لكن انتحار الأب حرر الابن من هذا الواجب وسمح أخيرًا لحياة شوبنهاور المهنية الفلسفية بأن تتطور.

لقد تملكه شعور كبير بالوحدة؛ التي تجذرت في خوفه من الهجران في الطفولة، فكان كل شيء بالنسبة إليه فارغًا ورفض لكل الرغبات وبالأخص الرغبة البشرية الكبيرة في الحب، ويبدو أنه عاش كل حياته دون أي علاقة حب حقيقي مع أي أحد! فلا عجب أن بدا أن الإله الشخصي غير قابل للتصور بالنسبة له وعديم المعنى وربما لهذا السبب انجذب إلى النوع البوذي من الإلحاد، الذي يشدد على الفراغ والعدم، رَفضت فلسفته التفكير الغيبي حول الدين والوجود المتسامي، لقد رَفض أيضًا تأكيد حركة التنوير الفلسفية على مستقبل إيجابي بازدياد للبشرية، وقد ركز اهتمامه بقوة على المعاناة وعلى الإرادة البشرية كأمر أساسي لفهم الحياة.

***

آباء ضعاف ومُسيئو المعاملة...

توماس هوبز (١٥٨٨م -١٦٧٩م):

يُدعى هذا الفيلسوف العظيم وواضع النظريات السياسية أحيانًا بـ«أبو الفلسفة التحليلية الحديثة»، وما تزال فلسفته الاجتماعية المستبدة القاسية واسعة التأثير، ومن المؤكد أنه أحد المؤسسين العظماء للفكر الحديث.

كان والد هوبز، المُسمى توماس أيضًا، نائب القس في كنيسة أنجليكانية (خاص بالكنيسة الإنكليزية) صغيرة قرب لندن، لم يكن لديه الكثير من الصفات التي تدعو للاحترام؛ إذ وُصف بأنه جاهل وذو طبع سريع الغضب ومعتاد على لعب الورق، وعلى ما يبدو أنه كان يغط في النوم أحيانًا خلال تأدية الخدمات الموكلة إليه، وقد حصل شجار عندما أيقظه كاهن (راعي أبرشية) آخر عند باب الكنيسة، قام فيه هوبز الأكبر بضرب خصمه، وفر بعد ذلك هاربًا إلى خارج لندن، فلم تره عائلته أو تسمع عنه شيئًا بعد ذلك، وتوفي في ظروف غامضة، تولى عمه الأبتر الذي كان تاجرًا ناجحًا المسؤوليةَ المالية للعائلة، ساعدت ثروةُ العم هذه هوبز الشاب على ارتياد مدارس ثانوية جيدة ثم جامعة أوكسفورد. ورغم ذلك لا يوجد أي تعليق من قبل هوبز أو أحد كتاب سيرة حياته على أي عاطفة تجاه عمه[٦٠]، ويبدو أنه كان شخصيةً بعيدةً إلى حد ما.

تُعتبر معاملة هوبز النموذجية للدين في أعماله المنشورة شكوكيةً، رغم ذلك لم يوضح موقفه الشخصي حول مواضيع كوجود وطبيعة الله، ربما كان

ر.س. بيترز أفضل من لخص موقفه العلني، حيث قال: «تعتمد طريقة هوبز دومًا على دفع الاستقصاء الجذري إلى الحد الأقصى، وعندما بدا أن أساس العقائد التقليدية أوشك أن يُزال، تم استدعاء الملك كنوع من التدخل الإلهي ليعيد كل شيء إلى وضعه الأرثوذكسي الطبيعي... ومن الصعب القول فيما إذا كانت اقتراحاته تقتضي وجوب أن يتكلم الملك في أمور كخلق العالم، وأن صفات الله كانت نموذجًا حاذقًا من السخرية، أو أنها تأكيد للتدين؛ ليحمي نفسه من تهمة الإلحاد، أو كتظاهر لقناعته المطلقة للقول إن الملك يجب ألا يقرر ذلك بسبب ضرورة عدم وجود شيء يعكر صفو الحياة[٦١].

وكثيرًا ما أُعتقدَ بأن هوبز كان ملحدًا أو مشككًا نوعًا ما خلال حياته - رغم أنه لم يذكر ذلك صراحةً على الملأ أبدًا، ومن المؤكد أنه فيما لو أعلن عن آرائه التشكيكية وهرطقاته فإن حياته ستكون في خطر داهم، قال أ.ب. مارتينيتش أحد الدارسين المعاصرين عن هوبز، إنه كان «إما ملحدًا أو ربوبيًا، وفي كلتا الحالتين فإنه كان مُصممًا على تقويض الإيمان في الأديان السماوية»[٦٢]، هذا الاستنتاج ليس استنتاجًا مفاجئًا بصورة خاصة، بما أن منظومة هوبز الفلسفية عقلانيةً وماديةً ومنغمسةً بالملذات[٦٣]، ويتفق كل الباحثين على أنه كان دومًا معارضًا بشدة لتدخل الأكليروس، (من السهل رؤية منشأ ذلك في سلوك والده)، ويمكن القول إن هوبز كان إلى حد ما عدوًا تاريخيًا رئيسًا لشخصية الإله في الديانة المسيحية.

جاك مليه (١٦٦٤م-١٧٢٩م):

تبدو حالة جان ميلييه غامضة من بعض النواحي؛ فنحن لا نملك سوى القليل من المعلومات عن طفولته وشبابه، وبما أن حالته استثنائية أيضًا، ولأنه رمز هام، خصوصًا بالنسبة لفولتير؛ لذا كان محط اهتمامنا.

وقد وُصِف ميلييه بـ«المفكر الحر الأقل ضبطًا للنفس من مفكري التنوير الفرنسي» و«أحد الأمثلة الأسوأ سمعة عن الردة»[٦٤]، كان قس أبرشية وعاش بغموض كامل حاملًا أفكارًا متطرفة عُرفت بعد وفاته فقط عندما نُشِر مؤلفه الوحيد في فضيحة كبيرة، وهو الوصية Testament.

ويعد العمل معاداةً عنيفة للمسيحية، وبالأخص ضد الكاثوليك، كما يعد أيضًا هجمة عامة ضد النظام القديم؛ إذ كان إلحاديًا وضد الاستبداد وفوضويًا وشيوعيًا حقًا – وثوريًا من كل الجوانب، حيث تُلاحَظ غزارة مشاعره العنيفة: «في الوصية سيل من مشاعر المرارة والنفور والغضب والكره والتمرد والتي كما يقول بول هازارد حتى بعد مئتي عام، ليس باستطاعة أحد قراءتها دون أن يشعر بالقشعريرة»[٦٥].

ولسوء الحظ، لا نعرف عن طفولة ميلييه ولا عن والده سوى معلومات قليلة جدًا، لكن ما نعرفه أنه لم يصبح قسًا نتيجة إحساسه أو اتصاله بالحياة الدينية؛ بل بسبب إصرار والده[٦٦]، وبمعنى آخر، فإن حياته كقس – والتي كانت كذبة طويلة

جدًا – فُرِضت عليه من قبل والده، ومن الواضح أيضًا أنه كان معتدل الثراء من أموال العائلة ومن المحتمل أن يكون دعم والده المادي مشروطًا بهدف أن يصبح ميلييه قسًا.

ويبدو أن ميلييه باعتباره قسًا كان محترمًا إلى حد ما، وكان كريمًا على الفقراء، ويتحدث بإحسان مع اليتامى والمضطهدين، ومن جهة أخرى، لاحظ المختص بالتاريخ السياسي إيغور شافاريفيتش في كتابه الظاهرة الاجتماعية أن ميلييه كتب على غلاف كتاب الوصية: «أتيت لأعرف الأخطاء والأعمال الشريرة، وغرور البشر وغباءهم؛ لذا كرهتهم وازدريتهم»، وعلق بعد وصف معاناة القرويين: «قيل عنهم إنه ليس هناك أكثر فسادًا ولا أكثر سذاجة واستحقاقًا للازدراء منهم»[٦٧].

ومن التفاصيل القليلة التي عرفت عن حياته أمران طريفان إلى حد ما: أولهما، توجيه أوامر لميلييه من قبل المطران مرارًا ليكف عن اتخاذ البنات خادمات – بوصفهن «بنات أعمامه» – اللاتي يعِشْنَ معه؛ لأن مثل هذه الحالة كانت سببًا لفضيحة[٦٨]، والثاني أنه دخل في أحد المواقف في تعارض عنيف مع النبلاء المحليين – وبدقة أكثر، مع السيناتور المحلي – ومع مطرانه حول ما يعتبره مسألة عدالة اجتماعية[٦٩]، وبالأحرى، كاد يفتح ثورة في تعارضه مع المطران، بينما قد يقدر المرء عاليًا مظاهر الوجدان الاجتماعي لدى ميلييه، لا

يمكنه غض النظر عن ملاحظة أن الرب والمطران بمقام الأب.

لم تكن هناك معلومات كافية تبرهن بوضوح على امتلاك ميلييه أبًا سيئًا، ورغم أن أي أب سيتعامل بقسوة مع الابن الذي لا يبدي اتصالًا مع القس فإن تزويده بقلنسوة ليصبح قسا وراهبًا (يبقى عازبًا) قد يعد مبررًا ليُدعى أبًا سيئًا. وعلى أية حال، بالنسبة لميلييه عندما يعيش حياة من النفاق التام – لأنه أكد أنه لم يكن قط مؤمنًا –[٧٠] من المحتمل كثيرًا أنه سبب له تناقضًا داخليًا شديدًا، إذًا سيتوجب عليه أن يتناقض باستمرار مع إحساسه الداخلي بالصدق من جانب، ويخاف ويشعر بالخزي من الجانب الآخر، ومهماكانت دوافعه الداخلية، فلا يمكن اعتبارها بالتأكيد «عقلانية»، وبمعنى آخر، كان الدافع لإلحاده الحاد نفسيًا وليس فلسفيًا.

ويعد ميلييه شخصية مهمة كونها مؤثرة على الآخرين، مثل فولتير (الذي حرر النسخة الأولى المطبوعة من عمل ميلييه) وديدرو ودالامبير[٧١]، وتأتي أهمية ميلييه أيضًا لأننا نجد فيه بوضوح أكثر من أي شخصية من عصر التنوير روح العنف الحقيقية التي عبرت عن نفسها في «عهد الإرهاب» خلال الثورة الفرنسية.

فولتير (١٦٩٤م-١٧٧٨م):

كما ذكرنا سابقا فإن فولتير ليس ملحدًا حقًا؛ بل آمن بالإله اللا شخصي[٧٢] في وقت عرف فيه كناقد قوي للدين خصوصًا المسيحية عن طريق فهمه

للإله الشخصي، ومعظم انتقادات فولتير كانت موجهة للتأثير الاجتماعي والسياسي السلبي للكنيسة وكذلك للمواقف اللاهوتية لمختلف العامة، وقد اخترت فولتير لأهميته التاريخية الكبيرة التي جاءت بسبب كتاباته النقدية التي عنيت بقضايا الدين، ولأن انتقاده للدين كان كثير الوضوح والشدة والتطرف.

واسم فولتير الحقيقي هو فرانسيس ماري آروت، وقد كانت عائلته منعمة ماديًا؛ فوالده كان رجل أعمال ناجحًا وموهبة ظهرت بشكل واضح في الحياة الشخصية لفولتير، وأما والدته فقد توفيت عندما كان عمره سبع سنوات، وعندما بلغ العاشرة من العمر دخل فولتير مدرسة يسوعية و أصبح تلميذًا بارعًا وشاعرًا على حد سواء[٧٣]، وقد أقام صداقات سواءً مع أساتذته اليسوعيين ومع زملائه من التلاميذ، ولقد احتفظ بالكثير من الذكريات الجميلة خلال سنوات الدراسة السبعة من المدرسة ومع بعض الأساتذة اليسوعيين.

واستبدل فرانسيس ماري آروت اسمه بفولتير عندما كان شابًا، وقد كان قرارًا تأثر بموقفه السلبي تجاه عائلته ووالده بشكل خاص، وقد لاحظ أ. د. ألدريدج وهو مؤرخ شخصي حديث أن فولتير لم يظهر أي عاطفة تجاه والديه أو أي ارتباط بتقاليد العائلة. «على الرغم من أن فولتير قد كتب بشكل كبير عن والده ولكنه لم يذم شيئًا يتعلق به ولم يمدحه على الإطلاق»[٧٤]، وكشاب في بداية العشرينات من العمر عرف فولتير بتوقيعه باسم «دي فولتير» وذلك دلالة على طبيعته الطموحة وشعوره بالتفوق تجاه والده[٧٥].

ويبدو أن هناك أسبابًا عدة تبعد فولتير عن والده، وأظهرت رسالة اكتشفت مؤخرًا لفولتير بوضوح أنه كان يعتقد بأنه ابن غير شرعي لأحد المرموقين، واعتقاد فولتير هذا كان خلال كلمات قصيدة لصديق العائلة، وكما أوضح ألدريدج أيضًا «هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أنه كان ولدًا غير شرعي، لكنه ببساطة كان يتمنى أن يكون ابنًا غير شرعي لشخص ما على أن يكون الابن الشرعي لوالده الحقيقي»[٧٦]، وعلى أية حال فإن اعتقاده بأن والده الشرعي ليس هو والده البيولوجي لا يعد علامة على عدم الإخلاص البنوي تجاه السيد آروت.

كانت المشاجرات بين فولتير ووالده سببًا آخر لرفض فولتير له؛ فقد كان والده غاضبًا من اهتمام ابنه بعالم الأدب عوضًا عن القانون، لذلك سمح بإرسال ابنه إلى السجن أو إلى المنفى في الهند الغربية[٧٧]، والفرد الوحيد من عائلة فولتير الذي حظي معه بعلاقة جيدة هي أخته الكبرى «مارغريت كاثرين»[٧٨]، ورزقت هذه الأخت لاحقًا بأطفال وأسمت إحداهن بعد أن تزوجت بالسيدة دينيس التي أصبحت معروفة بابنة أخت فولتير ومدبرة منزله وكشف ألدريدج أنها كانت أيضًا عشيقته»[٧٩]. وقد اتخذ فولتير عددًا من العشيقات لكنه لم يتزوج يومًا».

جان دالامبير (١٧١٧م- ١٧٨٣م):

يعد هذا الفيلسوف والمفكر الفرنسي إلى حد بعيد محررًا مشاركًا مع ديدرو في الموسوعة[٨٠]، بالإضافة إلى كونه عالم رياضيات معروفًا؛ فقد كتب دالامبير أعمالًا فلسفية هامة، وكان يشك في وجود الله، وقد أنهى حياته كإنسان

مادي ملحد، كما كان له دور فاعل في الدفاع عن الموسوعة (الإنسكلوبيديا) ضد نقادها المتدينين وأنصار الملكية وفي الحياة الثقافية الراديكالية في عهده[٨١]، وكان معروفًا أيضًا بأنه عدو للدين بشكل عام وعدو للطوائف على نحو خاص لا سيما الكنيسة الكاثوليكية وعلى وجه الخصوص الرهبنة اليسوعية ، وقد وصفه أحد معارضيه عند موته بأنه «كان كافرًا بعنف وعناد»[٨٢].

كان دالامبير حساسًا وذكيًا ومصورًا شعبيًا للنقاشات التي تدور في الصالونات المختلفة، وكان محترمًا لاستقامته إلى حد كبير، حافظ على صداقاته مع مثقفين متدينين أرثوذوكس طالما بقوا بعيدين عن التعصب، وكان ضعفه الرئيس بالنسبة لأصدقائه وأعدائه على حد سواء هو الخجل إلى حد ما، ويتجلى أحيانًا بالجُبْن أمام أعدائه أو الهرب من مواجهتهم.

أما طفولته فكانت غير عادية وأكدت بوضوح فرضية الأب المعيب، وقد كان جان الابن غير الشرعي لسيدة الصالون المرموقة السيدة دوتنسين من ضابط في المدفعية يدعى لويس كامو ديستوتش، وضعته أمه عند ولادته في سلة قش عند حوض المعمودية في كنيسة سيدة باريس (نوتردام دو باريس) وهي كنيسة صغيرة تدعى سان جان لاروند (كنيسة القديس جان المدورة) وكان هذا هو الاسم الذي أطلق على الطفل، أخذ «جان لاروند» فيما بعد إلى منزل اللقطاء، ثم أرسل إلى الخارج لتتم العناية به لمدة ستة أسابيع، وحين عاد والده الذي كان مسافرًا إلى

أمريكا في ذلك الوقت عهد بتربية الطفل إلى زوجة رجل يعمل في تقطيع الزجاج تدعى مدام روسو، لم يكن هناك أي اتصال بين جان ووالدته عدا زيارة واحدة تمت بترتيب من والد جان حين كان جان صبيًا، وظل جان يعتبر دائمًا أن روسو هي أمه الفعلية، أسهم والده في الإنفاق على دراسته، وتجدر الإشارة إلى بضع حقائق لا بد من التأكيد عليها؛ فلم يكن ديستوتش ينظر إلى جان على أنه ابنه بشكل رسمي مع أن الفتى كان من المتوقع أنه يعلم من هو والده.

مات ديستوتش عام ١٧٢٦م حين كان جان في الثانية عشرة من عمره، وفي ذلك الوقت أرسل إلى المدرسة وتم تسجيله على أن يكون اسم عائلته دارمبيرغ؛ وذلك لأسباب بقيت مجهولة، وقد غير جان بنفسه هذا الاسم إلى دالامبير مستخدما لفظ «دا» الذي يوحي بمركز العائلة، وكانت المدرسة التي التحق بها تنتمي إلى حد كبير إلى الطائفة الجانيسية وهي طائفة متشددة من الكاثوليك. كما كان طالبًا منفتحًا رغم أنه أظهر رفضًا ملحوظًا لعلم اللاهوت، ودرس فيما بعد القانون، ثم الطب، لكن أصبح في النهاية فيلسوفًا ورياضيًا علم نفسه بنفسه، وعاش طوال ذلك الوقت في غرفة مبعثرة في منزل والدته بالتبني السيدة روسو، وفي الواقع ظل في هذه الغرفة إلى أن بلغ السابعة والأربعين من عمره دون أن يتزوج، وحين ترك الغرفة أخيرًا كان ذلك بسبب تدهور صحته فقط.

والخلاصة أن دالامبير لم ينعم في طفولته بمحبة والده؛ حيث لم يكن له والد فعلي، ولم ينعم باسم عائلة رسمي، ولم يكن اسمه يعني له أي شيء، فبعد وفاة والده قامت عائلة ديستوتش بدعم جان، وتابعت أعماله باهتمام.

بارون دي هولباخ (١٧٢٣م- ١٧٨٩م):.

يعد هذا الفيلسوف الممثل الأول للإلحاد المادي والمجادل الأكثر تعنتًا ضد الدين في فترة التنوير[٨٣]، كان بلا شك أحد أولئك الاثني عشر أو الاثنين «المعروفين بغير المؤمنين» قبل الثورة الفرنسية الذين أشار إليهم جيمس تورنر.

ولد دي هولباخ باسم باول هنري ثياري Paul Henri Thiry لدى عائلة من أصحاب الأراضي المتواضعين في البلاط الألماني[٨٤]، لا نعرف شيئًا عن شخصية والده جون جاكوب ثياري أو والدته كاترينا، ابنة عائلة هولباخ، وعلى أية حال، عندما أصبح باول هنري طفلًا صغيرًا أُرسِل ليعيش مع خاله؛ فرانسواه آدم هولباخ الذي جمع لاحقًا ثروة ضخمة، وبعد ذلك اشترى خاله أراضي وألقابًا من النبلاء (وكذلك لقب هولباخ الأرستوقراطي من «هولباخ»)[٨٥]، ثم اكتسب باول هنري الشاب من خاله اسمه ولقبه وثروته، وكان قد أمضى حياة الطفولة في منزل خاله في باريس ثم في عقارات خاله في هيس Hesse، وفي عام ١٧٤٤م، عندما كان في سن الواحدة والعشرين دخل جامعة ليدن باسم باولو فان هولباخ Paulus van Holbach[٨٦]، وعاد سنة ١٧٤٩م إلى باريس وأصبح مواطنًا فرنسيًا، ولاحقًا اشترى في باريس منصبًا جعله من نبلاء فرنسا[٨٧]، وقد وُصِف

بالرجل الذي «سعى في كل الأوقات على ما يبدو إلى رفع أصوله»[88]، اشترى منزلًا في باريس في الشارع الملكي (ري رويال) الذي كان في ربع القرن التالي مركزًا بارزًا للمفكرين الأحرار، ومنذ ذلك الوقت، استضاف فيه دي هولباخ الثري جدًا بضوابط منتظمة ما يعرف بـ«حزبه» - الدائرة المحيطة به - إذ كان للعديد من أعضائه أفكار رئيسة من التنوير الفرنسي، وعلى سبيل المثال، كان ديدرو عضوًا نظاميًا[89].

لا يبدو أن باول أمضى الكثير من الوقت مع أمه أو أبيه؛ إذ أخذ اسم خاله، إلا أنه لم يُذكَر على الإطلاق أنه قدم أي تعليقات إيجابية عن خاله، كما أظهر أيضًا رغبة في تضخيم «أصوله»، وفي جميع الأحوال كان منفصلًا عن والده الذي رفض اسمه ووجد حالته الاجتماعية غير ملائمة بالنسبة له.

لودفيغ فيورباخ (١٨٠٤م-١٨٧٢م):

أحدث هذا الفيلسوف الألماني الذي كان أول من صاغ نظرية الإسقاط projection theory ضجة هائلة من خلال مؤلفه جوهر المسيحية، وفي خمسينيات القرن التاسع عشر، كتب إيرنيست رينان؛ وهو أيضًا ناقد مشهور للدين، أن فيورباخ قد كان سيدعى المسيح الدجال فيما لو كانت نهاية العالم في ذلك الحين[90].

ولد لودفيغ لدى عائلة ألمانية متميزة وموهوبة، وكان والده آنسيلم Anselm رجل قانون بارزًا ومختصًا في علم الجرائم، واحتل منزلة رفيعة في

تاريخ القانون ومفكري الطب الشرعي، وهو بروتستانتي في الآراء الاجتماعية التقدمية، لكنه كان صعب الإرضاء وغير دبلوماسي، ولطالما كانت علاقته مع زملائه متوترة جدًا؛ إذ إن أوجين كامينكا قد وصف آنسيلم بأنه شخص «ناري ومندفع»، والرجل المعروف في العائلة بـ«فيزوف» (قمة جبل في إيطاليا يحدث فيها براكين)[٩١].

وقد كان الحدث الأشد تأثيرًا في حياة لودفيغ الشاب قصة والده مع نانيت برونر؛ زوجة أحد أصدقاء والده[٩٢]، حيث عاش آنسيلم ونانيت معًا علنًا في قرية أخرى، وولدَتْ طفلًا أسمياه آنسيلم، بدأت هذه القصة في ١٨١٣م عندما كان لودفيغ الشاب في عمر التاسعة واستمرت حتى وفاة نانيت عام ١٨٢٢م، عاد وقتها آنسيلم للعيش مع زوجته - والدة لودفيغ - فيلهيلمين Wilhelmine.

وصفة القول أن والد فيورباخ البارز رفض علنًا عائلته وعاش مع امرأة أخرى، ورزق منها بطفل، وفي نهاية المطاف عاد والده المعروف باسم «فيزوف Vesuvius»، ليعيش مع عائلته القانونية - وذلك لم يكن ليحدث لولا وفاة عشيقته، كان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر عندما كان من المحتمل أن تتسبب مثل هذه العلاقة في فضيحة كبيرة، حدث هذا كله عندما كان لودفيك بعمر ما بين التاسعة والتاسعة عشر، وهو عمر حساس لتعلم احترام أو عدم احترام الوالد.

صموئيل بتلر (١٨٣٥م - ١٩٠٢م)[٩٣]:

ينحدر صموئيل بتلر Samuel Butler من أصول إنكليزية، وكان والده وجده رجلا دين، وقد توقعت عائلته أن يصبح بدوره شماسًا، ولكن لدى تخرجه من جامعة كامبريدج عام ١٨٥٨م، رفض الالتحاق بالكنيسة بسبب شكه الديني، ثم أمضى عدة سنوات في نيوزيلندا، ولدى عودته إلى إنجلترا عام ١٨٦٤م كرس نفسه للرسم والموسيقى والكتابة، وفي الفترة ما بين ١٨٧٧م و١٨٩٠م أنتج سلسلة من الأعمال عن الجدال العلمي.

يحتل بتلر مرتبة متوسطة نوعًا ما في هذه الدراسة؛ فبالإضافة إلى أعماله العلمية قام بنشر أعمال مختلفة من الروايات، بما في ذلك المقطوعة الهجائية (Erewhon ١٨٧٢)، وكان يعمل على كتابه الأكثر شهرة طريق الجسد The Way of all Flesh، من العام ١٨٧٣م إلى ١٨٨٥م، ولكن لم ينشر هذا العمل إلا بعد وفاته في عام ١٩٠٣م، اضطهد بتلر في شبابه من قبل والده المتظاهر بالتقوى وعديم الإحساس فكان كثيرًا ما ينهال عليه بالضرب، ومثل الشخصية التي وردت في روايته التي نشرت بعد وفاته، قال إنه ثار ضد ضرب والده وتقواه، وضد عائلته وضد عادات الفيكتوريين بشكل عام، لقد اعتبر أن والده لم يحبه، كما أنه لم يستطع أن يذكر أي موقف أو أي وقت من الأوقات لم يكن خائفًا فيه من والده أو نافرًا منه، كان خصمًا له، وسعى في هذا التنافس

في كل فرصة للتقليل من شأن الآخرين وانتقادهم، وجاءت المعاملة الوحشية لوالده لتعمل على تلوين نظرته للناس بشكل عام، وأشار مالكولم ماجريدج Malcolm Muggeridge في كتابه عن السيرة الذاتية لبتلر إلى «وجود كراهية في كل إشارة من بتلر عن طفولته، بدت له أسرته بأنها اجتمعت معًا في مؤامرة لجعله غير سعيد، ومن أجل إيذائه وتشويهه، وحرمانه من تلك الأشياء التي تتوق روحه لها، فاضطر لإضمار الكراهية المتراكمة طوال طفولته واستمرت معه بقية حياته، والتي أثقلت كاهله».

باختصار، كان على بتلر «بناء العالم من حول والده، حيث كان يكره العالم الذي بناه له، ثم أدرك مذعورًا أنه عاش فيه، وأنه يجب عليه الاستمرار في العيش فيه إلى نهاية حياته»[٩٤].

لقد قيل إن شعبية بتلر أتت بعد وفاته (عشاء حضره عدد كبير جدًا وغير متوقع من الكتاب المعروفين، والذي عقد في لندن في كل عام للاحتفال بكتاباته) وذلك من قبل أحد المعلقين.

لنركز على ثورة إرنيست Ernest (وهو يمثل شخصية صموئيل بتلر في كثير من الأحيان في كتابه الذي ألفه بنفسه عن سيرته الذاتية) ضد أولويات العصر الفيكتوري، وسرعان ما أصبح إرنست رمزًا لثقافة النضال والمكافحة وبطلًا غير صبور على عادات وتقاليد عصره، في وقتنا الحالي لا يزال كوكبة من الشباب يثور

ضد البالغين، مثل الولد الذي ألقى بالعباءة المفروضة عليه من والده، سخر بتلر بشكل خاص من المفهوم السائد عن الأسرة وتربية الأطفال، ونظرية التعليم في المدارس العامة، والشعارات الدينية والأخلاقية السائدة، والقيم المقدسة التي تعيش فيها الطبقات الوسطى الإنجليزية...

في حين أن عدمية بتلر لم تظهر مطلقًا، تولد لديه نقد لاذع للفيكتورية، ولم يستبدله بشيء أكثر جاذبية، وللأمور التقليدية ورموز تربية الطفل، عرض تقديم الأبوة دون زواج أو مسؤولية البنوة، أما في الأخلاقيات فقد قدم مذهب المتعة الأنيق - أي حياة تَأَملِية أبيقورية منغمسة بالملذات الفاترة والمشاق الضئيلة[٩٥].

تطور سوء الفهم والمرارة بين الأب وابنه، مع رؤية الابن نفسه باعتباره شابًا أعزل يواجه وحشية والده بشجاعة، ورؤية الأب نفسه كأب مضحٍ خاب أمله بمرارة في ابنه المحبوب.

أوقف بتلر ترديد صلواته، وبعبارة موجريدج، فقد توصل إلى معرفة «أن الكلمات كانت مثل السهام ذات الأطراف المسمومة والتي يُمكن له أن يغرزها في صدور أعدائه... وقد أطاح بطائفة والده، وإله والده وآماله ومعتقداته ومعايير السلوك لديه، مُسقطًا إياها واحدة تلو الأخرى، وبكلمة واحدة لقد كان جَبارًا»[٩٦].

أدت كراهيته المستمرة مدى الحياة لوالده، التي تعقدت برغبته في عدم الإساءة إليه كثيرًا حتى لا يُغامر بتعريض ميراثه للخطر (عدم شهرة ميلبيه)، إلى

الوضع الذي بقي فيه في الكنيسة، لكن دون أن يكون جزءًا منها، وعاش وكتب ضدها، كان «عضوًا رئيسيًا بالكنيسة، ولكن دون طائفة، بحيث يكون تأثير ما يقوله في الواقع هو ما يجعله رئيسيًا، وأن يكون الشخص عضوًا رئيسيًا بالكنيسة سيئ بما فيه الكفاية، ولكن أن يكون رئيسيًا دون أن يكون رجل كنيسة فهو أمر رهيب وهذا ما كان عليه بتلر - مُلحد جدي»[٩٧].

واستندت شُهرته في وقت مبكر من القرن العشرين على رفضه للأخلاقيات الفيكتورية؛ حيث كان شاذًا جنسيًا وعاش حياة بلوغ تلذذية، وبعبارة موجريدج مرة أخرى، كانت أعداد كبيرة من الناس تتوقُ إلى أن تُعفى من عبء العلاقات الأسرية، والتي أصبحت مزعجة بمجرد ذهاب العقاب الديني، فقد أراد الناس شخصًا ما ليخبرهم ليس فقط أنه من غير الخاطئ لهم مقت أمهاتهم وآبائهم والأخوات والإخوة (لم يكن هذا يشمل الزوجة بعد)، ولكنهم أرادوا أن يكون ذلك صحيحًا وسليمًا ومتقدمًا وعصريًا، أرادوا أن يشعروا بذلك، بعيدًا عن كونهم عاقين، لقد كانوا ضحايا نظام ظالم وحشي، حيث مكنتهم فضائلهم الخاصة فقط من البقاء على قيد الحياة، وجعلتهم رواية طريق الجسد (The Way of All Flesh) يشعرون بهذا... فقد تعممت شفقة بتلر على ذاته، وتغذى جيل على ذلك(٩٨).

سيغموند فرويد (١٨٥٦م-١٩٣٩م):

اتفق كتاب سيرة فرويد الذاتية بشكل عام على أن يعقوب والد سيغموند فرويد شكل خيبة أمل أو أسوأ من ذلك بالنسبة إلى ابنه، فكان يعقوب فرويد رجلًا ضعيفًا، غير قادر على إعالة أسرته، لكن في المقابل يبدو أن المال كان يأتي من أسرة زوجته ومن آخرين[٩٩]، وعلاوةً على ذلك، كان والد فرويد سلبيًا في الرد على مُعادي السامية، يروي فرويد حدثًا لوحظ بتكرارية أخبره إياه والده، حيث سمحَ يعقوب لأحد المعادين للسامية بأن يناديه بـ«اليهودي القذر» مُسقطًا قبعته[١٠٠]، وقد كان سيغموند الشاب عند سماع هذه القصة، يشعر بالعار تجاه ضعف والده وعجزه عن الرد بقوة، وكان سيغموند فرويد رجلًا معقدًا وغامضًا في كثير من النواحي، ولكن يتفق الجميع على أنه كان مقاتلًا شجاعًا، وأنه احترم شجاعة الآخرين جدًا، وقد وقف سيغموند عندما كان شابًا عدة مرات بمواجهة جسدية ضد معادي السامية، وبطبيعة الحال كان واحدًا من أعظم المقاتلين الفكريين.

وربما يكون خلل يعقوب بدوره كأب، قد ذهب لما هو أعمق من العجز والضعف، فقد كتب فرويد على وجه التحديد في اثنتين من رسائله عندما أصبح شخصًا بالغًا، أن والده كان منحرفًا جنسيًا، وبالنتيجة فقد عانى أطفاله من ذلك[١٠١]، وتجدر الإشارة أخيرًا إلى أنه في اقتراح عقدة أوديب، وضع فرويد كراهية الأب

في مركز علمه النفسي، ومن ثَمَّ يمكننا أن نفترض أن هذا يُعبر على الأقل عن عدائه القوي غير المقصود تجاه والده ورفضه إياه.

كان ارتباط يعقوب بالرب والدين حاضرًا لابنه أيضًا؛ حيث شارك في نوع من الإصلاح اليهودي عندما كان فرويد طفلًا، وقد أمضى كلاهما ساعات في قراءة الكتاب المقدس معًا، وبعد ذلك أصبح يعقوب ملتزمًا على نحو متزايد بقراءة التلمود ومناقشة الكتاب المقدس اليهودي[١٠٢]، وباختصار، فقد كان هذا «الرجل اللطيف» الضعيف أو بالأحرى السلبي بالنسبة لسيغموند مرتبطًا بوضوح باليهودية والله، بالإضافة إلى ذلك كان مرتبطًا بنقص مهم في الشجاعة وبالشذوذ الجنسي وبنقائص أخرى مؤلمة جدًا لسيغموند الشاب، إذًا ليس من المستغرب أن ندين لفرويد التبصر بالسيرة الذاتية، «تثبتُ طريقة التحليل النفسي... يوميًا لنا كيف يفقد الشبان معتقداتهم الدينية بمجرد انهيار سلطة الأب»[١٠٣].

هـ. ج. ويلز (١٨٦٦-١٩٤٦)[١٠٤]:

كان للكاتب الإنكليزي و«الفيلسوف الاجتماعي» هـ. ج. ويلز تأثير هائل في الثقافة الشعبية في العقود الأولى من القرن العشرين؛ فقد جعلته مُناقشاته العامة مع هيلير بيلوك من بين بقية المناقشات، والمبيعات الواسعة من كتابه الموجز في التاريخ (أكثر من مليوني نسخة) «واحدًا من كبار المشهورين ومن أكثر الأصوات

تأثيرًا في عصره»[١٠٥]، وقد قادت كتبه البعض إلى تبني الإلحاد والبعض الآخر إلى الكتابة ضده[١٠٦].

وُلِد ويلز لأبوين من الطبقة العاملة في لندن، حيث كان الطفل الرابع لبستاني وزوجته؛ فقدَ والده عمله في غضون ستة أشهر من زواج والديه، واشترى متجرًا للخزف الصيني اقتراضًا، ولم يكن والده يعلم شيئًا عن الأعمال التجارية، وعلى أي حال، لم يكن يعمل بجد، وعوضًا عن محاولة كسب لقمة العيش في نوع آخر من العمل، وجنى بعض المال من لعب الكريكيت الاحترافي، أمضى والده فترات طويلة على نحو متزايد في ملاعب الكريكيت المحلية والحانات، حيث قام بالمراهنات، وكلما قضى وقتًا أكثر في لعبة الكريكيت، كان الوقت الأقل لزوجته وعائلته ولمتجره، وقد أثرَ إهماله ورفضه زوجته على الزواج، الذي أصبح زواجًا غير محب وبارد على نحو متزايد، وكانت سارة والدة ويلز، المديرة الفعلية للمتجر والمنزل، في حين تنصل زوجها جوزيف من مسؤولياته، وكان غائبًا في كثير من الأحيان، وكتب مايكل كورين كاتب سيرة ويلز: «تفاقمَ شعورُ العداء المتبادل، المحاط بالازدراء، مع الخوف من حمل المزيد من الأطفال... بدأ الزوجان بالنوم في غرف منفصلة، وأصبحت سارة مريرة ومتجهمة، وأصبح جوزيف منفصلًا ولا مباليًا، وبدأ التفكير في مغادرة البلاد أو بيع المتجر من أجل البدء بحياة جديدة لنفسه في مكان آخر»[١٠٧].

توفيت فرانسيس أخته الأكبر سنًا البالغة تسعة أعوام فجأة من التهاب الزائدة الدودية قبل عامين من ولادة ويلز، وعانت والدته انهيارًا عاطفيًا شبه تام وأصيبت بهاجس مس أحادي مع ابنتها الميتة، وقامت بإلقاء اللوم على نفسها، ثم على زوجها، وعلى الرغم من أنها ناشدت جوزيف للحصول على الدعم، إلا أنه «بدا أنه غير قادر على تقديم أي شيء أكثر من اللا مبالاة».

وبعيدًا عن والده وإخوته، لا يخفي ويلز في سيرته الذاتية احتقاره لوالده أو غضبه تجاه الحالة التي تسبب فيها جوزيف بقهر والدته، ويرسم ويلز ارتباطًا واضحًا بين انهيار الإيمان المتزمت عند والدته وكراهيته الخاصة للرب، ويُعلق في هذا المقطع الواضح على فقدان تعاطف والده مع أمه الثكلى بقوله: «كان جو [والده] عرضة لأن يقول (يوجد هنا، يوجد هنا، سادي)، وينصرف للعبة الكريكيت خاصته... توجب على والدتي البكاء وحدها، وأنا على قناعة بأنه في أعماق قلب والدتي هناك شيء ما قد انكسر عندما توفيت أختي قبل ولادتي بأكثر من سنتين، وبعد ذلك تصدع إيمانها البسيط وتسربت منه حقيقته بعيدًا. وقد حصلتُ أنا فقط على أشكال وعبارات لهذا، لا أعتقد أنها أقرت في قرارة نفسها أو أدركت في أي وقت مضى، أنه لا يوجد عزاء تحت السماء للغضب الذي سببه القدر لها... أرادت مني أن أؤمن لأوقف ذلك التيار المُظلم للشك. في الأيام الأولى مع شقيقتي كانت قد تمكنت حتى من أن تشبع تعليمها بالثقة في

الحماية الإلهية، حيث إنها قد خلقت معجزة التقوى المبكرة، ولكنها لم تلامس قلبي لكون الفضيلة قد خرجت منها... كنت أنا حقًا نتاج عدم التقوى المُبكر[١٠٨].

كما أنه يُعلق بطريقة مؤثرة على صلوات والدته بأن «يجعل الله زوجها جو أفضل»، ولكنه يضيف بمرارة: «كانت مثل الكتابة إلى المديون الهارب مقابل جميع الأجوبة التي حصلتْ عليها»، وسواء كان جو الأب أو الله الأب الذي لم يعطِ إجابة فهذا على ما يبدو لم يُحدث فرقًا بالنسبة لويلز، لأنهما بالنسبة له كانا غائبين على حد سواء، لكنه سرعان ما قام بكراهية الرب بقوة وباختتام هذا الجزء من قصة حياته بالإشارة إلى: «التراجع الدقيق للدين والحب من حياتها - باستثناء فخرها الغريزي بأولادها - وتَرْكها للأحلام، كانت تحلم فيما مضى بحب متبادل وبرب يقظ بشكل مستمر، لكن في الواقع لم يكن هناك اطمئنان أكثر لها إلا في أرض الأحلام، كان والدي بعيدًا في لعبة الكريكيت، وأعتقد أنها أدركت بفِطْنَة أكثر وأكثر كلما طالت السنوات دون تخفيف مادي، بأن أبانا وربنا، اللذين قد تكون اعتمدت عليهما بإفراط، كانا بعيدين أيضًا - يلعبان ربما في لعبة الكريكيت الخاصة بهما في جانب بعيد من الكون المُرصع بالنجوم[١٠٩].

تُظهر رسائل ويلز القليلة إلى والده أسلوبًا يحمل نوعًا سطحيًا من الود، ولا يشتمل وصفه لوفاة والده على حزن ولا تعبير عن الخُسْران، ويوفر ببساطة

الأساس الذي يمكن لويلز التعليق عليه بكون أسلافه يميلون للموت بسرعة ودون الكثير من المعاناة.

***

المُلحدون القاصرون...

جون تولاند (١٦٧٠م-١٧٢٢م):

كان تولاند ربوبيًا مبكرًا وشخصية مُتفردة ومثيرة للجدل تسببت في الكثير من القلق في الأوساط المسيحية الأرثوذكسية في إنكلترا وإيرلندا، ويصفُ روبرت اي. سوليفان، كاتب السيرة المهم لهذا الرجل الغريب الأطوار، أن إله تولاند وكأنه ليس له «طبيعة سببية نهائية ولا أي علاقة إلهية بشؤون الإنسان، وعلاوة على ذلك، لم يترك تولاند أي صلوات أو تأملات أو حكايات تشير إلى أنه آمن بإله شخصي» [١١٠]، وبالمختصر لم يكن لديه أب معروف ويشك أنه ابن كاهن كاثوليكي.

وُلد تولاند في أبرشية إيرلندية نائية، ويقال إنه كان الطفل غير الشرعي لِقِس الروم الكاثوليك، وكتب سوليفان فيما يتعلق بهذه القضية: «إن شدة نفيه، والغموض المدروس لجهوده بإنتاج نسب هما على أية حال مُثيرين للعواطف؛ فقد تلاعب حتى في اسمه المُفترض في محاولة لإخفاء أصله» [١١١]، نشأ تولاند كاثوليكًا، واعتنق البروتستانتية في سن الرابعة عشرة.

وقد أشارت مصادر محلية إلى أنه كان معارضًا لتدخل الأكليروس حتى في هذه السن المُبكرة، وبالرغم من أنه قام بتغيير الدين عدة مرات في حياته، إلا أنه بقي دائمًا معارضًا لتدخل الأكليروس، وكان في شبابه المُبكر راعيًا في الكنيسة،

وبحلول عامه التاسع عشر كان رجلًا وحيدًا وبلا جذور، ولكنه شاب مُشرق يَأمل بالنجاح ويقوده الاضطراب الروحي، ولا يوجد على ما يبدو سجل لعائلته، وله العديد من الرسائل التي لم يُشر فيها إلى أي من أفراد الأسرة، وقد تلقى تعليمه في اسكتلندا، وبدأ بالكتابة عن مواضيع دينية، داعمًا في البداية الصرامة الكالفينية ضد «التحررية» الزائدة للأرمينينيسم، ثم ذهب إلى هولندا لمزيد من الدراسة، بدعم من رجال الكنيسة في الوقت الذي كان يكتب إلى جانبهم، وتعني كتاباته الدينية اللاحقة وسلوكه، وتحولاته المُتعددة في الولاء، عدم انتمائه لطائفة دائمة أو تأييد آخر، في مدينة ليدن، يُقال إن غروره ورغبته القوية للشهرة قد أكسباه سمعة سلبية، فلم تشفع له مكانته بعادته في ارتياد المقاهي والحانات، التي يُقال إنه في واحدة منها أحرق نسخة من كتاب الصلاة العامة (The Book of Common Prayer)، وقضى الكثير من وقته يتحدث ضد الكتب المقدسة، ويحتج ضد القساوسة، وما شابه ذلك، نشر عام ١٦٩٥م عمله الرئيسي الأكثر إثارة للجدل: المسيحية ليست غامضة (Christianity Not Mysterious)، وقد اعتُبر هذا «الإلحاد» الناقد للمسيحية على الفور بأنه هرطقي ووضع تولاند في خطر كبير، ولكن لِسُوء حَظ تولاند، فقد نأى عنه أصدقاؤه المؤثرون مثل جون لوك بسبب غروره وميله إلى الإفراط في الألفة، وواصل تولاند مسيرته المتقلبة، قاضيًا الوقت في القارة الأوروبية، ثم عائدًا في نهاية المطاف إلى إنجلترا، وقد حافظ في السنوات الأخيرة من حياته على معتقداته الهرطقية الدينية لكنه كتب في المقام

الأول عن القضايا السياسية المحلية. كما كان يعاني دائمًا ضائقات مالية صعبة، ولم يَعثر مطلقًا على الدخل الكافي ولا الدعم الفكري الدائم.

ريتشارد كارلايل (١٧٩٠م-١٨٤٣م):

أصبح كارلايل الإنْكلِيزي، مدافعًا متحمسًا عن الرُبُوبِية ثم الإلحاد والأفكار المتطرفة الأخرى، كان صحفيًا نشطًا، ينشر أعماله وأعمال غيره من الكتاب، في أوائل القرن التاسع عشر، وقد نظم بعضًا من المجموعات الأولى لنشر آراء متشككة في الدين، كما يُعد واحدًا من أوائل من دافع علنًا عن تحديد النسل، ومما يشهد على أهميته في تاريخ الفكر الحر والإلحاد، جنبًا إلى جنب مع روبرت تايلور، تضمينه لذلك في كتاب هيريك ضد الإيمان: مقالات عن الرَبوبيين والمُشككين والملحدين، والذي يغطي العديد من الشخصيات الرئيسية في تقاليد المُلحد اللاأدري»[١١٢]، وما هو معروف عن طفولة كارلايل أن والده «كان إسكافيًا وجابيًا للضرائب ومديرًا لمدرسة وجنديًا، كما نشر على ما يبدو مقالات عن الرياضيات، وكان ميالًا إلى الشرب، وربما هذا هو سبب دفاع ابنه القوي عن الرزانة والاعتدال، وتوفي عندما كان ريتشارد في الرابعة، ثم أعانت والدته وأخواته الأكبر سنًا الأسرة»[١١٣]، كان كارلايل يتدرب على تجارة الصفائح المطلية بالقصدير، لكنه تمرد ضد سيده الصارم، وبالتالي فقد أظهر في سن مبكرة مزاجه للتحدي، في هذا الوقت - في العشرينيات من عمره - لم يكن لديه اهتمام خاص بالدين أو السياسة، لكنه بدأ بعد عام ١٨١٥م بكتابة رسائل

مُتطرفة للصحافة ومنذ ذلك الحين أصبح شخصية عامة واضحة ومثيرة للجدل بشكل متزايد ومعروفًا بمهاجمته للدين.

روبرت تايلور (١٧٨٤م-١٨٤٤م):

كان تايلور مُلْحِدًا إنجليزيًا آخرًا، وُلد في أسرة غنية إلى حد ما، ولكن توفي والده عندما كان في السادسة أو السابعة من العمر[١١٤]، أرسله عمه عندما كان في سن الرابعة عشرة ليتدرب عند صموئيل بارتريدج، الطَبيب الجَراح المُقِيْم في المستشفى العام بالقرب من برمنغهام، وقد حذر بارتريدج - بقيامه على ما يبدو بشيء من شخصية الأب - تايلور من ألا يُعطي رأيه في الدين أبدًا، لكن، ورغم إكمال تايلور لتدريبه الطبي في لندن، إلا أنه حول دينه لفترة وجيزة للأنجليكانية. ذهب إلى جامعة أكسفورد في سن الخامسة والعشرين، وقد تم تعيينه (ارتسامه) كشماس عند تخرجه عام ١٨١٣م، في ذلك الوقت، «كان يفكر إلَى حَد كَبير ويتجهز ليُمارس مهنة الانجليكانية، بمساعدة من سحر الشخصية والمنح الدراسية الواضحة»[١١٥]، ولكن بدأت وجهات نظره بعد حوالي أربع سنوات تتغير وجاء إلى استنتاج مفاده بأن المسيحية على وجه الخصوص، وجميع الأديان عمومًا، ما هي إلا لعنة عظيمة للإنسانية، وسرعان ما أدى تشككه إلى جعله شخصًا غير مرغوب فيه في الكنيسة، ثم قام عام ١٨٢٤م بتشكيل جمعية للتشكيك في المسيحية، انضم عام ١٨٢٩م لكارلايل و«انطلقا في مهمة إلحادية عبر جميع أنحاء البلاد للاجتماع بالمناصرين ومناظرة المؤمنين»[١١٦]، وقد أصبح

جنبًا إلى جنب مع كارلايل، المُدافع العام للرفض الجذري للمسيحية، ثم عام ١٨٣٣م، تزوج من أرملة ثرية وترك الحياة العامة، واستقر في فرنسا، وعَمل جراحًا حتى وفاته.

***

المُلحدون المعاصرون...

مادلين موراي أوهاير (١٩١٩م-١٩٩٥م):

تُعد إحدى المُلحدات الأَمِيركِيات المعروفات، كانت مادلين موراي أوهاير مسؤولة عن جلب الدعوى القضائية التي قادت المحكمة العليا في الولايات المتحدة، في الستينيات، لحظر الصلاة في المدارس العامة، وقد بقيت نشطةً كمُلحدة حتى اختفائها، وتكشف مذكرات ابنها، التي بدأها عندما أصبح في الثامنة، أسلوب حياته العائلية بقوله: «نحن نادرًا ما نفعل أي شيء معًا كأسرة؛ فقد مَنعت الكراهية بين جدي ووالدتي مثل هذه المشاهد المُعبرة»[١١٧]، ويدعي أنه لم يعرف لماذا تكره والدته والدها كثيرًا، ولكنها كرهته فعلًا، ويروي في الفصل الافتتاحي من الكتاب، شجارًا فظيعًا جدًا حاولت فيه أوهاير قتل والدها بسكين جزار طولها عشر بوصات، ولكنها فشلت وصرخت قائلة: «سأراك ميتًا، سأنال منك ذات يوم، وسأمشي على قبرك»[١١٨]، أيًا كان سبب كراهية أوهاير الشديدة لوالدها، فمن الواضح من كتاب ابنها أنها كانت عميقة، وأنها تعود إلى طفولتها، وقد يكون الإيذاء النفسي، وربما البدني سببًا محتملا[١١٩].

ألبرت إليس (١٩١٣م-٢٠٠٧م):

مُلحد معاصر آخر يستحق أن نأخذه في الحسبان وهو اِخْتِصاصِي عِلْمِ النفْسِ السريرِي الأمريكي ألبرت إليس، الذي اشتهر بنظريته للعلاج العاطفي العقلاني (RET)، والتي طورها على مدى عدة عقود في معهده المؤسس في

مانهاتن، كان إليس انتقاديًا شديدًا للدين بكونه غير منطقي بحد ذاته، وكثيرًا ما يُعرب عن انتقاده للمعتقدات والممارسات الدينية بلغة قاسية جدًا وفظة، وحتى فاحشة، لقد سَمعتُ شخصيًا انتقاداته في مناسبتين، وأُبْلغتُ بأن لغته الشديدة والمُهينة في تلك المناسبات نَمَطِية، وقد تحدثت أنا وإليس واحدًا تلو الآخر قبل بضع سنوات في مؤتمر عُقد في دالاس، فتحدث إليس باعتباره عالم نفسي ملحد، وتحدثتُ أنا كعالم نفسي مؤمن، استمر حديث كل واحد منا نحو أربعين دقيقة، ولأن كلانا جلس على طاولة الحوار نفسها فقد استمع أحدنا لما في جعبة الآخر من وجهة نظر، سمعَ إليس موجزًا مقتطفًا عن رسالة وفرضية هذا الكتاب، وأخبرني ونحن في طريقنا للخارج معًا بعد انتهاء الجلسة، بأن الموضوع لا ينطبق عليه؛ لأنه حظي بعلاقة جيدة مع والده، أجبته بأنه من حسن حظ الفرضية النفسية أن تكون صحيحة حتى في ٥٠-٦٠٪ من الحالات.

أرسَلتُ عند عودتي لمدينة نيويورك، نسخةً من حديثي لأحد الأصدقاء وهو مُحرر الكتب الدكتور جورج زيمار، الذي كان يعمل في ذلك الوقت لصالح شركة بريغر للنشر، وبعد عدة أسابيع اتصل بي ليخبرني بأنه قد قرأ مقالتي وأخبرني بالصدفة أنها مفيدة في فهم ألبرت إليس، ذُهلتُ حينها لوهلة وأخبرت زيمار بأن إليس قد أنكر شخصيًا الصلة ما بين فرضيتي وحياته، أجاب صديقي بقوله: «حسنًا، نحن ننشر سيرته الشخصية، وكنت أقرأ صفحة البراهين الليلة

الماضية، وأعتقد أنه يناسب فرضيتك»، عندما نُشرتْ سيرة إليس الذاتية في وقت لاحق، قرأت عن مرحلة طفولته، ووجدت أن الكاتب دانييل وينر، وَصف إليس بأنه عانى «إهمال الوالدين ومرضًا خطيرًا خلال طفولته»[١٢٠].

وُلد إليس لعائلة يهودية عام ١٩١٣م «أمضت والدته وقتًا قليلًا في الاعتناء بطفلها وابنتها وزوجها»[١٢١]، عانى ألبرت في الخامسة من عمره مرضًا شديدًا أُدخل على أثره إلى المشفى، «كانت عائلته نادرًا ما تزوره خلال ما يقارب السنة التي قضاها في المشفى»[١٢٢]، ويُعد شقيقه بول الصديق الأقرب له طيلة حياته، أما والدهما فغالبًا ما كان غائبًا، وتخلى عند مرحلة مراهقتهما عن العائلة وهجرها، ولم يلتقِ ماني صديقه الجيد الوحيد (إلى جانب شقيقه) بوالد ألبرت أبدا[١٢٣]، أما والدته فنادرًا ما كانت تمارس الطب، وكانت في كثير من الأحيان في الفراش، ودائمة الصراخ حول ما يعتبره ثرثرة: «تعامل ولداها معها بازدراء وعدم احترام تام»[١٢٤]، وبقيت الأم بعيدة ومن غير فائدة، وعندما أصاب الكساد الاقتصادي البلاد في الثلاثينات، كان على الأخويين أن يُعيلا نفسيهما ووالدتهما.

وصِفَ الفتى ألبرت بأنه طفل ذكي ونحيل وبارد المشاعر، لكنه طفل تم هجره من قبل والده وكان عليه أن يُعيل نفسه ووالدته، ومن المؤكد أن يكون قد جُرح بشكل عميق من هذا الوضع، عالج ألبرت وشقيقه وضعهما المادي جيدًا، وتمكنا في النهاية من دخول الجامعة - دون أي فضل لوالديهما، تطلب

تحقيقه لإنجازه هذا الشجاعة والصلابة النفسية وإنكار مشاعر الحرمان المُتولدة عن هجر والده له وإهماله.

وإذا نظرنا إلى الوراء، إلى الأمثلة الثلاثة عشر المهمة في التاريخ لرافضي وجود الإله، فإننا نجد في كل حالة إما الأب المؤذي أو الميت أو الضعيف، وقد أثبت المثالان البارزان الحديثان أوهاير وإليس أيضًا هذا النموذج، وسننتقل الآن على سبيل المقارنة، للنظر إلى طفولة مؤمنين مشهورين من الفترات التاريخية ذاتها.

***

الملحدون الجدد

كما ذكر في مقدمة الكتاب فقد ظهرت مؤخرًا حركة إلحادية على المستوى الشعبي في العالم الأنجلو-أمريكي، يتزعمها مفكرون عرفوا بمجمله تحت مسمى «الملحدين الجدد»، وقبل أن نتحدث عنهم من منظور تفسيراتنا النفسية فمن المناسب البدء ببعض التعليقات الأولية، أثر الكُتَّاب الملحدون الأوائل في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر غالبًا على النخبة المثقفة حينها، ومع مرور الوقت وصلت تلك الأفكار الإلحادية إلى الجامعات والمجال التخصصي، لكن التصريح بالإلحاد وصل اليوم إلى شريحة أوسع بكثير وأكثر شعبية من المجتمع. كان هذا جزئيًا نتيجةً للإعلام الجديد (التلفاز والإنترنت) لكنَّه يتبع أيضًا نمط انتشار الأفكار الحديثة المتطرفة الأخرى، التي تتغلغل ببطء في الثقافة عمومًا. فقد شاعت سابقًا الأفكار الثورية مثل الاشتراكية، وعمومًا قبلت الأفكار الحديثة على نحو واسع مؤخرًا في عالمنا المعاصر الذي اصطبغ بصبغة الحداثة.

رغم الحماس الأخير للإلحاد الجديد فقد أشار الفلاسفة والمفكرون الآخرون إلى أنَّ الملحدين الجدد جيدون في الخطابات، إلا أنَّهم نادرًا ما يقدمون حالة عقلانية منظمة، في الحقيقة ووفقًا لكثير من الفلاسفة والمفكرين الذين تعاملوا معهم لم يـقدم الملحدون الجدد أي حجج جديدة ضد الإيمان بالله، وكثيرًا ما نُقِدَت موا_نهم بذكاء في الماضي، كما كان هناك مؤخرًا تفنيدات

شاملة ومعينة عن مواقف الإلحاد الجديد، لكن هذه التفنيدات لم تحظ باهتمام شعبي تقريبًا[1].

---

(١) من الكتب الكثيرة التي تنقض الإلحاد وتتكلم عادةً فيها عن الملحدين الجدد: م. ج. أدلر M.J. Adler، كيف تثبت وجود الله: كتابات مورتيمر ج. أدلر وأفكاره عن الله How to Prove There Is a God: Mortimer J. Adler›s Writings and Thoughts about God، تحرير وتحويل برمجي: ك. تزوغان K. Dzugan (شيكاغو: أوين كورت، ١١٠٢)؛ د. بيرلنسكي D. Berlinski، وهم الشيطان: الإلحاد وادعاءاته العلمية The Devil›s Delusion: Atheism and Its Scientific Pretensions (نيو يورك: منتدى التاج، ٢٠٠٨) [مترجم، نشر مركز دلائل]؛ إي. فيسر E. Feser، الخرافة الأخيرة: تفنيد الإلحاد الجديد The Last Superstition: A Refutation of the New Atheism (بند الجنوبية، إنديانا: مطبعة القديس أوجستين، ٢٠٠٨)؛ أ. فلو A. Flew، هنالك إله: كيف يغير أعتى ملحد في العالم رأيه There Is a God: How the World›s Most Notorious Atheist Changed His Mind (نيويورك: هاربر كولينز، ٢٠٠٧)؛ د. ب. هارت D.B. Hart، وهم الملحدين: الثورة المسيحية وأعداؤها العصريون Atheist Delusions: The Christian Revolution and Its Fashionable Enemies (نيو هافن، كونيتيكت: مطبعة جامعة يل، ٢٠٠٩)؛ ج. سي. لينوكس J.C. Lennox، استهداف الإله: لماذا يخطأ الملحدون الجدد الهدف Gunning for God: Why the New Atheists Are Missing the Target (أوكسفورد: ليون هودسون، ٢٠١١)؛ أ. مكغراث A. McGrath، لماذا لن يزول الله: هل يعمل الإلحاد الجديد في فراغ؟ Why God Won›t Go Away: Is the New Atheism Running on Empty? (ناشفيل: نيلسون، ٢٠١٠)؛ أ. بلانتينغا A. Plantinga، أين هو التناقض فعلًا: العلم والدين والطبيعية Where the Conflict Really Lies: Science Religion and Naturalism (أوكسفورد، مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠١١)؛ آر. ج. سبيتزر R. J. Spitzer، أدلة جديدة على وجود الله: مساهمات الفيزياء والفلسفة المعاصرة New Proofs for the Existence of God: Contributions of Contemporary Physics and Philosophy (المنحدرات الكبرى Grand Rapids، ميشيغان: إيدرمانز، ٢٠١٠).

أليكس روزنبرغ A. Rosenberg ، دليل الملحد للحقيقة: استمتع بالحياة دون أوهام The Atheist's Guide to Reality: Enjoying Life without Illusions (نيويورك: نورتون، ٢٠١١).

على الرغم من هذا كان هنالك رد فعل إيجابي كبير على الملحدين الجدد، ربما حصل هذا جزئيًا بسبب الزيادة في العوائل المعيبة، خصوصًا العوائل يتيمة الأب.

وهنالك نقطة أخرى تبدو ذات صلة، إذ يتعلق الإلحاد تعلقًا وثيقًا برؤية فارغة كئيبة لا تحمل أي معنى؛ كما يتعلق بنسبوية الأخلاق، وأصبحت كلتا النظرتان شائعتين اليوم، أوضح الملحد المعاصر أليكس روزنبرغ Alex Rosenberg أنَّه مع (عدم وجود إله) لا توجد غاية، إنما توجد صدفة، ولا توجد أيضًا إرادة حرة بالطبع ولا مسؤولية أخلاقية، حيث يدعي بطريقة ما أنَّه يفترض بنا التمتع والاستمتاع في حياة خالية مما يسميه أوهامًا دينية وأخلاقية، وأطلق على موقفه اسم (العدمية المخففة nice nihilism)، بالطبع قد يصادف أن تكون متعتي هي ألمك، لكن ذلك سيكون فقط نتيجة حظك العاثر، تقوم نظرة روزنبرغ بوضوح على افتراض أنَّه لا يوجد إلا العالم المادي؛ فهو يفترض صحة العلموية أو المذهب الطبيعي، ويبين في هذا المجال ما الذي تعنيه المادية الإلحادية الفارغة لحياتنا، (وبخصوص افتراض العلموية انظر الفصل السادس أدناه، الإلحاد والتوحد).

ريتشارد دوكينز (١٩٤١):

لعدة سنوات كان ريتشارد دوكينز أستاذ الأحياء التطورية في جامعة أوكسفورد وحاليًا هو عضو فخري فيها[1]، ومؤلف كتب تصدرت قائمة الكتب الأكثر مبيعًا، منها وهم الإله The God Delusion وصانع الساعات الأعمى The Blind Watch Maker، والجين الأناني The Selfish Gene، يظهر في كتبه وفي ظهوره الجماهيري في المحاضرات وعلى التلفاز بأنَّه ناقدٌ حاد لجميع الأديان، وعلى وجه الخصوص للمسيحية، عندما يناقش العلم بكونه غير مرتبط بموضوع الدين يركز على ما يسميه الصفات الرومانسية والمدهشة، حظى باحترام واسع من المجتمع العلمي والفكري لدرجة كبيرة، وعلى المستوى الفردي فهو ذو شخصية جذابة جدًا وربما هو أشهر الملحدين الجدد، زوجته الثالثة هي الممثلة لالا وارد Lalla Ward وله طفلة واحدة من زوجته الثانية.

ولد في كينيا من عائلة إنكليزية؛ كان الأب يعمل في خدمة المستعمرات الزراعية، ويبدو أنَّه كان الطفل الوحيد، على أية حال، فبعد سنواته الإيجابية الأولى في كينيا عاد والده إلى إنكلترا واستقر في مزرعة ورثها هناك، حيث طور عددًا من الاختراعات الزراعية الهامة، في هذا الوقت وبعد أن انتزع ريتشارد من سنواته الجميلة في كينيا أُرسل إلى أوندل Oundle وهي مدرسة إنجليزية داخلية

(١) كلينغوفر، «ريتشارد دوكينز: سيرة ذاتية»، مركز العلوم والثقافة: برنامج معهد ديسكفري، ١ أيار، ٢٠٠٩ http: / /www.Discovery.org /a /10291.

مرتبطة بكنيسة إنكلترا، وكان فيها طالبًا جيدًا لكنه لم يكن بارزًا، وأظهر اهتمامًا باكرًا بعلم الأحياء، ويعلق دوكينز على سيرته بقوله أنَّه كان مسيحيًا إنجليكانيًا مثاليًا حتى منتصف سن مراهقته وبداية عشرينياته، وعندها اكتشف التفسيرات السامية لداروين والتطور التي تتحدث عن التعقيد الحيوي للعالم.

من المهم ذكر أنَّه عندما كان في التاسعة من عمره في مدرسته الداخلية الأنجليكانية المتشددة ذكر دوكينز تعرضه لحادثة اعتداء جنسي من قبل أحد الأساتذة اللاتينيين الشواذ المرتبطين بالكنيسة الأنجليكانية"[1]. أرست هذه الحادثة سلبية شديدة للدين عنده في عمر مبكر، كما كان أيضًا في ذلك الوقت منفصلًا عن كلٍ من أمه وأبيه، وذلك بسبب نظام المدرسة الداخلية، علاوة على ذلك وقبل تحوله إلى نظرية التطور أبدى كرهه للحضور الإلزامي في مصلى المدرسة الداخلية التي نبَّه المدرس المشرف سلطات المدرسة بأنَّ إجباره على الحضور إلى المصلى سيسبب له (أذىً إيجابيًا)"[2]. أي باختصار؛ وقبل أن يفهم فعلًا الدليل العلمي أو الحجة المنطقية ضد الدين كان لديه رد فعل عاطفي سلبي قوي تجاه الدين، وهذا ربما هيأه (لتحوله لاحقًا إلى الإلحاد).

---

(١) ر. دوكينز، «اعتداء الدين الحقيقي على الأطفال Religion's Real Child Abuse»، تحقيق مجاني Free Inquiry 22 ٢٢، عدد ٤، (خريف ٢٠٠٢): ٩.

(٢) ر. ماكي R. McKie، «ملفات شخصية من الأوبزيرفير: ريتشارد دوكينز The Observer Profile: Richard Dawkins»، الغارديان The Guardian، تموز ٢٠٠٤، http: / /www.guardian. co.uk /science /jul /25research.science.

دانيال دانيت Daniel Dennett (١٩٤٢):

«الملحد الجديد» المعاصر دانيال دينيت: فيلسوف بارز، وعالم متخصص في علوم الإدراك cognitive scientist ومؤلف لعدد من الكتب؛ منها تفسير الوعي Consciousness Explained ولا ننسى كتابه كسر التعويذة: الدين كظاهرة طبيعية Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon. وقد حصد كثيرًا من الجوائز لمساهماته القوية بفهم العمليات العقلية[١].

تلائم معلومات سيرته الذاتية فرضيتنا، فقد ولد في بوسطن وانتقل مع والديه إلى لبنان أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث كان والده يعمل في استخبارات مكافحة التجسس counter-intelligence التابعة للحكومة الأمريكية، ومات والده عندما كان خارجًا في مهمة في الشرق الأوسط في حادث طائرة غير مفسر[٢]، كان دانيال حينها في الخامسة من عمره في ذلك الوقت؛ وبعد ذلك بقليل أعادته أمه إلى ماساتشوستس، بالإضافة إلى ذلك كتب دانيال دينيت:

(١) أ. بروك A. Brook و د. روز D. Ross «موقف دينيت في العالم الثقافي Dennett's Position in the Intellectual World»، في كتاب دانيال دينيت، تحرير أ. بروك و د. روز (نيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ٢٠٠٢)، الصفحات ٣-١٠؛ وأيضًا الصفحة الرئيسية لدانيال سي. دينيت
http: / /ase.tufts.edu /cogstud /incbios /dennettd /dennettd.htm

(٢) د. دينيت، «دانيال دينيت: سيرة ذاتية (الجزء ١)» مجلة الفلسفة الآن ٦٨ Philosophy Now (تموز/ حزيران ٢٠١٣)، http: / /philosophynow.org /issues /68 /Daniel_Dennett_ Autobiography_Part_1.

كان بعض أصدقائي في شبابي أبناء أساتذة على مستوىً عالٍ أو حتى مشهورين في جامعة هارفارد أو معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT، ورأيت العبء الواقع عليهم في كفاحهم ليستحقوا انتباه آبائهم، ارتجف بالتفكير لما كان يمكن أن يحدث لي لو كان عليَّ العيش طبقًا لتوقعات والدي الفعلية، وليس فقط للتوقعات المستنبطة غيابيًا من أصدقائي وعائلتي"[1].

هذه جملة غريبة بالتأكيد، ليس لديه إحساس بالخسارة الإيجابية، وبدلًا من ذلك هنَّأ نفسه على عدم امتلاكه لأب، في الحقيقة كان (يرتجف) لما كان يمكن أن يحدث لو كان لديه أب، وإذا تحدثنا نفسيًا، فيمكنني اعتبار رده تبريرًا وتصرفًا إنكاريًا.

كرستوفر هيتشينز Christopher Hitchens (١٩٤٩-٢٠١١):

كان كرستوفر هيتشينز صحفيًا إنجليزي المولد؛ غطى كثيرًا من المواضيع، لكن أكثر ما شهره هو هجماته الانفعالية على الدين في كتب له مثل: الله ليس عظيمًا، كيف يسمم الدين كل شيء God Is Not Great، How Religion Poisons Everything وهجومه على الأم تيريزا من كلكتا في بحث الموقف التبشيري[2] The Missionary Position. كان مثقفًا جماهيريًا بارزًا، وغالبًا

(١) المرجع السابق.

(٢) دبليو. غريمز، «كريستوفر هيتشينز، مناقش محترف يفحم الجميع بسهولة، مات بعمر ٦٢ «Christopher Hitchens Polemicist Who Slashed All Freely Dies at 62»، نيويورك تايمز، ١٦ كانون الأول، ٢٠١١.

ما كان يظهر في البرامج الحوارية والمحاضرات العامة والنقاشات، عارض الله باعتباره كائنًا ساميًا أساسًا لأن هذا الفهم استبدادي حسب قوله ويحطم حرية المرء، موضوعه الأكثر شيوعًا في كتاباته السياسية العديدة كان معارضة السلطة الشمولية، فقد كان اشتراكيًا لسنوات، لكن في نهاية المطاف ابتعد عن ذلك الموقف، ربما لأن الاشتراكية أصبحت ذات قوة سياسية كبيرة، واتجه أكثر نحو اليمين السياسي، نجمت معظم شعبيته عن أسلوبه الرائع والمثير في الكتابة وقدرته في جعل كثير من مجابهاته الشفوية العدوانية ساحرة وذكية بنفس القدر.

الشيء غير المتوقع أنَّه امتلك الكثير من الأصدقاء المتدينين بشدة، الذين رأوه ساحرًا وجذابًا جدًا، وقرب نهاية حياته أصبح صديقًا جيدًا لعالم الجينات والطبيب الدكتور المسيحي الإنجيلي المشهور فرانسيس كولينز Francis Collins، الذي رأس معاهد الصحة الوطنية الأمريكية NIH، كما كان صديقًا لمايكل Michael Cromartie وهو إنجيلي أيضًا ونائب رئيس مجلس مركز بحثي محافظ conservative think tank، مركز الأخلاق والسياسة العامة Ethics and Public Policy Center، كانت حياته الشخصية عاصفة في أغلب الأحيان؛ تزوج مرتين وكان كثير السكر، وغالبًا ما يسرف في شرب الخمر. دعته زوجته الأولى مدمن خمور، وهذا كان صحيحًا نوعًا ما، رغم أنَّه نقل عنه

قوله: «أنا لم أفوت يومًا موعدًا محددًا I never missed a deadline[1].

وبعد بلوغه قدِم للعيش في الولايات المتحدة وفي النهاية أصبح مواطنًا أمريكيًا»[2].

كان والده ضابطًا في البحرية البريطانية، وتنقلت العائلة في عدة قواعد بحرية في إنكلترا، يشير هيتشينز إلى أبيه عمومًا بـ (القائد) ويذكر أنَّه كان هادئًا كثيرًا ونادرًا ما يتكلم، (ربما ذكرياته الأولى عن (القائد) بلورت ازدراءه الدائم للرموز الاستبدادية؟).

ذكر هيتشينز أنَّه لا يتذكر سوى القليل جدًا من الذكريات الواضحة مع أبيه في نهاية طفولته وفي مراهقته، وكان ذلك جزئيًا لأنَّه درس بعيدًا عنه في مدارس داخلية من عمر الثامنة حتى الثامنة عشر[3]، بعد إنهائه المدرسة الداخلية دخل كليةً في أكسفورد، ولا يبدو وجود أي تركيز مهم على الدين في العائلة، رغم أنَّ والده أتى من خلفية معمدانية، لكن كريستوفر كان يكن بعض الاحترام لـ (القائد)، وخصوصًا عمل والده البحري ضد النازيين، لكن لا يمكن القول بأنَّ علاقتهما كانت وثيقة، كان أبوه يقدر المهارة الرياضية عاليًا، لكن كرستوفر خيب أمله في هذه النقطة، لأنَّه كان صغير الجثة ولم يكن يمتلك أي مهارة رياضية؛ وانجذب مبكرًا للاهتمامات الثقافية والشفوية، المنزلة الاجتماعية لوالده كضابط الذي

(١) التواصل الشخصي من مايكل كرومارتي Michael Cromartie، ٢ تشرين الأول، ٢٠١٢.

(٢) كريستوفر هيتشينز، هيتش-٢٢: مذكرات (نيويورك: مجموعة كتب هاشيت، ٢٠١٠)، الصفحات ٢٣٩-٢٦٠.

(٣) المرجع السابق، الصفحة ٣٩.

(أعفته) البحرية في منتصف خدمته عند تخفيض القوات بعد الحرب العالمية الثانية كانت تعني أنَّه لم يكن والدًا ناجحًا جدًا، وفي سنواته الأخيرة عُيِّن أبوه للقيام ببعض الحسابات لمنظمات صغيرة مختلفة.

كان كريستوفر مقربًا جدًا من والدته يفوني Yvonne وقد جعل لها مكانة مركزية في سيرته الذاتية[1]، (كانت يفوني Yvonne في الواقع من أصول يهودية، لكنها أخفت هذه المعلومة عن العائلة، بمن فيهم كريستوفر)، احتفظ بالكثير من الذكريات معها، وكانت ذكريات إيجابية ومهمة له، اختلف الأم والأب كثيرًا عن بعضهما في الاهتمامات والطباع، وبعد عدة سنين من الزواج أصبحت الأم ترى هذا الزواج فارغًا، كانت تشعر بالملل من زوجها وحياته البحرية، وكانت تتوق لحياة أكثر إثارة مع أشخاص مثيرين، عندما كان كريستوفر في العشرين من عمره أو ما يقارب ذلك وأثناء وجوده في أكسفورد أخبرته أمه عن علاقة غرامية كانت تقيمها، وقالت له أنَّها تخطط لترك والده. (كان هذا قبل أن يعرف أبوه بعلاقتها)، كان ذلك الرجل كاهنًا إنجليكانيًا سابقًا، يدعى تيموثي بريان Timothy Bryan، يشير له هيتشينز بأنَّه كاهن سابق ناعم، وشاعر وحالم، كما أخبرته أيضًا أنَّهما أصبحا من محبي ممارسة يوغا ماهاريشي ماهيش Maharishi Mahesh التي يحتقرها هيتشينز.

(١) المرجع السابق، الصفحة (١١-٣١).

(كانت هذه اليوغا سمة شائعة في الستينيات ومرتبطة بفرقة البيتلز Beatles[1]).

كانت تلك ضربة صاعقة لأبيه بلا شك، خصوصًا أنَّ العلاقة أصبحت معروفة جدًا بعد وقت ليس ببعيد، عندما ذكرت الصحف أنَّ يفوني وبريان Yvonne Bryan و وُجِدا ميتين في فندق في أثينا Athens، جاء التقرير الأول بأنَّ بريان Bryan قتل يفوني Yvonne ثم قتل نفسه، لكن ثبت لاحقًا خطأ هذا التقرير، وبدلًا من ذلك أخذ كلاهما حبوبًا متعاهدين على الانتحار[2]. كان وقع ذلك شديدًا على كريستوفر، وما يثبت ذلك هو العدد الكبير من الصفحات التي قدمها عن الحدث، بما فيه موضوع الانتحار، والذي يشير له غالبًا بـ «الذبح الذاتي»، (ما يثير الفضول أنَّ التعبير غير الاعتيادي؛ الذبح الذاتي - الذي يعرفه كريستوفر التأكيد قد جاء في رواية هاملت لشكسبير، وذلك في مناجاةٍ للنفس soliloquy يتحدث فيها هَاملت التالي:

آه! ليت هذا الجسد الصلد ينصهر

يذوب وينحل إلى قطرات من ندى

يا ليت الأزلي لم يصنعه

إن حكمه ضد ذبح الذات ، آه رباه! رباه![3]

---

(١) المرجع السابق، ص. ١٩.

(٢) المرجع السابق، ص. ٢٤.

(٣) هاملت، المقطع الأول، المشهد الثاني.

باستخدامه مثل هذا المصطلح عبر هيتشينز دون وعي بتأييده حكم الله.

من منظورنا نحن نلاحظ الشخصية الأبوية ترتبط بالمسيحية ودين العصر الجديد New Age، وكذلك الكاهن السابق بريان Bryan الذي ارتبط بقوة بموت والدة كريستوفر التي كان يحبها جدًا.

من الواضح أنَّ هيتشينز ينظر لبريان Bryan على أنه السبب الأساسي لانتحار والدته[1].

بالنظر للأشخاص الثلاثة عشر الرئيسيين الذين تناولناهم ممن رفضوا الذات الإلهية نجد في حياة كلٍ منهم والدًا ضعيفًا أو ميتًا أو معتديًا، وقدم مثالان حديثان بارزان هما أوهير وإليس Ellis و O'Hair دعمًا لهذا النمط أيضًا، ونرى مع الملحدين الجدد معاناة دوكينز تجربة اعتداء جنسي بعمر التاسعة ارتكبها بحقه نوع متدين من الشخصيات الوالدية خلال فترة انفصال ريتشارد عن أبيه وأمه في مدرسة داخلية؛ أما مع دينيت فنجد حالة وفاة الأب عندما كان دانيال بعمر الخامسة؛ ومع هيتشينز نلاحظ أبًا بعيدًا نسبيًا ولم يكن ناجحًا تمامًا وقد خسر زوجته مع قسيسٍ سابقٍ هش التفكير، يرى فيه كريستوفر سبب موت والدته، لم نرَ في أية حالة والدًا قويًا محبوبًا ذا علاقة وثيقة بابنه أو ابنته.

---

(١) هيتشينز، هيتش-٢٢، الصفحات (٢١، ٢٧، ٢٨).

وللقيام بالمقارنة ننتقل للنظر لطفولة المؤمنين المعروفين من نفس الفترة التاريخية.

***

٣- الدليل: المؤمنون وآباؤهم...

من الممكن بالطبع اعتبار أن الدليل على الأبوة المعيبة في حياة الملحدين مجرد انعكاس للحالات الاجتماعية في زمنها، والمطلوب إذًا بعد ذلك إجراء مقارنة بين الملحدين مع مجموعة شاهدة من المؤمنين، وإذا لم يكن آباء المؤمنين البارزين عبر الثلاثمائة السنة الماضية مختلفين عن آباء غير المؤمنين (الملحدين)، فعندها لا تُشكل نتائج الفصل السابق دليلًا على فرضية الأب المعيب، وسأدرس في سياق اكتشاف هذه القضية المهمة، السنوات المُبكرة للمؤمنين المشهورين تاريخيًا، وبعد ذلك يمكننا تقييم الدليل السريري (من السيرة الذاتية) كما ينبغي عن حياة الملحدين.

اخترتُ هؤلاء المؤمنين ليس بناءً على تقواهم أو بروزهم العام خلال حياتهم فقط، ولكن لكون كل واحد منهم عُرف بدفاعه الفكري عن المسيحية أو اليهودية؛ حيث شكل كل منهم جزءًا من رد الفعل الديني المجابه للملحدين أو الموقف الفكري التشكيكي النمطي في العصر الحديث.

بليز باسكال (١٦٢٣م - ١٦٦٢م):

يُعرف باسكال جيدًا كعالم رياضيات عظيم وكاتب ديني عظيم، وقد عاش في وقت ومكان (باريس) مليئين بشكل هام بالتشكك الديني العام، ولكنه مع ذلك ألف كتاب الأفكار Les Pensees التي مثلت دفاعًا قويًا وبارعًا بالتصوير المجازي عن المسيحية وهجومًا على المشككين.

كان اتيان والد باسكال قاضيًا ثريًا إضافةً إلى أنه كان عالمًا بارعًا في الرياضيات وذكيًا فيما يخص العلوم، وضليعًا في اللغتين اللاتينية واليونانية، وعُرفَ أيضًا بأنه رجل كاثوليكي جيد، توفيت والدة باسكال عندما كان في الثالثة من عمره، ثم تولى اتيان مسؤولية تعليم بليز الشاب وأخواته الأكبر والأصغر سنًا، متخليًا عن القانون باستثناء إدارة شؤونه المالية والاستمرار في شغفه بعلوم الرياضيات، كان الفتى بليز طفلًا معجزة بوضوح في العلوم والرياضيات على اعتبار أن دراسته كانت «منزلية» تمامًا، وصف جين شتاينمان أحد الكتاب البارزين لسيرة باسكال الذاتية، شيئًا من جو الأسرة ومن عبقرية باسكال المبكرة، بقوله: «كانوا يتناقشون في أوقات الطعام عن انفجار البارود، وكيفية تدفق الماء في المضخات، وتأثير البرق، وانكسار الضوء، والسبب الذي يكمن وراء طفو بعض الأشياء على سطح الماء، كان بليز يقوم بتجاربه على الصوت عن طريق النقر بملعقته على الأواني البيوترية، ثم على إبريق نحاسية، ثم على طبق فضي، واكتشفَ أن الأصوات تنشأ عن طريق الاهتزازات، وقد حاول بمجرد تعلمه الكتابة، كتابة مقالة صغيرة عن

الصوتيات»[١]، واكتشف بنفسه لاحقًا عندما بلغ الثانية عشرة من عمره العديد من العناصر في علم الهندسة، رغم مُمانعة والده لتعليم ذلك الفرع من علوم الرياضات لفتى صغير جدًا.

توفي والده ايتان عندما كان بليز في الثامنة والعشرين من عمره عام ١٦٥١م في باريس بحضور بليز وشقيقته جاكلين، كتبَ بليز في وفاة والده مقالةً قصيرةً بعنوان «وفاة المسيحي» على شكل رسالة إلى أخته الأخرى وزوجها، ينبثق من هذه الرسالة السلام والثقة بالخلاص والنجاة لوالده.

يُعد باسكال شخصية صعبة ومعقدةً جدًا، ومع ذلك، فإنه بلا شك يناسب الفرضية ويُشكل مثالًا حسنًا عن الصبي الذي أحبه والده وبادله بدوره هذا الحب. وأظهر بليز بعد وفاة والده، موقفه الإيماني بقوة خلال إحدى الفترات الأولى التي أصبح من غير المألوف فيها القيام بذلك خصوصًا في الأوساط العلمية والفلسفية التي تنقل فيها.

جورج بيركلي (١٦٨٥م - ١٧٥٣م)[٢]:

وُلد في إيرلندا، ويُعرف هذا الفيلسوف المشهور بالتحليل الإدراكي هذا النهج النظري الذاتي في أسلوبه والذي كان نقدًا كبيرًا للمادية وانعكاساتها الإلحادية، أصبح في سن التاسعة والأربعين أسقفًا في الكنيسة الإنجليزية في إيرلندا، وكان مؤمنًا قويًا وقد حاول على سبيل المثال إيجاد كلية في المستعمرة

الأميركية (برمودا) لهداية (تبديل ديانة) المواطنين ومواجهة نمو الكفر في المجتمع الأمريكي، نعلمُ عن جورج أن لديه شقيقة صغرى، وأنه الأكبر سنًا بين إخوته الستة[٣]، كان والده ويليام بيركلي رجلًا ذا موقف وثريًا إلى حد ما، وضابطًا حاربَ سابقًا تحت لقب ايرل غالواي، أما والدته فـ«كانت عمة الجنرال وولف، والد الجنرال الشهير بهذا الاسم»[٤]، ترعرع أبناء عائلة بيركلي الستة كرجال مرموقين، فقد أُرسلوا إلى مدارس جيدة - وثلاثة منهم إلى الجامعة. توفي كلا الوالدين في الأسبوع ذاته عن عمر قارب التسعين عامًا لكل منهما[٥]. كان الفيلسوف مُقربًا لإخوته ويتمتع بشخصية ودودة، وكما صاغها أحد كتاب السيرة الذاتية: «أبقى بيركلي رأسه عاليًا ولم يظهر أي افتخار مُفرط بأسرته، كان من أصل طيب وصلته بأنسبائه جيدة ولكنها ليست وثيقة»[٦]، رُزق جورج وزوجته ني آن فورستر، أربعة أطفال بقوا بعد عمر الطفولة المُبكر؛ وهم هنري وجورج وويليام وجوليا، والذين وجد جورج بتعليمهم سعادته الكبرى، فكان يتحدث عن أطفاله ويتعامل معهم بعاطفة كبيرة؛ حيث قام بوصف جوليا بقوله «يا لها من ابنة» و«جميلة كجمال النجوم» و«الجوهرة المضيئة»[٧]، وقد أثرت فيه وفاة ابنه ويليام كثيرًا، وخلال حياته فيلسوفًا وأسقفًا كان معطاءً كريمًا على الفقراء ودائمًا ما يكتب عن كيفية تحسين شروط الحياة الاجتماعية المحلية، تم وصفه عندما أصبحَ شخصًا ناضجًا في منتصف الثلاثينات من عمره، من قبل أتربيري - كاتب

معاصر مهم- بأنه: «متفهم جدًا وذو علم واسع، طاهر جدًا وشديد التواضع، لم أكن أعتقد بأن أحدًا قد يشبه نمط الملائكة إلى أن رأيتُ هذا الرجل الراقي»، قال ألكسندر بوب عنه إنه كان رجلًا يحملُ «كل فضيلة موجودة تحت السماء»[٨]. توفي في ١٤ تموز عام ١٧٥٣م، وهو مستلق على الأريكة حين كانت زوجته تقرأ له من رسالة إلى أهل كورنثوس Letter to the Corinthians[٩].

وبالنظر إلى حياته كاملة نرى بشكل دقيق أن والد جورج قد عاش فترة طويلة من حياة الفيلسوف، وليس هناك أي دليل على وجود أي شكل من أشكال القطيعة أو الجفاء بينهم، ومن المعلوم أيضًا أن الأسقف بيركلي كان مؤمنًا حقيقيًا حيث مثل ودافعَ علنًا عن إيمانه طوال حياته.

جوزيف بتلر (١٦٩٢م - ١٧٥٢م)[١٠]:

كان جوزيف الابن الأصغر من بين ثمانية أطفال لتاجر قماش ثري نوعًا ما، وقد تقاعدَ والده ليعيش بعدها في منزل يدعى بالدير، ذهب جوزيف بدايةً لمدرسة لاتينية، وبعدها لأكاديمية أخرى قبل الذهاب إلى الجامعة، وقد قرر الالتحاق بالكنيسة الإنجليزية على الرغم من أن والده كان يفضل أن يصبح مشيَخيًا (تابع للكنيسة المشيخية)، تم تعيينه (ارتسامه) كقس للكنيسة الأنجليكانية في سن السادسة والعشرين، ثم أصبح فيما بعد أسقفًا لدورهام، من أكثر ما كتبه بتلر شهرةً: المتشابهات في الدين Analogy of Religion، والطبيعة والوحي Nature

to the Constitution إلى الدستور ومجرى الطبيعة، and Revealed .and Course of Nature

تلقى بتلر المال أحيانًا من أخيه الأكبر خلال سنواته المبكرة، ولم يتزوج أبدًا، لكنه بقي على اتصال مع أشقائه وأبنائهم طوال حياته، وعند وفاته، ترك معظم ممتلكاته لأبناء إخوته وأخواته، كان هادئا بطبيعته، وقد دعم موقفه الفكري بقوة المنطق على حساب الجوانب العاطفية في الدين، ومع ذلك فقد وُصِف أيضًا بسهولة اقتناعه بإعطاء المال للمتسولين.

لم يُعرف إلا القليل عن علاقته مع والده، باستثناء معرفتنا بأن والده كان على قيد الحياة لدى مغادرته لأوكسفورد عام ١٧١٥م عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره، وعُرف أيضًا بأن والده اقتنع بصعوبة باختيار بتلر الكنيسة الإنجليزية. إذًا ليس هناك أي دليل على القطيعة ويمكن أن نفترض وجود علاقة مناسبة بين الأب والابن في حالة هذا المُفكر المسيحي ورجل الدين هذا.

توماس ريد (١٧١٠م - ١٧٩٦م)[11]:

كان هذا الفيلسوف الشهير رجلًا مؤمنًا وقسًا بروتستانتيًا لفترة طويلة، عُرف بالمقام الأول بإسهاماته في الفلسفة، ويُعد أسلوبه في الكتابة مبسطًا وواضحًا، ومحايدًا وجديًا، كما تُمثل فلسفته الموقف المنطقي القوي السليم والواضح - وهي تُشكل إلى حد كبير ردًا على شكوكية هيوم، ويُعد

العمل الأهم لريد هو كتاب بحث في العقل البشري ومبادئ الحس العام An Inquiry into the Human Mind on the Principles of Common Sense، المنشور عام ١٧٦٤م.

كان والد توماس القس لويس ريد قسيسًا أيضًا، وعاش توماس في منزل القس الخاص بوالده حتى بلغ حوالي الثالثة والعشرين[١٢]، توفي والده عام ١٧٦٢م، عندما كان توماس في الثانية والخمسين من العمر، وكما لوحظ فقد حذا حذو والده مهنيًا، وتشير كل هذه التفاصيل إلى أن العلاقة بين الأب والابن كانت إيجابية، وقد حظي لويس ريد بالاحترام بسبب «تقواه وحكمته وإحسانه التي ورثها عن بساطة أخلاق أسلافه والأذواق الأدبية»[١٣].

كان لدى الفتى توماس شقيق أكبر وشقيقتان، وقد تلقى تعليمه في المنزل حتى العاشرة من عمره، ثم قضى سنتين في مدرسة أبرشية محلية، وذهب إلى أبريدين في سن الثانية عشرة للانتساب إلى كلية ماريسشتال حيث واجه لأول مرة التيارات الفكرية في عصره - وبشكل خاص وجهات نظر جورج بيركلي، تخرج عام ١٧٢٦م، وتابع دراسته في علم اللاهوت وعُين في نهاية المطاف قسًا مشيخيًا وهي المهنة التي كان ناجحًا وبارعًا فيها بسبب ما كان يتصف به من نشاط معتدل ورحيم، تم الكشف عن جدية حياته الدينية عن طريق دعوته للاهوتية من خلال فلسفته التوحيدية وحياته الشخصية، كما تم توثيق ذلك من خلال صلاته الطويلة

والمؤثرة جدًا التي عُثر عليها بين أوراقه بعد وفاته، كُتبت هذه الصلاة عندما كان في السادسة والثلاثين من عمره وكان سببها مرض زوجته الخطير، ويُقرأ في جزء منها: يا إلهي، لقد اخترتُ بكل تواضع الدعاء لأتقبل حكمتك الإلهية في فاجعة (مصاب) زوجتي، والتي... في خطر الموت الوشيك، في حال أنك... لم تتداركها بيدك الرحيمة سبحانك، وتعيدها من بوابة الموت، يا مولاي، إنني أستحق بعدل أن تحرمني أنت من أعظم راحة في حياتي، لأنني لم أكن شاكرًا لك كفاية كما يجب على منحك لي زوجة لطيفة وحنونة، لقد نسيتُ عطاءك في جعلنا سعداء معًا عن طريق توالي الأحداث المفاجئة وغير المتوقعة، ومُباركتنا بالكثير من الحب والوئام والمودة... مولاي، اقبل تضرعي وتوبتي واعترافي بإساءاتي، والتي أرغب في الاعتراف بها بكل خجل وأسى، وأنا عازم بفضلك على الإصلاح... مولاي، اعذرني إن كان هنالك أية وقاحة أو إن لم أكن متواضعًا في توبتي وندمي على إثمي، وتقبل يا إلهي ما كان خالصًا مني كعهد جديد على عاتقي وكمسؤولية أمام المسيح عيسى، إلهي ومنقذي[١٤].

استردت السيدة ريد عافيتها، ودام زواجهما الناجح خمسين عامًا ونيفًا، أنجبا خلالها خمسة أطفال لم يتوفوا في الصغر[١٥]، وُصِف ريد بأنه «ودود» تجاه عائلته وفي منتهى السعادة بأطفاله الصغار[١٦]. وبالإمكان اعتباره صديقًا موثوقًا ومتعاطفًا مع الآخرين.

إدموند بيرك (١٧٢٩م - ١٧٩٧م)[١٧]:

وُلد في دبلن لأب بروتستانتي وأم رومانية كاثوليكية، كان إدموند الابن الثاني لريتشارد بيرك، وهو محام له بعض الشهرة (سُمي على اسم الشاعر إدموند سبينسر، أحد أقارب والدته)، اعتنق إدموند بحسب التقاليد في ذلك الوقت، معتقدات والده الدينية في الكنيسة الإنجلكانية في إيرلندا[١٨]، ولكنه امتلك التعاطف الكاثوليكي والإيمان العظيم بالتسامح الديني بسبب ديانة والدته، قامت والدته بسبب صحة إدموند الضعيفة بنقله من دبلن عندما كان صبيًا صغيرًا جدًا برفقة أخويه الأكبر والأصغر سنًا منه للعيش مع والدها في قرية جنوب إيرلندا (مقاطعة كورك)، حيث أمضى خمس سنوات من صباه، كان مقربًا جدًا من والدته ومن أخواله جيمس وباتريك وغاريت، يتذكر إدموند أخواله الثلاثة بعاطفة كبيرة - وبشكل خاص غاريت، حيث وصفه بكونه: «واحدًا من أفضل الرجال، أعتقد بأنه قضى حياته بأكملها بنزاهة تامة، وهو المبدأ الحقيقي الأهم للدين والفضيلة، هو رجل يمتلك أكثر طبيعة ودية ومحبة للخير عرفتها في حياتي، أو أظن أنه الأفضل من بين الذين سأعرفهم... وإنني أعتقد حقًا بأنه الشخص الذي أتمنى أن أصبح عليه وأشابهه لأقصى درجة مُمكنة بين جميع الرجال في أي موقف وهذا ما أتمناه أيضًا لأي شخص أحبه بصدق»[١٩].

كان لمُدرسه أوهالوران في هذه القرية الإيرلندية الصغيرة، إلى جانب خاله غاريت، شخصية أبوية أيضًا، أحبه بورك كثيرًا وبقي يزوره لسنوات عديدة ليردَ له جميل عطائه، بالإضافة لذلك، عندما بلغ بورك سن الثانية عشر تقريبًا أصبح معجبًا بشدة بمُدرس آخر بمدرسة باليتور، وهو أحد أفراد جماعة بروتستانتية يدعى ابراهام شاكلتون، وقد أكد إعجابه بشاكلتون وصداقته الدائمة مع ابنه ريتشارد، التزامه بالتسامح الديني، أما بالنسبة لعلاقته مع والده، فإنها تبدو مبنية على الاحترام ولكن مع بُعد عاطفي، ليس فقط بسبب قضائه عدة سنوات بعيدًا عنه، ولكن لأنه من الواضح أن والده كان شخصًا يصعب التعامل معه، ويُوصف بأن لديه «مزاجًا مضطربًا»[٢٠]، من المعروف أن لإدموند بعض الاختلافات معه عندما كان شابًا، وخصوصًا بسبب قرار إدموند رفضه مهنة قانونية وهذا أدى إلى غضب والده وسحب دعمه له، ومع ذلك، فقد احترم والده وقال عنه: «لم يترك لي والدي شيئًا في الحياة سوى المبادئ الجيدة، والأمثلة الطيبة، التي لم أبتعد عنها»، «في الحقيقة، لم يمارس والدي المحاماة في البلاد، لكنه كان دائمًا في المحاكم العليا حيث قضى فيها العديد من السنوات، ليس فقط في المرتبة الأولى، وإنما كان الرجل الأول في مهنته فيما يتعلق بالممارسة والأمانة»[٢١].

دخل إدموند جامعة ترينيتي في دبلن عام ١٧٤٣م وأنهى دراسته عام ١٧٤٨م. كما أنه درسَ الحقوق فترة من الوقت في لندن، أنفق والده مبلغًا كبيرًا

من المال على تعليم ابنه، وبالرغم من قول إدموند: «لم يترك لي والدي شيئًا في هذه الحياة»، إلا أنه ورثَ مُمتلكات ضخمة عن أبيه، تزوج بيرك وكان زواجه سعيدًا، ورُزق مع زوجته اثنين من الأولاد توفيا في الصغر.

أصبح إدموند بيرك مفكرًا ورجل دولة بريطانيًا عظيمًا، وقد اكتسب أهمية لنظريته السياسية، ناصرَ المحافظين، وهو في الواقع غالبًا ما يُعد مُؤسس الفكر السياسي المحافظ الحديث، وتُعد كتاباته معارضةً مباشرة للراديكالية اليعقوبية التي أُعرب عنها في الثورة الفرنسية، وأهم هذه الكتابات تأملات حول الثورة في فرنسا the Reflections on the Revolution in France (١٧٩٠). كان بيرك معارضًا بشدة للمخططات والإيديولوجيات الفلسفية المُجردة. جادل بقوة من أجل موثوقية وحكمة التقاليد، ورغم أنه دعم التسامح الديني، إلا أنه كان مدافعًا كبيرًا عن أهمية الدين كمكون رئيس للتقاليد وكعائق أساسي أمام المُخططات العقلية الجامحة، أحد الانتقادات الرئيسة التي وجهها للثورة الفرنسية بأن لديه خوفًا حقيقيًا من عدائها للدين، يقول بيرك: «لسنا متحولي روسو ولسنا تلاميذ فولتير، ولم يحقق هيلفيتوس أي تقدم فينا، المُلحدون ليسوا دُعاتنا»[٢٢]، وقد قال بالمثل: «نحن نعلم، وإنه لفخر لنا أن نعلم، بأن الرجل يكون حيوانًا متدينًا بدستوره وعرفه، ذلك أن الإلحاد ليس ضد عقلنا فقط ولكن ضد غرائزنا أيضًا، وهذا لا يمكن له أن يسود مطولًا»[٢٣]، بالنسبة لبيرك فإن الإله والدين

هما قاعدتان إيجابيتان ومهمتان ليس فقط للدولة؛ بل من أجل الحياة السياسية المتحضرة بأسرها[٢٤].

موسى مندلسون (١٧٢٩م - ١٧٨٦م)[٢٥]:

كان هذا الفيلسوف اليهودي العظيم، ومُترجم الكتاب المقدس، والمفسر والباحث الأدبي موسى منديلسون، ابنًا لناسخ التوراة الفقير مناحيم مندل ديساو. أخذ موسى اللقب «منديلسون Mendelssohn» - «ابن مندل Mendel» - لنفسه عندما أصبح بالغًا وبدأ يُنظر إلى نفسه على أنه جزء من المجتمع الألماني الكبير.

تلقى موسى في البداية تعليمه بعناية في المنزل عن طريق والده، ثم عن طريق علماء يهود آخرين[٢٦]، كان مندفعًا جدًا وموهوبًا فكريًا بشكل كبير، فغادر في سن الرابعة عشرة مسقط رأسه ديساو للدراسة مع الحبر ديفيد فرانكل في برلين، وربما كان الحبر فرانكل أستاذه الرئيس، ولكنه حظي أيضًا بالعديد من الأساتذة اليهود الآخرين الذين قدموا له جنبًا إلى جنب مع والده نموذجًا فكريًا يُحتذى به، درسَ موسى في برلين أيضًا أفكار الفلاسفة الألمان مثل غوتفريد فون لايبنتز وكريستيان فون وولف وكذلك الفيلسوف الإنكليزي جون لوك.

وأصبح موسى عام ١٧٥٠م المُدرس الخصوصي لأطفال صاحب معمل حرير في برلين يدعى إسحاق برنارد، الذي قام بضم موسى لمهنته عام ١٧٥٤م.

تمتع موسى في ذلك الوقت بالفعل بسمعة ومكانة عالية لحكمته، وأُطلق عليه من قبل البعض لقب «سقراط الألماني»، صاغ غوتهولد إفرايم ليسينغ Gotthold Ephraim Lessing، الذي التقى به منديلسون عام ١٧٥٤م، بطل مسرحيته ناثان الحكيم Nathan the Wise على غرار منديلسون، كسبَ منديلسون رزقه من عمله كتاجر، في حين كان يمارس حياته الفلسفية والفكرية في وقت فراغه، تزوج عام ١٧٦٢م من شابة عادية فقيرة تُدعى فروميت غوغنهايم، وقد رزق منها بثلاثة أبناء وثلاث بنات، استحق كل واحد منهم أن يذكر بشكل موجز في الموسوعة اليهودية، أصبحَ فيليكس منديلسون أحد أحفاده مُلحنًا وموسيقارًا مشهورًا.

شكل موسى قوةً رئيسة في تحرير اليهود من القوانين العقابية الألمانية وفي اندماجهم في الحياة الثقافية الألمانية، وكان أيضًا مدافعًا فكريًا قويًا عن وجود الله وخلود الروح، وأهم كتبه على الإطلاق كتاب فيدو Phaedo أو خلود الروح on the Immortality of the Soul (١٧٦٧)، حيث تحدث فيه ضد الفلسفة المادية في عصره.

لم تُظهر علاقاته الشخصية مع والده وأساتذته وعلاقته بإيمانه الديني أي عداء أو رفض - كما يُشير بالتحديد اختياره للاسم «منديلسون Mendelssohn». رغم أنه روج لاستيعاب اليهود في الثقافة الألمانية والحياة السياسية، إلا أن ذلك

لم يكن على حساب دينهم اليهودي، كانت حياة منديلسون الدينية والفلسفية الخاصة تتمحور حول إيمانه بالإله.

ويليام بالي (١٧٤٣م - ١٨٠٥م)[٢٧]:

اشتهرَ هذا الفيلسوف الأخلاقي وعالم اللاهوت الإنجليزي الرائد بكتابه اللاهوت الطبيعي Natural theology (١٨٠٢)، فضلًا عن العديد من كتاباته الأخرى، توفي والده النائب والكاهن المُرتل الثانوي في الكنيسة الإنجليزية وصاحب مزرعة صغيرة في سن الثامنة والثمانين، عندما كان ويليام يبلغ أكثر من خمسين عامًا، أما والدته فقد توفيت عام ١٧٩٦م عندما كان في الثالثة والخمسين من عمره[٢٨]، حذا ويليام حذو والده كرجل دين في الكنيسة الإنجليزية، كما درس في البداية في مدرسة والده، ثم في أبريدين، وفي أكتوبر عام ١٧٥٦م، ركب بيلي على ظهر الحصان مع والده ليبدأ دراسته في كامبريدج، تنبأ والده بأن ابنه الأكبر ويليام سيكون رجلًا عظيمًا وعلل ذلك بقوله: «لأنه يمتلك أصفى عقل التقيته في حياتي»[٢٩]، وقد تزوج ورزق بتسعة أطفال، وذُكرَ عنه أنه كان أبًا وزوجًا مؤنسًا وحنونًا، عاش فترة أطول من جميع أولاده باستثناء ابنة واحدة وهي السيدة كارمايكل التي اهتمت به في شيخوخته[٣٠].

ويليام ويلبرفورس (١٧٥٩م - ١٨٣٣م):

كرس هذا المسيحي الإنجيلي والبرلماني الإنجليزي العظيم مُعظم حياته في إلغاء تجارة الرقيق الإنجليزية، وهي المهمة التي نجح بها إلى حد كبير، وُلد في

عائلة ويلبرفورس الثرية، العائلة العريقة في يوركشاير، وهو الابن الوحيد لروبرت ويلبرفورس، الشريك في مهنة تجارية ناجحة جدًا، كان الفتى ويليام طفلًا صغير الحجم ضعيف البنية وضعيف البصر، وعندما كبر بلغ طوله خمسة أقدام وثلاثة إنشات فقط، ولكن أكسبته حيويته وروحه الاجتماعية وطاقته موضع تقدير من الجميع، ذهب ويليام في سن السابعة لمدرسة ثانوية محلية، وتوفي والده عندما كان في التاسعة من عمره، وبعد سنة من وفاته قامت والدته بإرساله ليعيش مع عمه وعمته الأبترين، التي كانت بالنسبة له أسرة دافئة وحميمية، شهد فيها التقوى الديني للمنهاجية (الميثودية) المُبكرة، وقد وافق كاتبو سيرته الذاتية على أن هذه التجربة وضعت حجر الأساس الذي أدى لاحقًا إلى هدايته، التقى في هذه الأسرة المُتدينة جون نيوتن مؤلف النشيد الشهير «النعمة المذهلة Amazing Grace»، حيث كان نيوتن سابقًا تاجرًا للرقيق، ولكنه غير حياته عند هدايته. سمع الفتى ويلبرفورس لأول مرة بـ«مشكلة» العبودية، حين كان في سن التأثر في العاشرة أو الحادية عشر من عمره في هذا المنزل المسيحي «الحماسي»، كان ويليام مأسورًا أو مأخوذًا بخُطب ومواعظ نيوتن وقصصه، «حتى إنه يحترمه كوالده عندما كان طفلا»[٣١].

أما والدته فهي من النمط البروتستاني الذي يتصف بأنه أكثر هدوءًا ونمطية، ولم تكن متحمسه للتعصب الديني - مثل الميثودية (المنهاجية) المبكرة -

وقامت بإخراج ويليام من منزل عمه وعمته رغم كونه سعيدًا فيه للغاية، في وقت لاحق لذلك بكثير قال ويليام، «شعرت بعميق الفراق، لقد أحببتهم كوالدي، في الواقع كاد قلبي ينكسر عند فراقهم»[٣٢].

عاد إلى يوركشاير وأصبح جزءًا من المجتمع الحيوي المحيط به وبعائلته هناك، التحق بكامبريدج في سن السابعة عشرة حيث كان، على حد تعبيره، خاملًا بشكل عام، ولكنه مع ذلك برع بشكل جيدًا جدًا في دراسته، امتلك ويلبرفورس شخصية إيجابية - كان موهوبًا بشكل خاص بالغناء - وله شعبية على الرغم من قامته الصغيرة وعدم براعته في الرياضة.

شارك بعد فترة قصيرة من إنهاء دراسته في كامبريدج، بانتخابات البرلمان ولحسن حظه فقد فاز، مثل في سن الحادية والعشرين أحد أكبر المقاطعات في انكلترا، وأصبح شخصيةً سياسيةً ناجحة من خلال صداقته الحميمة مع الشاب بيت وموهبته الكبيرة الخاصة، وقد تعزز تحوله في الرؤية في منتصف العشرينيات، من خلال صداقاته المختلفة والكتب التي كان يقرؤها، كما أصبح مسيحيًا إنجيليًا مُكرسًا حياته لإنهاء تجارة الرقيق، وما لبث أن أصبح صوتًا رئيسًا لسياسة إبطال الاسترقاق.

فرانسو رينيه دو شاتوبريان (١٧٦٨م - ١٨٤٨م):

يشتهر الكاتب الفرنسي الرومانسي شاتوبريان برواياته الرومانسية، لكنه كان رغم ذلك مدافعًا عن المسيحية، قام بنشر عبقرية المسيحية The Genius of Christianity عام ١٨٠٢م، بعد فترة قصيرة من الثورة الفرنسية، دافع هذا الكتاب الذي تمتع بشعبية واسعة في ذلك الوقت، عن المسيحية عن طريق مناشدة العواطف، والأحكام الجمالية، والاعتماد على قوة الارتباط، وبالتالي فإن هذا الكتاب يتناسب مع نهجه الرومانسي العام، أكثر من النهج العقلاني.

كان شاتوبريان الأصغر من بين إخوته العشرة، الذين بقي ستة منهم فقط على قيد الحياة، وينحدرُ والده من عائلة أرستقراطية قديمة نُهبتْ ثروتها، لكنه استطاع إعادة تأسيس ثروة العائلة بطاقته وقدراته في صناعة النقل البحري، بدأ كبحار متواضع وأصبح في نهاية المطاف قبطانًا بحريًا، وبعد ذلك مالك سفينة.

كان والد شاتوبريان من معدن مختلف تمامًا عن والد باسكال: يُعد نوعًا ما رجلًا باردًا وبعيدًا، ومزاجيًا ويبدو أنه كان أكثر اهتمامًا بابنه ووريثه الأكبر مما كان عليه مع آخر أبنائه فرانسو، ومع ذلك كان نشيطًا وقويًا وحيويًا ومثيرًا للإعجاب، ولم يكن فرانسو أبدًا غريبًا عن والده أو منبوذًا من قبله، توفي عام ١٧٨٦م، عندما كان فرانسو في الثامنة عشرة من عمره وبعد عدة سنوات قال شاتوبريان عن والده: «لقد تعاملت مع والدي الذي أعتبره من أكثر الآباء الجديرين بالاحترام كما يجب، وصورته كما كان تمامًا، رجلًا شجاعًا وعبقريًا»[٣٣].

فردريك شليرماخر (١٧٦٨م - ١٨٣٤م):

كان غوتليد شليرماخر والد فردريك، قسًا إصلاحيًا وقسيسًا في الجيش الروسي (الكنيسة الإصلاحية هي البروتستانية في التقاليد الكالفينية، بدلا عن اللوثرية)[٣٤]، عُرِف والده في شبابه برجاحة العقل والتنور باللاهوت، ولكنه تعرض لتجديد تعبدي من خلال الاتصال مع البروتستانتيين الموارفيين، وقد عقد مع زوجته العزم على تنشئة أطفالهم تنشئة مورافية، انضم فردريك عام ١٧٨٣م، مع أخته وأخيه لمدرسة داخلية مورافية في نايسكي، أشار كيث كليمنتس كاتب السيرة الذاتية لشليرماخر إلى أن «فردريك لم يتمكن أبدًا من رؤية والديه بعدها؛ فقد توفيت والدته بعد عدة أسابيع من التحاقه بالمدرسة، كما مَنعت رحلات وال مع الفوج أي اتصال آخر بينهما ماعدا مراسلاتهما المُتكررة»، وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت (جماعة الإخوة الدينية) منزل أسرته الجديد «في سنوات مراهقته». لقد قضى السنوات الخمسة عشر الأولى مع والديه الحقيقيين، ثم انتقل في سن السابعة عشرة لمعهد ديني لاهوتي مورافي في باربي، «مَنحه القلب المليء بالإخلاص ليسوع، مع الحياة المشتركة للدراسة الصارمة، والعبادة الروحية والعلاقات الشخصية الوثيقة، خبرةً دينيةً أساسيةً، لم يفارقه تأثيرها أبدًا، رغم أنه كان على وشك مغادرة المورافيين»[٣٥].

عندما بدأت تراوده شكوك حول تعاليم المورافية في مراحل مراهقته المتأخرة، كتب فردريك لوالده ليشرح له ذلك، كانت النتيجة صراعًا لاهوتيًا خطيرًا بين الأب والابن: أبدى غوتليد انزعاجه البالغ إزاء موقف ابنه، الذي بدا مائلًا للفكر التنويري، لكن نجت علاقتهما من الخلاف، وعندما كان شليرماخر في الثانية والعشرين من عمره بحلول العام ١٧٩٠م، تم الوفاق بين الأب وابنه لبعض الوقت[٣٦].

أصبح شليرماخر مشهورًا كعالم لاهوت وقد أكد على أهمية التجربة الدينية بوصفها عنصرًا أساسيًا للحياة المسيحية، كان نفوذه اللاهوتي الواسع استجابةً رئيسةً لعقلانية التنوير، وهي معروفة بشكل جيد كما وردت في كتابه الشهير «عن الدين: خطابات لمحتقريه من المثقفين On Religion: Speeches to its Cultured Despisers (١٧٩٩)، من بين أعماله المهمة الأخرى: الخطوط العريضة لنقد النظرية الأخلاقية السابقة Outline of a Critique of Previous Ethical Theory (١٨٠٣) والإيمان المسيحي The Christian Faith (١٨٢١-٢).

جون هنري نيومان (١٨٠١ - ١٨٩٠)[٣٧]:

تحول هذا الشخص الإنجليزي المتدين العظيم من الإنجليكانية إلى الكاثوليكية، ثم أصبح بعد عدة سنوات كاردينالًا في الكنيسة الكاثوليكية، قدم مساهمات لاهوتية كبيرة لمناقشة الخلافات الأنجليكانية الكاثوليكية، على اعتباره شخصية محورية في حركة أكسفورد في أربعينيات القرن التاسع عشر. وربما الأمر الأهم من ذلك، أنه طور كلًا من الفهم الواضح والحاسم للحداثة والاستجابة العقلية للحداثة، على سبيل المثال، في كتابه مقالة في قواعد القبول [بحقائق الإيمان]An Essay in Aid of a Grammar of Assent (١٨٧٠). كما أنه اشتهرَ بكتابه فكرة الجامعة The Idea of a University (١٨٥٢-١٨٥٩) وبعمله الخاص بسيرته الذاتية بعنوان اعتذار عن حياتي Apologia Pro Vita Sua(١٧٦٤)، كان نيومان الابن الأكبر لجون وجميما نيومان، عملَ والده مصرفيًا، وكانت عائلته سعيدة، وعلاقة الشاب نيومان مع إخوته الأصغر سنًا وأخته منسجمة بشكل جيد، ذهب عندما بلغ من العمر سبع سنوات في العام ١٨٠٨م لمدرسة داخلية خاصة حيث كان مواظبًا وقوي الإرادة. أفلس والده في مارس عام ١٨١٦م عندما كان نيومان في سن الخامسة عشرة، كان هذا الحدث مأساة رغم أن جميع الديون قد تم دفعها، توجه والده بعدها للعمل في مصنع للجعة، ولكن الظروف العائلية بقيت صعبة، ومن المثير للاهتمام، أن

جون هنري مَرض وشهد تحولًا بعد وقت قصير من هذا الحدث في أغسطس ١٨١٦م، لم تكن التجربة بحد ذاتها شديدةً أو ذات تحول عاطفي كبير، لكن يبدو أن هذا التحول تم اكتسابه من خلال قراءة الكتب الدينية التي تركت انطباعًا عميقًا لديه، في ديسمبر ١٨١٦م، غادر نيومان برفقة والده وصديقهما رجل الدين إلى جامعة أكسفورد، بدأ دراسته في أكسفورد في يونيو ١٨١٧م، وقد كان طالبًا متفوقًا. جاء والده بينما كان في جامعة أكسفورد لأخذه لقضاء عطلة عيد الفصح، وأثناء ذلك سَمع والده الثناء على إنجازات الشاب جون هنري الأكاديمية، كان يعمل لساعات طويلة وصعبة في جامعة أكسفورد وبقي يراسل والديه بشكل مستمر، في عام ١٨٢١م، وعندما كان نيومان في العشرين من عمره، كتبَ إلى والدته يخبرها بأنهم يجب أن يكونوا شاكرين ومُمتنين لكونهم عائلة مترابطة وسعيدةً جدًا[٣٨]. انتخبَ عام ١٨٢٢م، زميلًا في كلية أوريل - وقد كانت مفاجأة وشرفًا كبيرين. توفي والده بعد ذلك بعامين عندما بلغ نيومان الثالثة والعشرين، وفي الوقت الذي كان يحتضر فيه والده، سارع نيومان للمنزل في الوقت المناسب ليكون معه حين توافيه المنية. كتب عن لقائهم النهائي: «لقد عَرفني وحاول أن يضع يده وقال: «فليباركك الله»، توفي بعدها بثلاثة أيام»[٣٩].

ألكسيس دو توكفيل (١٨٠٥م - ١٨٥٩م):

يُمكن أن يُعد اختيار ألكسيس دو توكفيل مثالًا عن الشخصية المؤمنة أمرًا مفاجئًا بعض الشيء، فقد اشتهر توكفيل بتحليلاته وتعليقاته السياسية والاجتماعية والثقافية، ويُعد كتابه الديموقراطية في أمريكا Democracy in America (١٨٣٥-١٨٤٠) عمله الأكثر شهرةً، وخصوصًا في الولايات المتحدة الأميركية، لم يُشارك مباشرةً في النقاش الفلسفي واللاهوتي عن الإيمان بالله، ومع ذلك، كان المدافع الأول عن الدين، ليس فقط باعتباره جزءًا مهمًا من حياة الأمة، ولكن لكونه جزءًا جوهريًا وضروريًا لها، كان موقفه غير عادي في الوقت الذي أصبحت فيه التفسيرات الإلحادية والتشكيكية للثقافة والمجتمع مقياسًا في أوروبا، وقد قمتُ بالاستشهاد بفقرة من أقوال توكفيل في المقدمة، أعرب فيها عن إدراكه وإعجابه بالدين كأمر جوهري في الحياة الأميركية الاجتماعية والسياسية، ومع ذلك كان موقف توكفيل الأساسي في كثير من النواحي، يحمل في جميع كتاباته صفة الإيمان؛ فقد عبر عام ١٨٣٦م في رسالة خطية إلى صديق طفولته، عن تفهمه الإيماني للعملية السياسية بقوله: «يبدو لي أنك قد فهمت الأفكار العامة التي يرتكز عليها برنامجي، أكثر ما يدهشني دائمًا في بلدي (فرنسا)، وخصوصًا في هذه السنوات الأخيرة، هو رؤية أناس يقدرون الأخلاق والدين والقانون من جهة، ومقابل ذلك آخرون يحبون الحرية والمساواة بين الناس أمام القانون

من جهة أخرى، يلفتُ ذلك نظري كأكثر مشهد استثنائي وحزين شاهدته أعين البشر؛ أنا متأكد رغم كل ما يفرقهم أنهم متحدون بشكل راسخ على مرأى من الله، إنهم مقدسون جميعًا، إذا جاز لي التعبير عن ذلك بنفسي، لأن عظمة وسعادة الإنسان في هذا العالم لا يمكن أن تنشأ إلا من اتحادهم؛ لذلك يبدو لي أن أفضل المبادرات في وقتنا هي إثبات أن هذه الأمور لا تتعارض مع بعضها بعضًا؛ وإنما على العكس من ذلك فهي مترابطة بحيث إن كل واحد منها يضعف بانفصاله عن البقية؛ هذه هي فكرتي الأساسية[٤٠].

كان ألكسيس الابن الأصغر من ثلاثة أبناء لوالدين من الطبقة الأرستقراطية الفرنسية العالية، عُرِفت عائلة توكفيل «بمسيحيتها الكاثوليكية المتجذرة عميقًا» و«بالمباهاة والنبل الأرستقراطي»[٤١]، وقد تركت الثورة الفرنسية أثرًا دائمًا في زواج والديه وحياتيهما؛ فقد أوشكا على التعرض للإعدام خلال عهد الإرهاب في الثورة الفرنسية حيث قُتِل كثير من أقاربهم وأصدقائهم، أمضى ألكسيس الصغير طفولته الباكرة مع عائلته قرب باريس وقد تلقى قدرًا كبيرًا من تعليمه على يد الخوري لوسور، الشخص نفسه الذي تولى مهمة تعليم والده قبل ذلك بجيل، كان «رئيس الدير» (لم يكن رئيسًا لدير بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما قديسًا) قد اختير من قبل جدة ألكسيس، وهي كاثوليكية متدينة جدًا؛ وبذلك لعب دور الأب والجد معًا بالنسبة لألكسيس الشاب، تلقى ألكسيس خبر وفاة

معلمه أثناء وجوده في أمريكا عام ١٨٣١م، وقد تأثر بذلك بشدة وكتب إلى أخيه إدوارد يقول: «أحببتُ صديقنا العجوز الطيب بقدر ما أحببت والدي... لن نلتقيَ أبدًا برجل ركز كل قدراته وعواطفه علينا، يبدو وكأنه قد عاش لأجلنا فقط»[٤٢]. تُظهر لنا هذه الاقتباسات بأن ألكسيس قد أحب كلًا من رجل الدين ووالده.

كانت الحياة الدينية لألكسيس دو توكفيل على ما يبدو حياةً كاثوليكيةً متدينةً في الطفولة والشباب، ثم تحول في أوائل سن الرشد إلى التوحيد المسيحي العام، وعاد إلى عقيدته الكاثوليكية في السنوات الأخيرة من حياته (توفي في منتصف الخمسينيات من عمره)، لم يكن أبدًا ملحدًا أو مُشككًا، وبقي مؤيدًا دائمًا للدين في حياته الفكرية العامة.

صموئيل ويلبرفورس (١٨٠٥م-١٨٧٣م):

كان صموئيل ويلبرفورس (الذي أصبح مطرانًا في وقت لاحق) مؤمنًا إنكليزيًا بارزًا جدًا في القرن التاسع عشر، وقد عُرف بأنه أحد المناظرين الرئيسيين في الخلاف الذي نشب في الستينيات من القرن التاسع عشر بشأن نظرية التطور الداروينية، يُعد والده، الذي تحدثنا عنه مسبقًا، شخصيةً مشهورةً أيضًا – كان فعلًا شخصيةً وطنيةً نوعًا ما، وقد كان ويلبرفورس الكبير أبًا مخلصًا ومؤديًا لواجباته رغم نشاطات حياته العامة التي تتطلب كثيرًا من الوقت، وأصبح ثلاثة من أبنائه الأربعة رجال دين و«أتقياء بشكل لافت للنظر»[٤٣].

كثيرًا ما كتب ويلبرفورس الأب رسائل طويلةً لولده الثالث الشاب صموئيل؛ لا يزال أكثر من ستمائة منها موجودةً إلى الآن[٤٤]، «جلس هذا الأب الحنون إلى طاولته وكتب باستفاضة سطرًا بعد سطر، وصفحةً تليها صفحة، عتابًا ونصحًا ومعلومات، وفوق كل ذلك حبًا - كل ذلك بأكثر الأساليب صراحةً»[٤٥]، كتب والده في إحدى المرات، عندما كان عمر صموئيل اثني عشر عامًا وكان قد غادر إلى المدرسة منذ فترة قريبة، «آمل أن يبحث حَمَلي العزيز، خلال فترة غيابه عن والده ووالدته الدنيويين، بأقصى ما يستطيع من الجدية عن الأب السماوي الذي يحرس كل من يؤمن به، والذي أعطى تشجيعًا خاصًا للأطفال ليدعوه في كل نعمة يحتاجون إليها»[٤٦]، ويقول في رسالة أخرى: «آه يا ولدي العزيز، كم أتمنى وآمل بجد بأن ينعم الله عليك بروحه القدس، سأصلي من أجلك غدًا بين الساعة الثانية والثالثة، ومرةً أخرى بين الثامنة والتاسعة»[٤٧].

خطط والده أثناء استعداد صموئيل للرحيل إلى أوكسفورد، لقضاء أسابيع كثيرة معه قبل مغادرته، وقد وصف صموئيل هذا الوقت البهيج الذي قضياه معًا على شاطئ البحر في بلدة بارموث في مذكرات ما زالت موجودةً إلى الآن.

ظل صموئيل مخلصًا لوالده ولذكراه طوال حياته، وقد قام مع أخيه روبرت بتحرير ونشر سيرة حياة والدهما في ستة مجلدات، بالإضافة إلى مُجلدين من رسائله[٤٨].

سورين كيركغارد (١٨١٣م-١٨٥٥م):

ينظر الكثير إلى هذا المفكر الديني الدنماركي العظيم على أنه مؤسس الفلسفة الوجودية، ومن أبرز أعماله: «الخوف والارتجاف Fear and Trembling» (١٨٤٣)، و«قطع فلسفية Philosophical Fragments» و«مفهوم الفزع The Concept of Dread» (١٨٤٤)، و«إما/ أو / Either Or» (١٨٤٥). ومن أعماله المسيحية الصريحة أكثر من ذلك: «المرض حتى الموت Sickness Unto Death» (١٨٤٩)، و«التدريب في المسيحية Training in Christianity» (١٨٥٠).

حظي كيركغارد باهتمام خاص على اعتبار أنه أحد الباحثين العظماء الأوائل في علم النفس في العصر الحديث - وحتى على مر الزمن. تقدم قصته مثالًا بارزًا لدعم فرضيتنا.

وُلد في كوبنهاغن وكان الابن السابع والأخير لأب مسن وزوجته الشابة. كان والد سورين تاجرًا ثريًا، تركَ له مالًا كافيًا لدرجة أنه لم يضطر للعمل أبدًا، وقد وصفه كاتب سيرة كيركغارد ميلفيل تشانينغ - بيرس، بأنه كان: «عاطفيًا وصارمًا وكثيرًا ما يشعر بالذنب ومتدينًا بشدة في هيئة تطهرية» حيث «هيمن على حياة ولده بالجذب والدفع»[٤٩].

كان سورين طفلًا كثير المرض نوعًا ما، ومفرط الحساسية وذكيا جدًا، وقد رضي بإيمان والده الصارم المفروض عليه، ورغم ذلك «تقلب خلال

تقدمه باتجاه سن الرجولة بين شعور عاطفي تبجيلي وبين امتعاض وتمرد على والده، لكن بقي تأثير والده مسيطرًا حتى النهاية وشكل قالب تدينه، تعلم سورين كيفية العيش مع وجود الله من والده: لقد عشت مع الله، بكل معنى الكلمة، كما يعيش المرء مع والده»[٥٠]، وترك المدرسة الثانوية بعمر السابعة عشرة وذهب إلى الجامعة في كوبنهاغن، معتزمًا أن يتم تعيينه كاهنًا في الكنيسة اللوثرية. وقد عاش عدة سنوات حياة طالب بارع غير متخرج لكنه جامح ومنغمس بالملذات، ألقى بنفسه في الحياة الفكرية للجامعة ونالَ سمعةً جيدةً بسبب مهارته بالنقاش ودهائه. انتهت هذه الفترة من حياته عام ١٨٣٥م عند بلوغه سن الثانية والعشرين، لقد شهد خسارة قدر كبير من إيمانه بما وصفه بالـ«الزلزال العظيم»، وصلت عدوانيته تجاه أبيه في هذا الوقت إلى ذروتها، ناتجة جزئيًا عن اعتراف والده له بإقامة علاقات جنسية مع زوجته (والدة سورين) التي كانت قريبته وتعمل خادمةً في منزله قبل زواجه بها.

دفع التأثيرُ الرئيس والمباشر لهذا الزلزال النفسي سورين ليس فقط لأن يرفض والده؛ بل الإله أيضًا، فقد أصبح عنيفًا وقاسيًا في رفضه لوالده والأمور الدينية، متخليًا عن الدين لصالح الفلسفة، وقد ازدادت حياة الإسراف التي كان يعيشها، ومع ذلك، «أقر فيما بعد، بأن التمرد على والده كان ضمنيًا تمردًا على الله»[٥١]: «من الصعب جدًا أن نؤمن لأن الطاعة صعبة جدًا»[٥٢]، بلغ تمرده ذروته عام ١٨٣٦م، لكنه تصالح مع والده بحلول عيد ميلاده الخامس والعشرين في

مايو ١٨٣٨م، الذي كان حينها عجوزًا في الثانية والثمانين، قام والده في ذلك الوقت «باستغلال الفرصة على ما يبدو، ليبوح باعتراف كامل بأخطائه وإيمانه إلى ابنه، توفي والده بعد ذلك بثلاثة أشهر، ومن الواضح أن كيركغارد اعتقد أنه بإثقال كاهله باعتراف ثمين كهذا قد ضحى بنفسه لأجل ولده، تمت المصالحة بشكل كامل؛ حيث أُعيد صياغة الرابط المُحطم بين الأب والأبن بشكل أمتن مما كان سابقًا، وإن الطاعة والامتنان الذي امتنع كيركغارد قبل ذلك عن تقديمها لوالده في حياته، قدمها له بشكل مضاعف بعد وفاته»[٥٣].

أظهر كيركغارد في مصالحته الرؤية النفسية التي اشتُهر بها: «كشفت مصالحته الأهمية الكاملة للأبوة، للأبوة الإلهية كما هي للأبوة البشرية التي هي النوع المعنوي لذلك «النمط العظيم»، وفي ضوء هذه الومضة من الفهم أمكنه القول إن الإله المسيحي حقيقي لأن والدي أخبرني بذلك»[٥٤].

البارون فريدريخ فون هيوغل (١٨٥٢م-١٩٢٥م):

اختار فريدريخ فون هيوغل، المولود في مدينة فلورنسا لأب نمساوي وأم اسكوتلندية، أن يعيش في إنكلترا وكتب أعماله فيها، قاتل والده البارون كارل، في الحروب النابوليونية، لكنه ترك الجيش عام ١٨٥٤م واستقر في مزرعته قرب فيينا، مكرسًا نفسه لدراسة التاريخ الطبيعي، وتزوج من ابنة جنرال اسكوتلندي تُدعى إليزابيث فاركهارسون، وكانت ذكية ونشيطةً ومعتنقةً الكاثوليكية، تبلغ من العمر عشرين عامًا فقط عندما تزوجت كارل، الذي كان في السادسة والخمسين.

كان فريدريخ الابن الأكبر من ثلاثة أبناء للزوجين، وتمت تربيته في المنزل - بدايةً في فلورنسا، ثم إلى إنكلترا في نهاية المطاف - حيث تلقى تعليمًا شاملًا متنوعًا على يد العديد من المعلمين الخصوصيين، ولم يحصل أبدًا على شهادة جامعية.

توفي والد فريدريخ عندما كان عمره ثمانية عشر عامًا، ثم أُصيب بعد فترة وجيزة بحالة شديدة من التيفوس، أوشك فيها على الموت وأصابته بالصمم الجزئي، في ذلك الوقت، وبينما كان في فيينا، واجه أيضًا أزمة نفسية خرج منها و«إرادته الأخلاقية وقناعاته الدينية» أقوى من ذي قبل، التقى دومينيكي هولندي، وهو الأب ريموند هوكينغ الذي ساعده كثيرًا، ولاحقًا في باريس التقى رجل الدين هوفيلين الذي وفقًا لما قاله كاتب سيرة هيوغل، موريس نيدونسيل: «أثر فيه أكثر من أي شخص آخر»[٥٥]، كان هوفيلين قائدًا دينيًا معروفًا في باريس في ذلك الحين وشخصية أبويةً واضحةً، ووفقًا لما قاله هيوغل، فقد امتلكَ: «روحًا غنيةً وعميقةً ومصقولةً، وفوق كل ذلك بطولية، أدين لها بقدر لا حصر له»[٥٦]، يقول نيدونسيل عن هوفيلين بأنه كان: «وديا بطبيعته، وتعامل مع كل شخصية باحترام؛ لم يكن قاسيًا إلا مع نفسه»[٥٧].

أفضل ما يُعرف به البارون فون هيوغل هو أعماله الكثيرة عن الجوانب الرمزية للحياة الكاثوليكية، نذكر منها: «الحياة الأبدية The Eternal Life»

(١٩١٢)، وكلًا من: «حقيقة وجود الله The Reality of God» و«الدين واللاأدرية Religion and Agnosticism» (الذان نشرا معًا بعد وفاته عام ١٩٣١).

غ. ك. تشيسترتون (١٨٧٤م-١٩٣٦م):

وُلد غلبرت كيث تشيسترتون في عائلة مرتاحة ماديًا من الطبقة المتوسطة في لندن، وصفَ أخوه الأصغر، سيسيل، طفولة غلبرت بأنها «الطفولة الأسعد في الأدب»، وقد أصبح غ. ك. مدافعًا رئيسًا عن المسيحية حتى قبل تحوله إلى المذهب الكاثوليكي، ومن أكثر أعماله تأثيرًا: «الأرثوذكسيةOrthodoxy» و«الرجل الخالد The Everlasting Man».

كان إدوارد والد تشيسترتون، معروفًا في العائلة بالاسم العاطفي «السيد» أو «السيد إد»، وصفه غ. ك. بأنه «هادئ وفكاهي وكثير الهوايات»[٥٨] ووصفته زوجة ابنه بأنه «رجل ذو مواهب كثيرة صغيرة ومحببة»[٥٩]، ورغم أن إدوارد كان رئيسًا شكليًا لشركة تشيسترتون للعقارات، إلا أنه بسبب مشكلة صحية من جهة وعدم اهتمامه بمجال الأعمال التجارية من جهة أخرى، أمضى معظم وقته في البيت مع زوجته وأولاده وفي ممارسة هواياته الكثيرة، التي تضمنت على سبيل المثال لا الحصر: «الرسم بالألوان المائية، وصنع النماذج، والتصوير الضوئي، وجمع الزجاج الملون، والنقش الشبكي، والفوانيس السحرية ووسائل إنارة العصور الوسطى»[٦٠]، وقد وُصف السيد إد شخصيًا بأنه دمث الأخلاق ذو فطرة سليمة

«ممزوجةً بالخيالية» وعلاقات راسخة وصادقة مع بقية الناس، كانت والدته شخصيةً رئيسةً في حياة تشيسترتون الصغير أيضًا، وقد امتلكت شخصيةً أقوى من شخصية زوجها في الكثير من النواحين تُعد هذه الأم بالنسبة لسيسيل - كان الصبيان مقربين من بعضهما بعضًا إلى حد بعيد - ببساطة تامة «المرأة الأذكى في لندن»[٦١].

حلت الفاجعة بالعائلة عندما كان عمر غلبرت ثلاث سنوات، حيث توفيت أخته الكبرى بياترس المحبوبة جدًا في عمر الثامنة بسبب المرض، ولم ينسَ أبدًا فاجعة فقدانها، كان الوالدان محطمين أيضًا؛ وفي الواقع، لم يستطع والد غ. ك، الذي كان بخلاف ذلك أبًا مرحًا، أن يذكر اسمها مرة أخرى.

كانت عائلة تشيسترتون مسيحيةً شكليًا، ويبدو أن الحضور الرسمي للكنيسة اقتصرَ على الحضور في كنيسة بيدفورد، حيث كان ستوبفورد بروك يقدمُ عظاته. كان بروك قد ترك الكنيسة الأنجليكانية، أما كنيسة بيدفورد فكانت تابعة للمذهب التوحيدي، لاحظ كل من ألزينا ستون ديل وجوزيف بيرس بأن والدي تشيسترتون «كانا صاحبي تفكير حر في أفضل أشكال العصر الفيكتوري، إذ قاما بتملق الشكل التوحيدي للعبادة وبذلك فقد رفضا رسميات الكنيسة الإنكليزية»[٦٢]، ووفقًا لما قاله سيسيل، فإن والديه كانا يؤمنان بـ«بأبوة الإله، وأخوة البشر، وحتمية زوال الشر، والخلاص الأخير للأرواح»[٦٣]، والخلاصة أن دينهما كان دينًا متفائلًا وبهيجًا وإنسانيًا إلى حد ما، مع التشديد على الأخلاق.

يقتبس بيرس عن صديق من طفولة تشيسترتون فيما يخص علاقة غ. ك. بأبيه، اقتباسًا مفاده أنه «لم يلقَ أبدًا رقة قلب أكثر من تلك التي يتمتع بها الأب - فضلًا عن الصفات الأصيلة الأخرى - ذلك التاجر الذي أثر شعوره تجاه الأدب وكل ما هو جميل في أولاده كثيرًا خلال طفولتهم»[٦٤]، فقد كان إدوارد تشيسترتون على وجه الخصوص كثير القراءة وأورث حبه للأدب الإنكليزي إلى غ. ك. الذي حفظ مقدارًا ضخمًا منه عن ظهر قلب: «كان السيد إد أهم شخص في طفولة غلبرت؛ لقد أصبح المرافق الاعتيادي لابنه الصغير، وتمكن من قضاء جزء كبير من وقته في المنزل لأن قلبه المريض سمح له بالتقاعد»[٦٥].

يؤكد مايكل كورين في كتابه «غلبرت، الرجل الذي كان غ. ك. تشيسترتون Gilbert: The Man Who was G. K. Chesterton» العلاقة بين الأب والابن بقوله: «كان الرجلان صديقين مقربين من بعضهما بعضًا، بالإضافة إلى كونهما أبًا وابنًا»، ويقتبس كورين من رسالة أرسلها غ. ك. إلى رونالد نوكس، كان قد كتبها قبل وفاة تشيسترتون الكبير تمامًا: «والدي بالتحديد هو أفضل رجل عرفتُه من ذاك الجيل على الإطلاق لم يفهم الحاجة الجديدة لوجود سلطة دينية؛ عاش كحياة رجال الدين نوعًا ما عندما كان مذهب العقلانية عقلانيًا»[٦٦]، وكما يكتب عن طفولته الخاصة:

أعتذر إن كان المنظر العام أو الأشخاص يبدون محترمين وحتى عقلانيين

بشكل مخيب للآمال، ومفتقرين لكل تلك الخصال البغيضة التي تجعل سيرة الحياة مشهورة كثيرًا، أعتذر على عدم امتلاكي أبًا سوداويًا ومتوحشًا أقدمهُ أمام نظر العامة على أنه السبب الرئيس لكل ميراثي المأساوي؛ ولا أمًا شاحبة الوجه وفاسدة جزئيًا ابتلتني غرائزها الانتحارية بالانجذاب نحو المزاج الفني. أعتذر عن عدم وجود أي شيء مشين ضمن نطاق عائلتنا أكثر من عم منعزل ومفلس قليلًا؛ وبأنني غير قادر على أداء واجبي كشخص عصري حقيقي، بشتم كل شخص أوصلني إلى وضعي الحالي، ليست لدي فكرة واضحة عن ماهية ذلك الوضع؛ لكنني متأكد أن معظمه ناتج عن أخطائي الشخصية، وأنا مجبر على الاعتراف بأنني أتطلع إلى ذلك المنظر العام لأيامي الأولى ببهجة يجب أن تُخصص بلا شك لـ«مدينة المستقبلي الفاضلة»[٦٧].

ألبرت شفايتزر (١٨٧٥م-١٩٦٥م):

كان ألبرت شفايتزر عالمًا لاهوتيًا مشهورًا وموسيقيًا وعازف أورغ بارزًا، كما تُعدُ كتاباته عن الاخلاق معروفةً جيدًا أيضًا، لكن أكثر ما يُعرف به بالنسبة لمعظم الناس كونه طبيبًا مبشرًا في إفريقيا الاستوائية.

كانت طفولته على ما يبدو سعيدةً جدًا، وقد كان على دراية تامة بأنه رُزق بفترة شباب سعيدة خاصة، حيث يقول: «شعرتُ حتى بأن فترة الشباب السعيدة هذه كانت ظالمةً»[٦٨]، بمعنى أنه شعر بنوع من الذنب لانتمائه الى خلفية اجتماعية وعائلة ثرية، عندما كان طفلًا كان يرفض أن يرتدي الملابس التي تميزه عن

الأطفال الآخرين الأفقر منه في مدرسته، ومن المنطقي الافتراض بأن عمله التبشيري كان في بعض جوانبه نوعًا من مشاركة حظه السعيد مع الآخرين.

عاش حياته مع والده ووالدته اللذين كرسا حياتهما لأجله على حد سواء، ليترعرع في بيت ألماني مسيحي مثقف، كان والده قسًا في كنيسة بروتستانتية وقد حظي باحترام كبير في المجتمع، بدأ والده بتعليمه عزف الموسيقا على بيانو قديم حتى قبل أن يبدأ ألبرت بالذهاب إلى المدرسة، وأعطاه عند بلوغه الثامنة من العمر نسخةً من العهد الجديد والتي قام بقراءتها بشغف، انتقل بعد ذلك بفترة وجيزة، عندما كان في الحادية عشرة أو الثانية عشرة تقريبًا، للسكن مع عمه لويس وعمته صوفي حتى يتمكن من الدراسة في الجمنازيوم (المدرسة الثانوية الألمانية) القريب في مدينة مولهاوزن، وكانت عائلة عمه متشددةً لدرجة أن ألبرت اشتاق إلى منزله: «عانيت في السنوات الأولى لي في مولهاوزن من الشوق والحنين كثيرًا للكنيسة في غانسباخ؛ لقد افتقدت مواعظ والدي والخدمات التي اعتدت عليها طيلة حياتي»[٦٩].

وقد ذكر أيضًا أن عائلته تخلصت من المشاكل المالية بفضل إرث من أحد أقارب أمه البعيدين، وكانت نتيجة ذلك أن «قشع الظلام خلال السنوات الدراسية الماضية تاركًا النور ليدخل منزلنا من جديد»، كنا جميعًا بصحة جيدة وعشنا سوية بانسجام شديد، كانت العلاقات بين الوالدين والأطفال مثالية بفضل

الفهم الحكيم والذي عاملنا به الصانع حتى في حماقاتنا... دربنا [والدانا] على الحرية... وكان والدي صديقي الأعز»[٧٠].

مارتن بوبر (١٨٧٨م-١٩٦٥م):

كان مارتن بوبر عالمًا دينيًا يهوديًا، وكان يركز على العلاقة الشخصية للمؤمن مع الإله والآخرين، وكتابه الأكثر شهرة هو أنا وأنت I and Thou .

ولد بوبر في فيينا، وعاش طفولته مع والديه في منزل يطل على نهر الدانوب، ولا شك أن الحقيقة اللطيفة لسنواته الثلاث الأولى أنها كانت مشتتة، حيث «اختفت أمه دون أن تترك أي أثر كما تحطم منزل طفولته»[٧١]، أُرسل مارتن الطفل الوحيد للعيش مع جديه من أبيه، سولومون وأيدل، واللذين كانا يعيشان في مقاطعة كبيرة قرب لفوف في غاليسيا (الأرض الملكية في أستراليا).

لم يخبره جداه ما حدث لأمه، وكان يتوقع في البداية - على ما يبدو - أن يراها في أية لحظة، وكانت لإحدى الأحداث التي حدثت بعيد وصوله لمنزل جديه أهمية خاصة: حدث ذلك قبل بلوغه الرابعة بقليل، حيث وقف ذلك الصغير على الشرفة (شرفة منزل جديه) مع فتاة تكبره بعدة سنين، وهي ابنة جيرانهم التي طلبت منها جدته الاعتناء به، اتكآ على السور وجرى حديث بينهما لم يكن يجري بينه وبين جديه، يعلق بوبر: «لا أستطيع تذكر أني تكلمت عن والدتي لشريكتي التي تكبرني»، «لكني ما أزال أسمع كيف قالت لي الفتاة الكبيرة: أمك لن تعود أبدًا». بقي عندها صامتًا ولكن لم يكن لديه أدنى شك بأنها تقول الحقيقة[٧٢].

كانت تجربة مارتن على الشرفة حاسمة في حياته، «تجربة دونها لم يكن ليكون من المفهوم بحثه الباكر عن التماسك، ولا عن تركيزه اللاحق على الحوار واللقاء مع (المخاطب الخالد)»[٧٣].

وبغض النظر عن تأثير خسارة أمه فقد كان لدى مارتن جد قوي ومحب وكان له في جدته أم بديلة قوية ومحبة، فيقول روبرت: بغض النظر عن نشاطات العمل والبحث التي كانت تغرق سولومون بوبر، فقد كان لديه وقت ليكون شيئًا مرافقًا لحفيده الموهوب، وإذا كانت جدته أيدل التي علمته الحب الحقيقي للقراءة واللغة فإن جده هو الذي - حتى بعد عودة مارتن للعيش مع والده - قدم له عالم البحث والأشياء الأكثر أهمية لمهمة الترجمة العبرية، والتي استحوذت على مارتن أثناء حياته»[٧٤].

دخل والد بوبر - الذي تزوج مرة أخرى - حياة مارتن من جديد عندما أصبح مارتن في الثامنة من عمره، فكان يذهب هذا الطفل لينضم إلى والده وزوجة والده كل صيف في مقاطعة والده، ثم وفي الرابعة عشرة من عمره انتقل من منزل جده إلى منزل والده في المدينة.

ورغم تأثير خسارة والدته في كل حياته فقد حافظ بوبر في ذلك الوقت وفي السنين اللاحقة على حب جده وجدته، وأعيد لم شمله مع والده وهو طفل.

كارل بارث (١٨٨٦م-١٩٦٨م):

كارل بارث معارض ألماني سويسري وعالم دين، عاش في النصف الأول من القرن العشرين ويشتهر - ربما - أكثر ما يكون لاكتشافه نظرية الأرثوذوكس الجديدة والتي لاقت تفاعلًا جدليًا كبيرًا ضد علم دين البروتستانت التحرري والتي ظهرت بنفس الحماسة في القرن العشرين.

كان من بين أعماله المهمة Commentary on Romans، والعقيدة Credo، وكلمة الله وكلمة البشر The Word of God and the Word of Man ومجلده ذو الاثني عشر جزءًا عقائد الكنيسةِ Church Dogmatics.

نظم بارث الفرضية جيدًا، ولد من سلالة القساوسة جيرمان ريفورميد الطويلة، وأخذ ثقافته من كلا جانبي عائلته، كان الأكبر سنًا من بين إخوته الخمسة، وكان أخوه الأصغر منه بيتر ولسنين عديدة صديقه الأول والأقرب، كما كان والد كارل جون فردريك (فريز) قسًا بارزًا، وكان الأول في بيرنا ثم في مدن عدة أخرى في سويسرا.

كان بارث مقربًا من والده الذي عينه في الكاتدرائية البروتستانتية في بيرين عام ١٩٠٨م عندما كان عمر كارل ٢٢ عامًا، كما عين والده أيضًا أحد إخوة كارل في الكاتدرائية، وقد مات فريز باث فجأة نتيجة تسمم دموي عام ١٩١٢م، عن عمر ٥٥ عامًا فقط، أسرع كارل إلى سرير موت والده مباشرة بعد صلاة يوم الأحد.

[يقتبس كاتب سيرة بارث من بارث نفسه]: «عندما قال وداعًا لأشيائه المحببة بسلام، إحدى تعليقاته الأخيرة والتي يمكننا سماعها ونطقها كما يفعل الطلاب في قاعة المحاضرات كانت: «الأمر الأساسي ليس البحث ولا حتى التعلم ولا حتى الانتقاد، إنما هو حب السيد المسيح، نحتاج إلى علاقة حية مع الإله ويجب أن نطلب من الإله ذلك»، «... كارل... قدم خطبة متنقلة في سافنويل Safenwil في الأحد التالي لموت والده، وهو يقول بوضوح إنه فقط من هذه النقطة بدأ برؤية وفهم ما كان يقوم به والده، حيث كانت لديه خلال أيامه كطالب العديد من التحفظات على نظراته للأمور[٧٥].

اتبع كارل خطا والده حتى أخذ موقعًا في إحدى المدن الصغيرة التي خدم فيها والده قبل عدة سنين.

ديتريخ بونهوفر (١٩٠٦م-١٩٤٥م):

ولد ديتريخ وأخته التوأم في عائلة ألمانية كبيرة وكان ترتيبهما السادس والسابع من بين ٨ أطفال، عاشوا في منزل كبير وسعيد في بريسلاف Breslau في ألمانيا، حيث كان والدهم أستاذًا في علم النفس والأعصاب ومديرًا لمشفى أمراض عصبية، وقد أبقت أمهم المحبة والذكية حياة العائلة منظمة وحفزت وأعطت ديتريخ تعليمه الديني بقراءة قصص الإنجيل وتزويده بالشرح الأخلاقي. كما كان لديها موهبة في الرسم وتحب الموسيقى، وينحدر والد ديتريخ من عائلة محترمة من رجال الدين والأطباء والمحامين، وقد جلب هذا الفهم المتوارث له

والدين مميزين وإخوة وأخوات موهوبين ومنزلًا تندمج فيه العادات والأصول لتكوين جو استثنائي من الحماسة الإبداعية، وفي الحقيقة أتى القليل فقط إلى هذا العالم بمثل هذا المفهوم القيادي للعائلة السعيدة، ولم يستطع أحد تصور المستقبل الذي ستنتهي به هذه الحياة»[٧٦].

استلم والده منذ عام ١٩١٢م منصب علم الأعصاب والنفس في برلين، وكان لوالده - كما لأمه - وجود رئيسي في حياة جميع أطفاله، كتبت توأم ديتريخ بعد فترة أن والدهم «أظهر احترامه للأفعال المليئة بالحنان وغير الأنانية والمنضبطة، واعتمد علينا لتجاوز الضعف»[٧٧]، وبغض النظر عن جدول أعماله المليء فقد كان والدهم يحضر جميع وجبات الطعام ويعامل جميع أطفاله باحترام وعاطفة[٧٨].

كان ديتريخ رياضيًا أشقر مفعمًا بالنشاط، وكان موسيقيًا موهوبًا لكن هذا لم يكن كافيًا ليعد محترفًا، وأظهر في عمر الرابعة عشرة اهتمامًا بعلم الدين وبالشخصيات الدينية العميقة، والتي كان لها تأثير كبير في نوعية أصدقائه في المدرسة والجامعة، إلا أن والده لم يكن مؤمنًا، إنما «إنساني لا أدري» كما كان إخوته الكبار طبيعيين شكاكين، وكان دائمًا يخوض في نقاشات ساخنة لكن دون جفاء، ومع ذلك كانت أم ديتريخ تجعل العائلة تحتفل بأيام العطل الدينية مثل عيد الميلاد وعيد الفصح وعيد العنصرة ودعمت التطور الديني المتنامي لديتريخ.

يمكننا القول عن عائلة بونهوفر إنها «تحررية» أو باختصار منفتحة ثقافيًا مهتمة بالآخرين ومتفائلة بحكومة فيمار بعد الحرب العالمية الأولى، ومعادية للفاشية، عارض ديتريخ النازية بقوة وعارض هتلر خصوصًا، وقد وجد ليكون جزءًا من حياة هتلر، ونفي بالقرب من نهاية الحرب العالمية الثانية في ربيع ١٩٤٥م. وبالرغم من موته باكرًا لكن رسائله وكتابه The Cost of Discipleship تكلفة التبعية قد اعتبرت من الكتب الكلاسيكية المسيحية، استمر احترامه لوالده المحب والعطوف حتى موت ديتريخ [٧٩].

أبراهام هيشل (١٩٠٧م-١٩٧٢م):

يشتهر إبراهيم هيشل خصوصًا بكتبه العظيمة: الإنسان ليس وحيدًا، Man is Not Alone، والأرض ملك للرب the Earth is the Lord's، ودليل الحائرين Guide for Perplexed بالإضافة إلى كتب أخرى في الفلسفة والروحانيات اليهودية.

ولد هيشل في وارسو في بولندا منحدرًا من نسل شهير من أحبار الحسيديين في أوكرانيا في مدينة ميزبخ (حيث عاش بال شيم توف - مؤسس حركة الحسيديين - السنين الأخيرة من حياته)، كان جده هيشل - وهو الذي سماه - آخر الأحبار العظماء في ميزبخ Mezbizh، ذكر كاتب سيرة هيشل صموئيل دريزنير Dresner: «أبدى (أبراهام) منذ الطفولة الباكرة توقعات عظيمة، وضعه الباحثون بعمر الرابعة أو الخامسة على طاولة واستجوبوه بسبب الأسئلة

المفاجئة والمزعجة التي يطرحها، وعندما مات والده في العقد الثاني من عمره كانوا هم الذين يرغبون في تجاوز الطفل (كأحد الأحبار) تقريبًا مباشرةً»[٨٠].

حتى قبل والده رأى أبراهام نفسه أن لديه سيدين حسيديين أساسيين أخذ منهما أنماط الحياة وكانا بالنسبة له والدين روحيين، كما قال: الشيء المذهل الأكثر قدمًا والذي يمكنني تذكره هو الارتباط مع بال شيم والذي تكشف أمثاله بعض رؤاه الأولى التي حصلت عليها عندما كنت طفلًا، لقد بقي نموذجًا رفيعًا أتبعه، وملهمًا جدًا بحيث لا أستطيع تجاهله.

وفي التاسعة من عمري عرفت الحاخام مناحيم مندل Reb Menahem Mendl من مدينة كوتز Kotzk والمعروف بـ«كوتسكر» حيث دخل حياتي، ومنذ ذلك الحين بقي بالنسبة لي رفيقًا دائمًا وتحديًا ملازمًا... وبعد عدة سنوات أدركت أنني بتبعيتي لـ«بال شيم توف وكوتسكر» سمحت لقوتين بالقيام بنزاع داخلي، إحداهما أبقت في بالي فكرة وجود جنة على الأرض في حين صدمتني الأخرى بوجود الجحيم في الأماكن المزعوم وجود الجنة فيها في عالمنا[٨١].

استطعنا رؤية ذلك منذ بداية الشباب، شعر هيشل بالتأثر بالنموذج الذكوري الذي حكم حياته، وقد رأى نفسه تقليدًا لمفكري الحسيدية العظماء، وكانت خسارة والده مخففة جدًا لوجود أساتذة الحسيدية في شبابه.

الخلاصة

بالنسبة لأي شخص يعرف تاريخ علم الدين والفلسفة الحديثة تشكل الشخصيات المعاملة في هذا الفصل قائمة تعبر جيدًا عن المدافعين عن الإيمان بالله، وما يلي قائمة المؤمنين الأساسيين من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين: بليز باسكال Blaise Pascal وجورج بيركلي Berkeley والأسقف بتلر Butler وتوماس ريد Thomas Reid وإدموند بيرك Edmund Burke وموسى ميندلسن Moses Mendelssohn ووليام بالي William Paley ووليام وصموئيل ويلبيرفورس William and Samuel Wilberforce وفرانسيكو شاتوبريان Francios Chateaubriand وفردريك شليرماخر Friedrich Schleiermacher وجون هنري نيومان John Henry Newman وأليكسيس دو توكيفيل Alexis de Tocqueville وسورين كيركيغارد Soren Kierkegaard وبارون فون هيوغل Baron von Hugel وجي. كي. شيستيرتون G. K. Chestetron وألبرت شفايتزر Albert Schweitzerومارتن بوبر Martin Buber وكارل بارث Karl Barth وديتريخ بونهوفر Dietrich Bonhoeffer وأبراهام هيشل Abraham Heschel، فقط في حالة بتلر كانت معلومات السيرة الذاتية محدودة، لكن ما عدا ذلك تعبر القائمة المستهلة عن إحدى العلاقات الإيجابية الواضحة بين

الأب وابنه، أو العلاقات الجيدة بين الابن ووالده البديل، توجد فقط حالة واحدة من الجفاء الجدي والتي كانت لدى كيركيغارد وانتهت بطريقة قدمت دعمًا مباشرًا للفرضية الحالية، حيث أدت مصالحة كيركيغارد مع والده إلى مفكر دنماركي عظيم يعبر عن فهم لكيفية تعقيد وجود الأب في العلاقة مع الإله. ونتيجة أخرى غير متوقعة يبدو أن المؤمنين على خلاف الملحدين قد تمتعوا بكثير من العلاقات الأكثر محبة ودعمًا خلال حياتهم كبالغين، ويظهر هذا الميل وفق إطار دراستنا النظري، لأن العلاقات الحميمية الإيجابية تكون أكثر صعوبة لكل من لديهم أب معيب (تأثيرات النشأة) والذين لديهم سمات توحدية مهما كانت بسيطة (تأثيرات الطبيعة، وستعمق بالأمر بعد قليل)

***

٤ - الامتدادات والمؤهلات...أدلة ومؤهلات أخرى

قدمت المجموعة الشاهدة من أصحاب النظريات البارزين في الفصل السابق على أنها تعيش في نفس الفترة الزمنية للملحدين المشهورين، كان منهم عشرة إنكليز وثلاثة فرنسيون وأربعة ألمان وثلاثة يهود ودنماركي واحد، تحدثت عن الطفولة الباكرة لهؤلاء المفكرين الواحد والعشرين المهمين جميعًا لكونهم بارزين فيها بدعمهم لفرضيتي: لا يوجد موت باكر لوالد ولا هجران من قبلهم، ولا رفض شديد من قبل الأب، لكن يوجد القليل من أشكال أخرى من سوء المعاملة الواضحة من الآباء في هذه الحالات، هذه الصورة لها تناقض واضح مع العينة الإلحادية.

بالرغم من كون حياة البشر معقدة ويجب ألا نتوقع وجود فرضية واحدة تفسر جميع الحالات المتعلقة، وعلى الرغم من كوني متفاجئًا جدًا بالعدد المرتفع من الحالات التي يمكن أن تشرحها هذه الفرضية وحدها، فإننا نحتاج الآن إلى تحديد المؤهلات والتوقعات.

***

الآباء البدلاء...

أشارت الجملة الأصلية لفرضيتي بشكل خاص إلى الأب الحقيقي للطفل، وهي الطريقة الوحيدة الواضحة لاستخدامها، ويمكن أن تؤهل الفرضية بأن يكون لدى الطفل أب بديل؛ أي شخص آخر أدى الدور الأبوي بطريقة جيدة. في مثل هذه الحالات يجب أن تنقص التنبؤات الفرضية ذات الميل الإلحادي بشكل ملحوظ أو حتى تتلاشى، ولتوضيح هذه القضية في بعض تفاصيلها يجب علينا النظر إلى حياة هاتين الشخصيتين الدينيتين المهمتين: الدون بوسكو وهيلير بيلوك Hilaire Belloc، وشخصية أدبية معاصرة هي ووكر بيرسي Walker Percy.

الدون بوسكو (١٨١٥م-١٨٨٨م):

بدأنا بالدون بوسكو، واسمه الحقيقي هو جون ملكيرو بوسكو Melchior («الدون» لقب الشرف)، ولد في قرية صغيرة شمال إيطاليا، في منطقة غير بعيدة كثيرًا عن تورين، كان أمه وأبوه من سلالة فلاحين محلية، مات والد جون الذي كان مزارعًا فقيرًا، عندما كان جون في الثانية من عمره، وكان لدى جون أخ غير شقيق أكبر منه من زواج والده السابق، كما كان لديه أخ أصغر منه، وألقي كامل عبء الاعتناء بالعائلة على أم جون المسماة مارغريت، كانت طفولة جون مرهقة جدًا جسديًا، فقد كان يسحب الماء من البئر ويقطع الحطب وينظف حظائر

البقر، وعندما صار له أخ صغير بدأ بحفر وإزالة الأعشاب والحراثة في المزارع القريبة ليساعد في دعم العائلة، أظهر جون في طفولته الباكرة هذه ذكاءً وسمة قوية وشخصية بارزة، كانت والدته تقية، وبالرغم من كونها لا تقرأ ولا تكتب فقد كانت تعرف الكثير عن تاريخ الإنجيل والعديد من الصلوات، تعلّم جون صلواته ومارسها بنشاط وتميّز بتشجيع باقي الناس على الصلاة معه، وكطفل كان جيدًا جدًا في بعض الألعاب مثل المشي على الحبل الضيق والشقلبة والمصارعة وغير ذلك، وعندما يجتمع الناس ليشاهدوه يطلب منهم الصلاة للعرض الذي سيقدمه بأن يقرؤوا معه «أبانا» أو «الترحيب بمريم»[١].

كان أنطوني (الأخ غير الشقيق لجون والأكبر منه سنًا) معاديًا له في الغالب، وبعد خسارته والده وبوجود أخيه الأكبر الحقود كان جون مرشحًا مثاليًا ليكون ملحدًا على الرغم من أمه التقية، أو أن يشكل ثورة اجتماعية أو دينية، لكننا نعرف أن العديد من الرجال المهمين دخلوا حياة جون بوسكو في طفولته الباكرة، كان أحدهم خاله والباقون كانوا قسيسين[٢].

ظهر خاله في حياته في خريف عام ١٨٢٨م عندما كان في الثالثة عشرة ليساعده على الهرب من سيطرة أنطوني وليتابع دراساته وكهنوته، تعلّم جون باكرًا كيف يقرأ على الرغم من أنه من غير الواضح كيف حدث ذلك ومن الذي علمه، وتابع دراساته تحت إشراف دون كالوسو، وهو قسيس محلي قال عنه جون فيما بعد:

«لا أحد أبدًا يمكن أن يتخيل ذلك، كان دون كالوسو بالنسبة لي ملاكًا حقيقيًا مرسلًا من الإله، لقد أحببته أكثر مما يحب الشخص أباه، دائمًا كنت أصلي لأجله وكنت مسرورًا بالقيام بكل ما أستطيع لأجله»[٣]، مات دون كالوسو- الذي يعد قسيسًا أكبر بشكل ما - عندما كان جون في الخامسة عشرة من عمره في تشرين الثاني من عام ١٨٣٠م.

أُشبعت حاجة جون الواضحة لشخصية أبوية جديدة بوجود قسيس يدعى داستانو الذي تكفل بجون الصغير وأعطاه دروسًا باللاتينية، لكن سرعان ما طور جون علاقة صداقة مع شخصية أبوية أخرى - علاقة استمرت لسنوات عديدة - قسيس يدعى دون كافاسو، كان جون يذهب إليه غالبًا للاستفادة من نصحه، دفع هذا القسيس بالتشارك مع آخرين عدة لجون تكاليف الدراسة الجامعية التي بدأ بها عام ١٨٣٥م عندما كان في العشرين من عمره.

ذهب جون بعد تعيينه للجامعة الكنسية في تولين لدراسة علوم الدين - في الفترة التي بدأ فيها عمله في الجامعة والذي بسببه أصبح مشهورًا - مع صبية صغار، كان اليتامى في تورين وما حولها نتاج الثورة الصناعية الباكرة، أي شخص قرأ Dickens «الشيطان» يعرف الحياة القاسية لمثل هؤلاء الأطفال في ذلك الوقت، روحانية جون العميقة وجمعيته الخيرية حسنة الطبع جعلتاه مفضلًا عند أولئك الصبية، وجمع المئات منهم أو أكثر من ذلك، أسس فيما بعد Salesian

مكرسًا نفسه لتلبية الاحتياجات الروحية والاجتماعية والثقافية والجسدية لهؤلاء الأطفال، أصبح هذا الفتى - الذي كان لديه آباء أساسيون مهمون في حياته الخاصة - شخصيةً أبوية لآلاف من الصبية (تحت تشجيع الدون بوسكو، تم تأسيس شكل مشابه من الراهبات أيضًا من أجل تلبية احتياجات الفتيات).

قد يسأل الشخص: كيف نجح جون الصغير بين عمر الثانية (عندما توفي والده) وعمر الثالثة عشرة (عندما قابل الشخصية الأبوية الواضحة لأول مرة)؟ كان يوجد بالطبع خاله الذي أنقذه من أنطونيو، يوجد دليل قطعي على أن قضية الأب كانت مهمة له أثناء طفولته، على سبيل المثال كانت اتصالاته الباكرة جدًا مع القسيسين مخيبة للآمال، احترمهم عن بعد، كان يحييهم لكنه يتجاوزهم دون أن ينطق بأي كلمة ودون أي إشارة، فيما بعد اشتكى منهم فقال: «اعتدت على البكاء بسبب ذلك وأخبرت أصدقائي أنني إذا أصبحت قسيسًا بأيٍّ من الأحوال فلن أتصرف مثلهم، قد أرغب بالتحدث للصبية وأقول لهم كلامًا جيدًا وأقدم لهم النصائح»[٤].

كانت لديه شخصية أبوية واحدة حتى ذلك الحين، من ناحية أخرى - وعندما كان في التاسعة من عمره - كان لديه أولى رؤاه الكثيرة التي ظهر له فيها السيد المسيح، كانت هذه الرؤى مهمة جدًا لحياته بوجود المئات منها في السجل التاريخي، أولاها كانت في هذا الوقت الباكر من حياة جون، وكانت عن كيفية

قتاله مع بعض الصبية الصغار الآخرين، ظهر له عيسى في حلم وأخبره بإيقاف القتال وأن يقنع الأولاد بالحب[٥]، كما ظهرت له العذراء في المنام وقالت له: «لم تعلم ذلك لكنك كنت تقاتل مع الذئاب، امضِ إليهم بشجاعة وسيتحولون إلى نعاج، ستكون تلك مهنتك لاحقًا»[٦]، فهم جون الصغير من هذا الحلم أنه سيصبح قسيسًا، وبسبب قداسة شخصيته وجمعيته الخيرية وباقي المؤهلات قدس جون بوسكو عام ١٩٣٤م.

هيلير بيلوك (١٨٧٠م-١٩٥٣م)[٧]:

كان هيلير بيلوك روائيًا وكاتبًا للشعر وعالم تاريخ شهيرًا وعنيدًا ورائعًا، كما كان أحد الأبطال العظماء للكاثوليك في النصف الأول من القرن العشرين، ولد لأب فرنسي رسام - لويس بيلوك - وأم إنكليزية، كانت والدة هيلير - بيسي باركيس - في الثامنة والثلاثين عندما تزوجت، وكان هذا يعد زواجًا متأخرًا في تلك الأيام، أتت بيسي من عائلة عريقة من كنيسة الموحدين Unitarians غير المتحمسين، لكن والدها كان ناشطًا في الحزب الليبرالي، وخسرت إيمانها التوحيدي حين كانت تترجم شكية ديفيد شتراوس «حياة المسيح» Life of Jesus، وتحولت إلى الكاثوليكية بعد بضع سنين، تزوجت من لويس بيلوك عام ١٨٦٧م في كنيسة كاثوليكية في لندن. كان الزوجان ثريين: امتلك والد بيسي ثلاثة منازل مدهشة ومجموعة كبيرة من الرسومات الإيطالية، وكان بيلوك مكافئًا لها جدًا وكانا سعيدين سويًا، كانا يوزعان معيشتهما خلال السنة بين شارع لا

سيلي كلود في فرنسا (على حدود باريس) وشارع ويمبل Wimpole في لندن. أول مولود لهما كان فتاة اسمها ماري ولدت عام ١٨٦٨م (كانت كاتبة شهيرة لها أكثر من ٤٠ رواية حول الجريمة)، وجاء طفلهما الثاني والأخير هيلير بيلوك بعد سنتين، في صيف عام ١٨٧٢م أنهك لويس بيلوك مرضٌ شديد ومات في آب من تلك السنة وهو في عمر ٤٢ عامًا، وكان هيلير الصغير البالغ من العمر سنتين يمسك بيد أمه في الجنازة.

وكما يشير أ. ن. ويلسون فقد «كبر هيلير بيلوك دون وجود رجال في عائلته المباشرة، كما أن جميع النساء المقربات له - أمه وجدتيه - كنّ أرامل»[٨]، خسرت بيسي في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر كمية كبيرة من ثروتها الموروثة من خلال تخمين غير محظوظ للسمسار الذي وثقت به، ومن هذه اللحظة ستمتلئ كل حياة بيلوك بالضوائق المالية.

دخل بيلوك مدرسة كاثوليكية صغيرة تدعى أوراتوري وكان مديرها هو جون هنري نيومان العظيم، وبشكل كافٍ لإثارة الاهتمام كان نيومان شخصية بعيدة جدًا بعد اهتمام بيلوك به، وبدا أن بيلوك لن يتأثر به بشدة، لم يكن أبدًا شخصية أبوية لهيلير، وفي عمر السابعة عشرة غادر بيلوك مدرسة أوراتوري.

لم تكن الشخصية الأبوية التي وجدها بيلوك أقل من هنري إدوارد مانينغ من لندن، عندما عادت بيسي إلى إنكلترا بعد جنازة لويس اتصلت مباشرة بالبطريرك

الذي كان له قبل سنين قليلة تأثير فعال في تحولها الديني وكانت تكنُّ له احترامًا كبيرًا، فهم مانينغ مصدر حزنها فقد كان مسيحيًا أنجليكانيًا ورئيس الشمامسة في الـ«تشيتشيستر» Chichester قبل تحوله إلى الكاثوليكية، وكان قد ترمّل أيضًا، كطفل صغير كانماننغ بركة لبيرك بمجرد سماعه موعظته[٩]، وفي نهاية فترة مراهقته بدأ هيلير بتأسيس علاقة مقربة مع البطريرك.

(لقد كان ذلك التقليد الذي اتبعته في الأيام الأولى في لندن، ولكوني شابًا حديث السن وقبل أن أذهب إلى أوكسفورد لألاقي البطريرك بالانتظام الذي يرغب باستقبالي؛ وأثناء هذه المقابلات الموجزة سمعت منه العديد من الأشياء التي وجدت لاحقًا العديد من المناسبات لاختبارها في حياة البشر، كنت - كما قد يقال - صغيرًا جدًا للحكم على الأشياء بعمق القداسة والحكمة؛ لكن من ناحية أخرى لدى الشباب رؤية خاصة بهم خصوصًا فيما يتعلق بالأمور العنصرية، وبدا لي مانينغ أعظم رجل إنكليزي في وقته على الإطلاق (وما زال يبدو كذلك إلى الآن)، لم يعترف بإمكانية المساومة بين المجتمع الكاثوليكي وغير الكاثوليكي، لقد وعى ضرورة النزاع وتفاخر بذلك[١٠].

كان بيلوك متأثرًا جدًا وبشكل واضح بمانينغ؛ خصوصًا أنَّه كان متفاخرًا جدًا بالكاثوليكية المقاتلة وبالنزاع.

ووكر بيرسي (١٩١٦م-١٩٩٠م)[11]:

كتب بيرسي - كما فعل صموئيل بتلر - في كل من الفلسفة والخيال، لكنه قد يكون معروفًا بشكل أكبر بسبب خياله، أصيب بالسل أثناء تدربه كطبيب في سنواته الأولى من الممارسة، وأصبح غير قادر على متابعة عمله كطبيب، كتب روايات محمودة مثل: «رواد السينما» The Moviegoer (١٩٦١) و«لانسلوت» Lancelot (١٩٧٧) و«متلازمة ثاناتوس» The Thanatos Syndrome (١٩٨٧) بالإضافة إلى أعمال غير خيالية تتعامل مع نظرية اللغة والسمات الأخرى للفلسفة والثقافة المعاصرة، مثل: «الرسالة في زجاجة» The Message in the Bottle (١٩٧٥) و«ضائع في الأكوان» Lost in the Cosmos (١٩٨٣).

فقد بيرسي والده وجَدَّه في حياته مبكرًا، حيث أطلق جده النار على نفسه عندما كان عمر بيرسي سنة واحدة فقط، ليس معروفًا ما إذا كان هذا الأمر حادثًا أم انتحارًا، كان لدى والدي ووكر - والده كان ليروي وأمه ماتي سو - طفلان آخران بالإضافة لووكر، كانت عائلة بيرسي تعد عائلة سعيدة حتى أُعلن عن إصابة والده بالاكتئاب، في ١٩٢٥م عندما كان عمر ووكر ٩ سنين أمضى والده عدة أسابيع في عيادة نفسية للاكتئاب، وفي وقت قريب من ذلك حاول الانتحار بقطع رسغيه. استمر بالمعاناة من الاكتئاب فترة، وبعد عدة سنين عندما كان ووكر وأحد إخوته

في مخيم صيفي بعيد أطلق والده النار على نفسه بمسدس ذي فوهتين في عليَّة منزل العائلة، كان عمر ووكر ١٣ عامًا في ذلك الوقت وعمر والده ٤٤ عامًا.

كانت ماتي سو بيرسي وأبناؤها عندئذٍ وحدهم، ويقول كاتب سيرة ووكر إنه بالنسبة لهم جميعهم «لن يختفي ألم الفقدان أبدًا»[١٢]، تحتوي العديد من روايات بيرسي على إشارات مرجعية عن الانتحار وانعكاسات حول فكرة «خسارة الأب».

قامت السيدة بيرسي بعيد موت زوجها بأخذ أولادها للعيش مع أقاربهم، وبعد عدة أشهر دعا ابن عم ليروي ويل والدة بيرسي وأبناءها للعيش معهم وكان ذلك عندما أتى ووكر ذو الثلاثة عشر عامًا لمقابلة ومعرفة «العم ويل» ذي الخمسة والأربعين عامًا، والذي كان - إضافة إلى كونه محاميًا - ضابط مشاة حاصلًا على أوسمة من الحرب العالمية الأولى وشاعرًا معروفًا، حُددت هذه الدعوة كنقطة تحوّل أساسية في حياة ووكر بيرسي.

قال بيرسي إنه اكتسب من هذه الصداقة مع الرجل العجوز مهنة وشخصية أخرى بالمعنى الحقيقي، وهذان - العمل والشخصية - لم أكن لأحصل عليهما سواءً للأفضل أو للأسوأ[١٣]، قال بيرسي إن العم ويل أعطاه - كما أعطى أخويه وأمه - «نظرة موضوعية كاملة للعالم بمأساوية نبيلة، كنت معجبًا بشكسبير ولكيتس Keats وبرامز Brahms وبيتهوفن»[١٤].

وعن ذلك، قدم العم ويل في الكتاب الذي نشره عام ١٩٤١م نظراته الخاصة عن العلاقات التي تبناها تطوعيًا: «مات ابن عمي المفضل ليروي LeRoy بيرسي قبل شهرين من موت الأم، وزوجته الجميلة والشجاعة Mattoe Sue Phinizyماتي سوي فينيزي ماتت بعد سنتين من موت الأب، أتى أولادهم الثلاثة ووكر وليروي وفينيز للعيش معي وتبنيتهم كأولادي، امتلأ منزلي فجأة بالشباب، وفجأة وجدت نفسي غير مستعد لمسؤولية توجيه حياة الصغار في عالم يتغير ويبدو لي أنَّه على عتبة الفوضى»[١٥].

دائمًا ما كان يشعر ووكر بأن ويل «هو الرجل الأكثر خروجًا عن العادة» الذي قابله في حياته، وعلى الرغم من عدم استخدامه لكلمة «حب» في سياقه، إلا أنه شعر بأنَّه مدين لويل بدين لا يمكنه سداده[١٦].

كانت والدة ووكر تشجّع الأطفال أحيانًا للذهاب لمدرسة الأحد المشيخية Presbyterian، لكنهم توقفوا عن الذهاب حالما توقف الضغط عليهم[١٧]، اعتبر بيرسي أنَّه لا المشيخية ولا الكنيسة الأسقفية تملكان أجوبة لأسئلته، واعتبر نفسه في شبابه غير متدين، حافظ ويل الذي صرّح في إحدى المرات عن نفسه بأنه كاثوليكي روماني، على ارتباط عاطفي قوي لذلك، لكن يبدو أنه لم يكن يمارس الطقوس.

في عام ١٩٣١م عندما كان ووكر في الخامسة عشرة من عمره ماتت أمه بسقوط السيارة التي تقودها من فوق الجسر، آمن بيرسي على ما يبدو أن موت

والدته كان انتحارًا مثل ذلك الذي حدث لوالده، بعد هذا الموت الثاني المدمر نظر ووكر وإخوته للعم ويل على أنه داعمهم الكامل الذي يقدم لهم الدعم دون أن يدخر منه شيئًا، كان ويل ولي أمر معتنيًا وحذرًا، كان يُقرئ الأولاد وينظم رحلات عطلهم وقد تبناهم رسميًا هم الثلاثة في الوقت المناسب بعد موافقتهم على ذلك[١٨].

عندما بلغ ووكر السادسة والعشرين مات العم ويل بمرض قلبي وعائي بعمر السادسة والخمسين، عندما دعا ووكر أحد إخوته ليخبره بذلك الخبر السيئ قال أخوه: «لقد شعرت بأني أعوم على الماء، لقد ذهبت المرساة، لم أرَ العم ويل يقوم بشيء أناني، لا يمكنني قول ذلك عن أي شخص آخر أعرفه»[١٩]، أهدى ووكر روايته الأولى الفائزة بجائزة The moviegoer لـ«العم ويل في الذاكرة».

تزوج ووكر بيرسي بعمر الثلاثين، وتحوّل مع زوجته Bunt بونت إلى الكاثوليكية، تبنيا ابنة ورزقا بأخرى وأصبحا جدين بمرور الوقت، كانت المعتقدات الدينية لووكر بيرسي راسخة ومعروفة جيدًا؛ كانت موجودة بوضوح في الكثير من رواياته وضمنيًا أكثر في خياله.

إذا عدنا بالنظر للملحدين المناقشين في الفصل السابق نسترجع العديد من الشخصيات الأبوية المهمة في حياتهم أيضًا، كان إيدموند بوركي مقربًا لأخواله، خصوصًا غاريت Garret ولمدير مدرسته شاكلتون Shackleton؛ أما ويليام

ويلبيرفورس Wilberforce فكان مقربًا لعمه واحترم جون نيوتن تقريبًا كأب. كان يوجد أيضًا الأب Huvelin لفون هوغل، كما وجد بوبر وأساتذة هيشل وتوكيفيل لرجل الدين ليسور.

وعلى النقيض من ذلك لم نر مثل هذه الشخصيات الأبوية في حياة هيوم Hume ونيتشه Nietzsche وراسل Russell وشوبنهاور Schopenhauer وسارتر Sartre وفرويد Freud وفيورباخ Feuerbach ومعظم الملحدين الآخرين، يمكن النظر لأساتذة فولتير Voltaire Jesuit كآباء بدلاء، وربما يكون هذا سبب محافظة فولتير على تدينه وعدم تحوله إلى ملحد حقيقي، توجد إشارة إلى إمكانية وجود أب بديل في حياة كامو، لكن ربما كان هذا هو سبب كون كامو أكثر كفرًا من الملحد المقاتل، بالمختصر يبدو أن وجود شخصية أبوية فعالة وإيجابية هو مصل مضاد قوي للإلحاد.

***

الملحدون السياسيون...

يشير امتداد ممكن للإلحاد إلى أن الأب المختل كان مؤثرًا في حياة الشخصيات السياسية، خصوصًا المعروفة بعدائيتها للدين ولا سيما المسيحية واليهودية، وهنا تلمع في ذهننا ثلاث شخصيات مباشرة: جوزيف ستالين وأدولف هتلر وماو تسي تونغ.

جوزيف ستالين (١٨٧٩م-١٩٥٣م):

ربما الملخص الأبسط لعلاقة ستالين بوالده هي الملاحظة التالية التي ذكرها صديق عرف ستالين خلال سنواته الأولى: «جعل الضرب المبرح وغير المبرر الولد قاسيًا وعديم القلب كما والده، حيث يبدو له جميع الناس ذوو السلطة مثل والده، وظهر لديه سريعًا شعور بالانتقام ضد جميع أولئك الناس الذين يقفون فوقه»[٢٠]، إضافة إلى أن والده لم يكن في المنزل، فقد كان يمضي بعض السنين يعمل بأعمال متعددة في مدن قريبة، لقد كان يسكر بشدة ويضرب زوجته (أم جوزيف) التي كان جوزيف متعلقًا بها جدًا، كان لدى هذا الأب الخشن والقاسي صعوبة بالغة في بث روح الحياة، ورغب أن يصبح ابنه إسكافيًا أو عاملًا في مصنع. عانى ستالين الصغير من صدمات طفولية أيضًا، كان على وشك الموت نتيجة إصابته بالجدري الذي ترك علامات بثور على وجهه؛ كانت يده اليسرى مصابة بضرر دائم نتيجة حادث طفولي، كان والداه فلاحين ولدا كعبيد وربما كانا أميين.

أعطت والدة جوزيف ابنها - طفلها الوحيد الناجي - عاطفتها القوية ودعمها، وعلى ما يبدو أنها أبعدت والده عن كسر روح ابنه، دفعت ابنها نحو الكهنوتية في كنيسة الأرثوذوكس، ولسنوات عدة درس ستالين القداسة، وعلى الرغم من القداسة أصبح ملحدًا كبيرًا[٢١]، كان اسم عائلة ستالين دوغفيل Djugashvili؛ ورفض لاحقًا اسمه وغيره لكلمة روسية هي «الفولاذ steel».

وكقائد سياسي اضطهد ستالين الكنيسة الأرثوذكسية خصوصًا بحماسة كبيرة، اغتال الشيوعيون الآلاف من القسيسين الأرثوذكس وغالبًا بطرق شنيعة، وبنظرة على شخصية ستالين لم يكن من الصعب فهم الجذب الكبير للشيوعية له مع رفضها الواضح للإله وكل السلطات العليا مثل القيصر.

أدولف هتلر (١٨٨٩م-١٩٤٥م):

مثل ستالين تلقّى أدولف الصغير ضربًا مبرحًا ومتكررًا من والده، وصف أوليس هتلر بـ«المستبد والأناني الذي يظهر القليل من الاهتمام بمشاعر زوجته الأصغر منه بكثير وفهمًا قليلًا لأطفاله»[٢٢]، وبأنه «رجل قاسٍ وغير متعاطف وسريع الغضب»[٢٣]، كان لدى أدولف أخ غير شقيق من زواج سابق لوالده أوليس أيضًا، والذي اشتكى بمرارة كون والده يضربه دائمًا بلا رحمة»[٢٤]، يوجد عدد من القصص الأخرى عن قساوة والد أدولف التي تضمنت الضرب الشديد لكلب العائلة وامتدت لوالدته أيضًا.

هرب أخو أدولف غير الشقيق من المنزل في الرابعة عشرة من عمره ولم يعد أبدًا خلال مدة حياة أبيه، وبدا فيما بعد أن أدولف حصل على وطأة معاداة أبيه. ذكرت أخته غير الشقيقة باولا أن أدولف «كان يحظى بضرب مبرح يوميًا»[٢٥]، من ناحية أخرى كان لوالدة أدولف كلارا ثلاثة أطفال لكنهم ماتوا بعمر صغير جدًا قبل ولادة أدولف، لذلك تدفقت العاطفة على أدولف وكان دائمًا مولعًا بذكرياته مع أمه، وعلى الرغم من أنه نادرًا ما يتكلم عن عائلته فمن الواضح أنه لم ينسجم مع أبيه.

عندما مات أبوه كان في الرابعة عشرة، ومنذ ذلك الوقت لم يكن لديه شخصية أبوية على الإطلاق، أمه مثل أم ستالين دفعت به نحو الكنيسة، ولعدة سنين تماشى مع ذلك، لكنه في عمر البلوغ غدا ثوريًا بوضوح، ومنذ ذلك الوقت لم يكن لديه أي شيء جيد ليقوله عن المسيحية، موقفه تجاه اليهودية بالطبع معروف جيدًا. وعلى الرغم من هذا حافظ على الاعتدال أو الإيمان بالله.

تأثر هتلر بعمق بفيلسوفين ملحدين هما نيتشه وشوبنهاور، وقد يقتبس منهما، وغالبًا يكون مشيرًا للأخير[٢٦]، من ناحية أخرى كان مثل جميع السياسيين مهتمًا جدًا بالقوة، وكان اهتمامه الأساسي بهذين الفيلسوفين نتيجة تركيزه الأساسي على إرادة الإنسان، نتجت معاداته الشديدة للمسيحية من أصله اليهودي وقوته الاجتماعية، وأود أن أحاجّ بأنها نتجت عن تصوره للإله كأب.

ماو تسي تونغ (١٨٩٣م-١٩٧٦م):

لم يكن لدى ماو أي عداوة للمسيحية أو لفكرة الإله الأب، إذ كان هذان غائبين عن تربيته الصينية، لكن كانت دعوة ماو للثورية والفلسفة الإلحادية قوية بسبب علاقته مع والده، يوصف والد ماو بأنه مستبد أسري، ومنذ طفولة ماو الصغير شارك مع أمه وباقي أفراد الأسرة في التمردات الضمنية، لقد كره والده بوضوح وتعلم لأول مرة تقدير الثورة والتمرد في طبيعة حياة منزله.

لا تزود الإلحادية السياسية الأنواع الحادة للإلحاد بأمثلة واضحة لفرضيات الأب المختل، إذ كما ذكر فإن معظم السياسيين يركزون بشكل أساسي على الحصول على القوة بدلًا من رفض الإله بطريقة فكرية، وما نزال نفتقد وجود سبب لرؤية علاقة فرضية الأب المعيب بنداء العنف الإلحادي في حياتهم.

***

الأب الملحد كتأثير إيجابي...

يوجد مصدر واضح آخر للإلحاد، وهو عندما يعلّمه الأبُ طفلَه الذي يُكِنُّ له الاحترام والحب، ربما الحالة الأكثر شهرة من هذا النمط هي حالة جيمس ميل (١٧٧٣م-١٨٣٦م) وجون ستيوارت ميل (١٨٠٦م-١٨٧٣م)، فجيمس ميل، على الرغم من كونه فيلسوفًا وتاريخيًا ورجل اقتصاد لما له من بعض الأهمية، لكنه يشتهر أكثر بكونه أبًا لابنه جون، درس جيمس الشاب الصغير الفلسفة واللاهوت وحصل على شهادة بالوعظ، ثم أصبح ملحدًا تبعًا لابنه لأنه آمن بوجود الكثير من الشر في العالم بما لا يفسر معتقد نهائية الخير عند الله.

كان جيمس المعلم المكرس لابنه، تلقّى جون ستيوارت تقريبًا كامل تعليمه في البيت من قبل أبيه الذي زوده كرجل تاريخ بالفلسفة حيث وضعها فيه كـ«أحد أكثر الثقافات الهائلة في التاريخ»[٢٧]، بدأ جون بتعلم اليونانية في الثالثة من عمره واللاتينية في الثامنة من عمره، وفي سن الرابعة عشرة كان قد قرأ معظم الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية وتوسع بقراءة التاريخ ودرس الرياضيات والمنطق بكثافة، اعتنق جون ستيوارت في فصل تعليمه الراديكالية الفلسفية من والده ومن شريك والده جيرمي بنتام، وبعد سنوات استنتج أن تعليمه كان مرتكزًا بشكل كبير على التفكير التحليلي على حساب حياته العاطفية، وكان الشعر والأدبيات منفية من تعليمه، وبالرغم من ذلك فقد حقق جون ستيوارت خلال

حياته الكثير في المدارس العامة للتفكير الفلسفي والاجتماعي التي قدمها والده.

مما يثير الفضول أن الكتابات المنشورة مؤخرًا لجون ستيوارت عن الدين تظهر رفضًا أقل شدة للإله مما كان مفترضًا أثناء حياته، وفي آخر ما كتبه ثلاثة مقالات عن الدين Three essays on religion (١٨٧٤) قام ببعض التنازلات المهمة في الجدالات والأدلة للنظرة المتسامية للدين.

لدينا في هذا الثنائي المشهور من الأب والابن دليل على التأثير القوي للتعليم المباشر للإلحاد مدموجًا بتميز الابن مع والده، هذه الاستمرارية في الجيل هي جزء من أي تربية طبيعية، وحدثت في حالة «ميل» بنفس الطريقة كما ينقل الأب معتقده بالإله إلى أولاده، لم يكن بذلك إلحاد جون ستيوارت ميل نتيجةً لصدمات نفسية ذات تأثير من أبٍ مختل.

بغض النظر عن ذلك من الممكن أن يكون تعليم الوالد الجيد ابنه الإلحاد ولو بشكل غير مقصود مثالًا للعلاقة الخيِّرة بين الأب والإله، وهكذا يمكننا أن نتوقع أنَّه غالبًا ما يميل أطفال الآباء الملحدين الجيدين نحو الإلحاد أو يتحولون إليه، لكن نقاشنا يرتكز على الملحدين ذوي الآباء السيئين الذين يظهرون نفس الحركة كرد فعل.

***

الرجال والنساء: بعض الاختلافات...

كما ذكرت في المقدمة، توجد أسباب لنعتقد بوجود اختلافات للأسباب النفسية غالبًا بين الرجال والنساء في رفضهم للإله، حتى الآن فإن جميع الملحدين البارزين الذين ناقشناهم كانوا رجالًا، الاستثناء الوحيد كان مادلين موراي أوهاير Madalyn Murray O'Hair؛ لكن إلحادها الحاد يتبع النمط النموذجي للرجال، وسوف أطرح هذا الاختلاف المفترض بين الرجال والنساء قبل الانتقال إلى الاستدلال عليه.

رغم أنَّه من المرجح أن يكون الأصل النفسي الأساسي للإلحاد الحاد نفسه عند كلا الجنسين (الأب المعيب) إلَّا أنَّ استجابة الطرفين بعد نقطة رفضهم إله اليهودية أو المسيحية مختلفة تمامًا، فبالنسبة للرجال يبدو الإله أنه يعمل بشكل أساسي كمبدأ للعدالة وينظم أمور العالم - وفي حالات ثانوية كإله تكون للمعبود علاقة معه، بمعنى آخر يبدو أن الحكم والسيطرة الإلهية هما السمتان الأساسيتان للإله بالنسبة للرجال، أما بالنسبة للنساء فعلى النقيض من ذلك تكون علاقتهن مع الإله هي الأساس، في حين أنَّ الإله كمبدأ للعدالة والتنظيم على الرغم من أهميتها تظهر كأمر ثانوي.

قد نتوقع بذلك أنَّ الرجال الذين أصبحوا ملحدين سيجدون مبدءًا جديدًا مطلقًا يمكن من خلاله تنظيم العالم، وبذلك يمكننا توقّع أن الملحدين الرجال

ليكونوا ملحدين بوضوح تام وليكون لديهم «لاهوت» جديد يأخذ المكان الثقافي للإله، وكنتيجة لذلك يجب أن يكون الملحدون الرجال مؤمنين بشدة بمثل تلك المبادئ كالسببية أو التقدم أو الإنسانية أو الشيوعية أو الوجودية، وهذا ما نراه في حياة الملحدين، كانت ابنة Bertrand Russell برتراند راسل واعية تمامًا لبحثها عن الحقيقة في الرياضيات كبديل ديني للإله، يلتمس الملحدون الثوريون الفرنسيون (أو أحيانًا الشكاكون الجادون) بديلًا مشابهًا عن الإله في تقديس السببية: حتى أنهم وضعوا تمثال امرأة في كاتدرائية نوتردام في باريس ممثلة آلهة السببية، ويُعرف العديد من الملحدين اليوم كمؤمنين بالعلم: يعاملون العلم كرؤية كونية أو كفلسفة شخصية، ليس فقط كعلم ديني مهم أو كنمط معرفي. ويشتهر الماركسيون والشيوعيون بتفسير عقيدتهم كنظام شمولي، ويناصرونه بتعصب، وتضطهد كثير من عقائد «غير المؤمنين به» بطريقة تبدو معها محاكم التفتيش لطيفة.

في حالة النساء يُملأ الفراغ الناتج عن العلاقة اللاهوتية بعلاقات أخرى، تبحث المرأة التي ترفض الإله عن علاقات بديلة بنوع من الحماسة، على سبيل المثال رفضت العديد من المؤمنات بالنسوية المتطرفة المعاصرات فكرة الإله رفضًا قاطعًا، مفسرات إله اليهودية والمسيحية بأنه «أبوي»، ويعنون بذلك أن العلاقة مع الإله مفسرة على أنها مستبدة بالنسبة للنساء، ولذلك فهي غير مقبولة.

هن لا يرفضن فكرة الإله بحد ذاتها أكثر من كون الإله له علاقة خاصة بالرجال، ويرغبن بإعادة تعريف هذه العلاقة، وكنتيجة لذلك يجب أن يعرض إلحادهن الجديد - في هذه الحالة المساواة بين الجنسين - علاقات مهمة جديدة لتأخذ مكان الإله الأب، تعرف المساواة بين الجنسين جيدًا بإعادة تعريفها للإله كأنثى: الإلهة أو الإله الأم، مثل هؤلاء النساء لسن ملحدات بشدة بالمعنى الشديد للكلمة بتغييرهن للنوع الأرقى والأكثر رفعة من العلاقات.

علاوة على ذلك يجب أن نتوقع أن النساء في تطويرهن لبديل ديني للإله على أنه رجل كأب يركزن على العلاقات النسائية في هذا العالم أيضًا، يمكن أن ينظر إلى السحاق - الذي شاع بين المؤمنات بالنسوية المتطرفة، والمنتسبات لـ«الأختية» - كتدفق فلسفي من رفض القداسة الأبوية، التعبير في هذه الكلمة - في العالم الشخصي الأفقي - للموقف الذي تبنته المؤمنات بمساواة الجنسين بالنظر للبعد العمودي للإيمان بأمومية الآلهة.

وعلى الرغم من أنَّ بعض أنواع «الفضائح» الدينية من المرجح أكثر أن تهين الرجال وغيرهم (أي النساء أيضًا)، لكن يمكننا توقع أن النساء ستقابل بسوء معاملة شخصية أو خيانة أو هجران من الشخصيات الدينية الذكورية. (من آبائهن إلى مدرسيهن والقسيسين والكهنة والأحبار) وستكون مزعجة أكثر بكثير بالمتوسط مما يمكن أن يقابله الرجال، وعلى النقيض من ذلك فقد ينزعج

الرجال أكثر من الآباء الضعفاء أو الذين ليس لديهم مبادئ من النفاق الديني أو الكنيسي، وهكذا يجب أن تكون الخلافات الدينية - والحديث نسبي - من اهتمام الذكور أكثر، في حين يكون للخلافات على سياسات الكنيسة تأثير أقوى في النساء بما أنها تؤثر في الحياة بشكل مباشر، نفترض أن مثل هذه الاختلافات مع وجود ضعف إلمام بعلوم الدين من المرجح أن تسبب الإلحاد عند الرجال أكثر من النساء.

إنَّ التميز بين الاهتمام الأعظم للرجال بالإله «كمبدأ» والاهتمام الأعظم الأنثوي بالإله «كعلاقة» يتسق مع طرح كارول غيليغان Carol Gilligan المعروف جيدًا على اختلافات التفكير الأخلاقي بين الرجال والنساء[٢٨]، حيث زودت بدليل مقبول على أنَّ النساء يملن غالبًا إلى التركيز على العواقب الشخصية للمشكلة الأخلاقية في حين يميل الذكور أكثر للتركيز على المبادئ المجردة المتضمنة في المعضلة، ترى النساء المحافظة على علاقات مُرضية كاهتمام أساسي ويركزن على التسامح، في حين يكون الرجال أكثر اهتمامًا بنزاهة الأفكار المجردة مثل العدالة، افترضت مناصرات أخريات للنسوية المتطرفة بالتوافق مع غيليغان أن العلاقات تشكل جزءًا أكثر أهميَة في الهوية النفسية للإناث منه لهوية الذكور[٢٩].

يُظهر تركيز النساء على العلاقات نفسه باكرًا في حياتهن؛ فبالمقارنة مع الذكور تهتم الرضيعات باكرًا وبشكل أكثر موثوقية بالوجه البشري؛ فيخفف

عنهن أكثر بالكلمات والأغاني؛ يتكلمن أبكر ويعرن اهتمامًا أكثر للأشخاص بدلًا من الأشياء؛ وهن أكثر وعيًا للتفاعل العاطفي، حتى أنَّ الرضيعات بعمر يومين أو أربع يحافظن على تواصل بالعينين مع البالغين أكثر مما يفعله الصبية الرضع، تصب هذه الانحيازات في مصلحة التحميل الشخصي خلال الحياة. تظهر الفتيات تعاطفًا أكثر مع الشدة التي يلاقيها الآخرون مقارنة بالصبية، حُدد مثل هذا التعاطف كمكون مركزي في تطوير السلوك الأخلاقي[٣٠].

اهتمامنا بالاختلافات الذكورية والأنثوية ليس للدلالة على أن جميع الرجال أو جميع النساء ملائمون أو ملائمات للنموذج المقترح، ومن البيّن أن كلا سمتي الإله - طبيعة مبادئه وشخصيته - مهمة لدرجة ما لكلا الجنسين، أود أن أخمّن أن التقسيم السابق المقترح يميز بشكل كافٍ ٦٠-٧٠ بالمئة من كل جنس، ومن هنا يبقى كثير من الرجال والنساء يتلاءمون أكثر مع النموذج من الجنس المعاكس.

نتوجه الآن للنظر لدليل في حياة المناصرات للنسوية المتطرفة المعاصرات واللواتي يتحملن النقاش السابق:

سايمون دو بوفوار (١٩٠٨م-١٩٨٦م):

سايمون دو بوفوار هي بحق إحدى أكثر النساء المشهورات ثقافيًا في القرن العشرين، كانت امرأة الأدب وتابعة لجان بول سارتر Jean-Paul Sartre ومفكرة نسوية متطرفة بالنسبة لشخصيتها، كتابها الجنس الآخر The second

Sex (١٩٤٨) هو أطروحة نسوية كانت متقدمة لعقود في الحركة الأساسية للمطالبة بمساواة الجنسين في أواخر ستينيات القرن الماضي، كانت بوفوار تُعرف بأنَّها ملحدة، كان الإلحاد الحاد افتراضًا أساسيًا لوجودية سارتر، لكن إلحادها تعمق بسبب الفلسفة السياسية الماركسية، التي كانت واضحة في الحياة الثقافية الفرنسية في ذلك الوقت إضافة إلى مشاركات كل من سارتر وبوفوار.

من ناحية أخرى لم تكن سايمون ملحدة طيلة حياتها، ولدت في عائلة من البرجوازيين الراقين، وكانت الكبرى بين ابنتين[٣١]، كافحت العائلة ماديًا لأنها افتقرت كثيرًا بمرور السنين، والدها محامٍ، وبسبب رجل في البلدة، كان شكاكًا غير مؤمن تمامًا، كانت أم سايمون أكثر من أثّر فيها طفلة وبالغة. كانت مؤمنة جدًا بالكاثوليكية التي علمتها لكلتا ابنتيها في كامل الطريقة الكاثوليكية الأرثوذكسية، وصفت سايمون في مذكراتها بنت مطيعة Memoirs of a Dutiful Daughter نفسها في تلك الفترة من حياتها بقولها: «لقد كنت تقية جدًا؛ كنت أجهر بالإيمان مرتين شهريًا للخوري مارتن Abbe Martin وكنت أتلقى القربان المقدس ثلاث مرات أسبوعيًا وفي كل صباح أقرأ فصلًا من تقليد المسيح The Imitation of Christ؛ وكنت أتسلل بين الحصص إلى مصلى المدرسة ورأسي بين يدي وأقوم بصلوات طويلة؛ وغالبًا ما أفعل ذلك في درسٍ من النهار، كنت أترك روحي للخالق... لقد

كنت أمجد السيد المسيح بشكل جنوني، وبالإضافة إلى قراءتي من الإنجيل كنت أقرأ روايات مختلفة كان فيها هو البطل، وكانت له عينا محبٍ أحدق في وجهه المتجهم الحنون والوسيم... كم من المريح معرفة أنه كان موجودًا!»[٣٢].

اعتبرت نفسها راهبة كرملية وبدا أنها مأخوذة بالفهم الرومانسي للقداسة الكاثوليكية.

كانت أم سايمون تشرف عليها بحرصٍ كبير، حيث كان من الواضح أنَّها الشخص الأكثر تحكمًا مع احترامها لحياتي ابنتيها، حضرت السيدة دو بوفوار Madame de Beauvoir بعض صفوف ابنتيها حتى قاربت سايمون العاشرة، وكانت تفتح وتقرأ بريدها حتى بلغت الثامنة عشرة.

وعلى النقيض من ذلك كان أبوها - مثل كثير من الآباء في ذلك الزمن - أقل تدخلًا بشكل مأساوي في حياة ابنتيه، لكن كان له وجود مهم بالنسبة لسايمون التي كانت واعية تمامًا لموقف والدها تجاه الدين: «لم يكن أبي مؤمنًا؛ شارك الكتاب الكبار والمفكرين شكوكه؛ كانت النساء عمومًا هن اللواتي يذهبن للكنيسة؛ بدأت بالشعور بكثير من التناقض والانزعاج من حقيقة وجوب امتيازهم، حيث كان الرجال مع كل الشكوك الممكنة هم المتفوقين»[٣٣]، لاحقًا - وبعمر المراهقة - فقدت سايمون إيمانها وأصبحت شكوكية أو ملحدة: «مهدت شكوكية أبي الطريق لي؛ لم أكن لأتخطى تلك المغامرة الخطرة وحدي، شعرت براحة كبيرة في تحرر نفسي من القيود على جنسي وقيود طفولتي»[٣٤].

لم تظهر سايمون خسارتها للإيمان لأي من والديها في ذلك الوقت، ربما لم تفاجأ أنَّه بعد مدة قصيرة اكتشفت الموت، بأهميته العظمى ومعناه المزعج، كما أنها اكتشفت الوحدة: «الإله لن يعود معي بعد الآن، كان هذا الإحساس بالوحدة مخففًا لبضعة سنين بسبب الطبيعة العاطفية القوية للعبادة والشعور بالاتحاد مع العالم الطبيعي وجماله».

كان عمر سايمون قرابة العشرين عندما قابلت سارتر Sartre، كان كلاهما طالبًا في باريس (كان سارتر أكبر منها بثلاث سنين)، درس كلاهما الفلسفة. وخلال وقت قصير كرست سايمون نفسها تمامًا لسارتر، قالت في كتابها «مقتبل العمر» The Prime of Life (الجزء الثاني من سيرتها الذاتية): «كانت ثقتي به كاملةً تمامًا حيث إنه دعمني بنوع من الأمان التام الذي لا يخيب، والذي شعرت به يومًا ما من والديَّ، أو من الإله»[٣٥]، استمر تكريس سايمون وولاؤها لجان بول Jean-Paul طيلة حياتها - على الرغم من خيبات الأمل غير العادية في علاقتهما والتدخل الكبير لكل منهما في حياة الآخر (خصوصًا سارتر)، ظهرت سايمون خلال حياتها وعلى الرغم من شؤونها الخاصة - بعض علاقاتها سحاقية - على أنها زوجة بالولاء لسارتر وللأفكار التي يعتنقها.

كيف يمكننا تفسير ولائها الكبير وغير المتزعزع لسارتر؟ تسأل إحدى النسويات توري موي Tori Moi بوضوح في بداية كتابتها السيرة الذاتية لبوفوار:

«لماذا حجَّمت كل الفرص بإعلان نفسها متخلفة ثقافيًا عن سارتر؟»[٣٦] الجواب لكلا السؤالين هو أن سارتر أصبح إلهها.

من الواضح أنها لم تصبح ملحدة بسبب والد مختل، في الواقع مهد لها والدها الطريق لتصبح ملحدة، وبذلك لا تتعلق حالتها بفهمنا لأصل الإلحاد، لكن يمكن أن تضرب كمثال مباشر عن اختلاف تعبير الإلحاد بين الرجال والنساء بعد رفض فكرة الإله، استبدلت سايمون علاقتها مع جان بول بعلاقتها مع الإله، حافظت على نوع من الولاء المؤكد لهذه العلاقة التي تعود لأصل حياتها الفكرية، وعلى النقيض من ذلك وضع سارتر مبدأ واضحًا للإلحاد في قلب فلسفته، وبغض النظر عن باقي علاقاته إلا أن أكثر ما يشتهر به قوله: «الجحيم هي الناس الآخرون»؛ وكان جواب سايمون المتهكم الواضح: «الجنة هي الشخص الآخر».

آين راند (١٩٠٥م-١٩٨٢م):

ولدت في روسيا من عائلة يهودية ثرية دمرتها غالبًا الثورة الروسية، هاجرت راند مع عائلتها إلى الولايات المتحدة في عشرينيات القرن الماضي، ومنذ ذلك الحين بدأت مهنتها كروائية وفيلسوفة، وأكثر ما حقق شهرتها رواياتها الفلسفية: «المنشأ» The Fountainhead و«الأطلس المستهجن» Atlas Shrugged لكنها كتبت أيضًا أعمالًا في الفلسفة الموضوعية.

كان أبوها وأمها مماثلين لوالدي سايمون دو بوفوار، أم آين – وبالرغم من ضعف تقواها مقارنة بأم سايمون – كانت أكثر تدينًا من زوجها، كانت يهودية

الأم ظاهرة في العاطفة الاجتماعية وأسلوبها التقليدي، في حين أن أباها - الذي عرفت به آين جدًا - على الرغم من يهوديته كان شكوكيًا، لم تحب آين منذ طفولتها أمها أبدًا ورفضت قيمها واهتماماتها الاجتماعية[٣٧]، وصفت كاتبة سيرتها بربارة براندن Barbara Branden اكتشاف آين لحياة أبيها الثقافية وعلاقتها معه، عندما كانت العائلة لا تزال في روسيا حضرت آين (التي كانت تعرف حينها بـ«أليس») مع والدها محاضرة سياسية: «كانت المحاضرة مثيرة للاهتمام لكن النقاش مع والدها بعد ذلك كان أروع»[٣٨]، تعلمت [آين] ولأول مرة في حياتها مدى التعاطف الثقافي في عالم السياسة... ولأول مرة تكلم والدها معها كبالغة، كان يأخذ أفكارها بجدية... ووصلت إلى قمة سعادتها، كانت تتلقى تأييد وموافقة أبيها... فكانت تلك المرة الأولى في خمس عشرة سنة من حياتها التي أحبت»[٣٩].

في الحقيقة كان لدى آين حب أسبق لبطل خيالي، في صيف عام ١٩١٤م عندما كانت في التاسعة من العمر «قرأت قصة اعتبرتها نقطة تحول حاسمة في حياتها في وقتها وبعد ذلك»[٤٠]، كانت القصة «الوادي الغامض The Mysterious Valley» تدور حول ضباط إنكليز في الهند دخلوا في صراع شديد مع الأمير الحاكم الشرير، وحتى بعد سنين وصفت آين بطل القصة سيروس Cyrus: «كان سيروس شخصية ملهمةً، مثالًا راسخًا لما يجب أن يكون عليه الشخص وما يجب أن يكون عليه الرجل، لقد كان رجل الحدث

وكان واثقًا بنفسه بشكل كامل، ولا أحد يقف في طريقه... ساعدها على الثبات على ما يسمى بـ(نوعي المفضل من الرجال)... المتسم بالذكاء والاستقلالية والشجاعة، إنَّه الرجل البطولي»[٤١].

ناقشت براندن بشكل أكبر أهمية سيروس لآين بأنه كان نموذج أبطالها الخياليين: هاوارد رورك Howard Roark في المنشأ The fountainhead، وجان غالت John Galt وهانك ريردون Hank Reardon في الأطلس المستهجن Atlas Shrugged، لخصت براندن أهمية بطل الطفولة هذا لعمل راند بـ: «لم تكن روعة القصص في رواياتها، ولم يكن أسلوبها الأدبي، ولم تكن الأحداث هي أكثر ما جلب لها الشهرة التي كانت ستصل إليها؛ لقد كان تصوير قدرة الإنسان... لقد كان سيروس»[٤٢].

على الرغم من روعتها وطاقتها لقبت آين نفسها بـ«المعاندة للنسوية»[٤٣]. بالنسبة لها كان الذي يمثل النوعية المحترمة للصراع والقوة والغاية رجلًا وليس امرأة، كانت تلك صفات ذكورية بحق، وعرفت آين النسوية المتطرفة على أنها «عبادة البطل» ووصفت نفسها بعيدًا في العصور القديمة، كـ«عابدة البطل»[٤٤].

نرى عند آين - كما عند سايمون دو بوفوار - علاقة مثالية تأخذ مكانها مع الإله، ومن الواضح أن آين راند كانت في كل النواحي المهمة في كل حياتها تعبد رجلها المثالي سيروس - في الحقيقة كانت تُسعد بتلك العلاقة، كما آمنت راند

بقوة بمبادئ معينة، لكن كان من الواضح أن حبها لتلك المبادئ منذ البداية نابعٌ من تجسيدها في بطلها.

جيل جوستون (١٩٢٩م-٢٠١٠م):

ولدت جيل جوستون (وهي نسوية متطرفة بارزة) في إنكلترا حيث عاشت هناك مع أمها الأمريكية لعدة سنين قبل أن تنتقل إلى جزيرة لونغ آيلاند Long Island في نيويورك، قيل لها إن والدها مات وترعرعت طفلةً وحيدةً مع أمها وجدتها لأمها، لم تكن توجد شخصيات ذكورية في المنزل، كانت مقربة من أمها لكنها كانت أيضًا تشبه الفتاة المسترجلة tomboy، تخرجت عام ١٩٤٧م من أكاديمية ماري St. Mary›s Academy في بيكسكيل Peekskill في نيويورك وهي مدرسة خاصة صغيرة أنغليكانية.

وعندما كانت في الجامعة في بوستن علمت - لحيرتها -أنَّ أباها مات مؤخرًا، بمعنى آخر أنَّ والدها كان طيلة تلك الفترة على قيد الحياة ويعيش في إنكلترا؛ لم تكن أمها أرملة على الإطلاق، ولكونها كانت في صغرها في إنكلترا كان من الممكن بالطبع أن تعرف أباها، ليست المشكلة فقط ما قامت به أمها لكن أيضًا كيف لم يتصل أبوها بها أبدًا.

استمرت الأمور المفاجئة حول العلاقة بين أم جيل وأبيها، وجدت أن والديها لم يتزوجا أساسًا، وأمها كانت تبقي ذلك سرًا، وأثناء مشاحنة مع أمها دعت أمَّها بالعاهرة ودعتها أمُّها باللقيطة.

لها كتاب هو: «السيرة الذاتية في البحث عن أب: تجاوز الأم» Autobiography in Search of a Father: Mother Bound وهو كتاب فيه كثير من الإشارات المرجعية لتأثير غياب أبيها، والمعنى المتشابك والحاد لأمها بالنسبة لجيل، أنهت جوستون هذا الكتاب بالقول إنَّها أتت «إلى العالم بمقولة fille de pere inconnu [ابنة أب غير معروف]»، ذهبت خارج البلاد لتكتشف ما يمكنها معرفته عن أبيها، وبالنسبة لها ادَّعت أنَّه «فقط أبناء الآباء يمكنهم الاستمرار في عالم يحكمه الآباء»[٤٥].

اعتنقت جوستون ما يمكن أن يدعى مكانة دينية نسوية تقليدية، وهو في مجتمع السحاق تعبير واحتفالٌ بتزاوج شبكة سحاقية نسوية، لاحظت أنَّ «الدين بجميع أشكاله هو السلطة الأخرى بيد الأجهزة الشرعية للحكومات - المحافظة على التوجه الأبوي - على المجتمع، وبذلك يمكنهم متابعة قمع النساء باستئنافات مختلفة بـ«طبيعتنا الأعلى» وهي عبارة عن استحضار الكلمات والأفعال للإله الذكوري الحصري»، وادعت أن «المنزل والكنيسة والولاية هي أعداء الثورة الجنسية»، وكما فعلت كثير من الأنثويات استشهدت بالماركسيين وخصوصًا إنجلز Engels في رؤية العائلة كبرجوازية وبناء رأسمالي، يغير تحليل النسوية المتطرفة في عديد من النواحي الحرب بين الجنسين إلى صراع الشيوعية بين الطبقات الاجتماعية الذي يعد في كثير من الحالات أرضًا إلحاديةً خصبةً. من ناحية أخرى لا يوجد أي وثنية جديدة neopagan أو إلهة مركزة في كتابات

جوستون، كان تركيزها على العلاقات السحاقية باعتبارها ذات أهمية كبيرة لجميع النساء[٤٦]، كان لها الأب الأكثر اختلالًا – مع نتائج مطابقة لتحليلنا الحالي.

كايتميلت (١٩٣٤م-إلى اليوم)[٤٧]:

كانت كايت الوسطى من بين ثلاث فتيات. ترعرعت في سان بول بولاية مينيسوتا في عائلة كاثوليكية ملتزمة، كانت طفلة مؤمنة جدًا ومحددة حياتها خصوصًا بالمسيح ومعاناته، احترمت والدها الذي كان شخصية وسيمة ساحرة وغالبًا رومانسية، كان مهندس بناء مشتركًا في مشاريع بنائية ضخمة وقام برحلات كثيرة.

في عام ١٩٤٧م عندما كانت كايت في الثالثة عشرة من عمرها ترك والدها الذي تحترمه العائلة فجأة وذهب مع امرأة بعمر التاسعة عشرة، لم يحدث أي اتصال على الإطلاق بين والدها والعائلة التي تركها خلفه حتى عام ١٩٦٢م (أي بعد خمس عشرة سنة) وحتى عند ذلك كان الاتصال معتدلًا جدًا، بعد مغادرة أبيها للعائلة أخبرت كايت أختها مالوري Mallory أنها لن تترك رجلًا آخر على الإطلاق يشكل أهمية كبيرة لها.

ذهبت كايت للمدرسة الكاثوليكية الابتدائية ولمدرسة ثانوية خاصة كاثوليكية للفتيات، ثم ذهبت لجامعة مينيسوتا Minnesota، وأثناء سنين الجامعة حاولت أستاذة نفسية سحاقية إغواءها، وتخرجت في هذه الجامعة كطالبة مجدة بتميز أكاديمي كبير عام ١٩٥٦م بشهادة في الإنكليزية، ثم درست

فيما بعد في جامعة أوكسفورد وجامعة شمال كارولينا ونالت شهادة الدكتوراه في جامعة كولومبيا في عام ١٩٦٩م، نشرت أطروحة الدكتوراه بسرعة تحت عنوان «السياسة الجنسية» وهي عبارة عن أطروحة ثقافية نسوية متطرفة أساسية وضعتها على الخريطة الثقافية والسياسية للولايات المتحدة فورًا تقريبًا.

تتذكر أختها الأصغر مالوري ذهاب كايت للدفاع عن أطروحتها التي كان من الممكن أن ترفضها وتمزقها لجنة الأطروحات الذكورية بالكامل، وبدلًا من ذلك قُبلت بتبجيل وأثني على عملها.

نشرت صحيفة Time في أواخر صيف ١٩٧٠م مقالًا عن النسوية المتطرفة التي وضعت سماتها كايت، والتي ادعت فيها أن والدها ضربها هي وأختها[٤٨]، (ارتابت مالوري من ذلك الادعاء)، وعندما نشرت السياسة الجنسية كانت قد مضت عدة سنوات على زواج كايت من نحات يسمى فوميو يوشيمورا Fumio Yoshimura، بغض النظر عن ذلك فقد أصبحت بعد هذا النشر بوقت قصير عضوًا فعالًا في دوائر النسوية المتطرفة في نيويورك، والتي وقفت مع الأفكار الدينية الوثنية الجديدة والسحاق والسحر بغطاء سياسي قوي للماركسية. (بالطبع رفضت المسيحية بوضوح وبشدة)، انتهى خلال تلك الفترة زواجها، تتذكر مالوري حضورها حفلات الهالوين في بدايات سبعينيات القرن الماضي. حيث وصلت متأخرةً قليلًا، فرأت كايت مع مجموعة مكونةٍ من ثلاث عشرة

امرأة عارية يجلسن حول طاولة طويلة؛ ومع كل واحدة سكين حادة جدًا وأشياء أخرى تتضمن أوعية مليئة بالفواكه وسلاسل طويلة، فهربت مالوري هي وامرأة أخرى صديقتها.

أُدخلت كايت ميليت فيما بعد.. في العقدين السابقين العديد من النقاط الطبية بسبب الاضطرابات الذهنية وشُخصت باكتئاب شديد، ووصفت أختها بأنها طاقة شخصية ومليئة بالغضب والغيظ وغالبًا ما كان ذلك غير متوقع.

يمكننا القول إنَّ هذا مثال واضح عن النساء اللواتي تركهن والدهن - كفتاة صغيرة - وكن ربما ضحية سوء المعاملة الجسدية أيضًا، واستبدلت فيما بعد بإيمانها المسيحي والكاثوليكي الإيمان بالسحر الوثني الجديد وبالإلهة والتدخل غير العادي بالعلاقات السحاقية - جميعها ضمن إطار عمل الرؤية الكونية للنسوية المتطرفة، وتعيش كايت ميليت الآن في ريف ولاية نيويورك حيث تقود مجتمعًا من الفنانات.

***

استثناءات...

دينيس ديدرو (١٧١٣م- ١٧٨٤م):

قد يسأل القارئ: أين يوجد في هذا الكتاب باقي الملحدين المعروفين – أو على الأقل الأعداء الفكريون المهمون للمعتقد الديني؟ إحدى الشخصيات الدينية التي لم تناقش بعد هي دينيس ديدرو، وهو من الشخصيات الأساسية في التنوير الفرنسي، كان بحق الملحد الأكثر شهرة في ذلك الوقت والمعروف أكثر من دي هولباخ d'Holbach (على سبيل المثال) لنشره كثيرًا من المؤلفات الناجحة.

كان لدى ديدرو ووالده علاقة إيجابية واضحة أثناء السنين الأولى من حياة دينيس حتى أثناء مراهقته، ومن هنا لا يعد ديدرو مثالًا يدعم فرضيتي: لم يكن والده ميتًا ولم يتركه أو يسئ معاملته (بغض النظر عن أنَّه كان مسؤولًا عن الملاحظة الأوديبية جدًا المقتبسة من فرويد Freud والمذكورة في الفصل الأول).

من ناحية أخرى حدث نزاع خطير مع والده عندما كان شابًا، حيث وقع في الحب وأراد الزواج بامرأة من طبقة اجتماعية أقل منه ومن تربية أو ثقافة أقل، عارض والده بشدة هذا الخيار وخطفه وحبسه لمنعه من الزواج بها، هرب دينيس وتزوجها، أصبح زواجهما زواجًا تعيسًا جدًا حيث كانت الأمور المشتركة بين

الزوجين في الواقع قليلة، وفي ذلك الوقت أصبحت مواقفه الفكرية خصوصًا إلحاده مصدرًا للجفاء بينه وبين عائلته الكاثوليكية الملتزمة جدًا، ولم يتصالح مع والده أبدًا.

وعلى الرغم من وجود دليل معتدل لعدائية ديدرو تجاه والده كشاب، فعمومًا لا يمكن استخدام فرضيتي مع ديدرو، إذ يمكن بالطبع أن يكون لدى ديدرو تجارب سلبية شديدة كطفل، إمّا مع والده أو مع شخصيات أبوية مهمة، لكن بغض النظر عن ذلك يمكننا فقط أن نرسخ حكمنا على السجل الذي لدينا.

على أية حال، يمكن أخذ عوامل نفسية مهمة جدًا بالحسبان بالنسبة لوضع ديدرو، مؤخرًا اقترح فرانك ج. سولواي Frank J. Sulloway في «ولد لكي يعصي» Born to Rebel أنَّه عندما يولد شخص ما تعتبر عائلته محددًا أساسيًا لمواقفه الفكرية لاحقًا عند بلوغه[٤٩]، قدم سولواي أدلة كثيرة ليبين أن الأطفال الذين ولدوا لاحقًا من المحتمل أكثر أن يعاندوا التنظيم السياسي أو الفكري الموجود، يوجد مجال لأفكار جديدة جذرية تغير النظرات السابقة، بغض النظر عما إذا كانت الفكرة الجديدة بأهمية نظرية دارون عن التطور، أو بسخافة نظرية غال Gall عن علم الفراسة (التي تفترض إمكانية تحديد الشخصية بفحص شكل ونتوءات الجمجمة)، لم يناقش سولواي ديدرو لكنَّه لاءم فرضية سولواي بشكل جيد جدًا، أخو ديدرو الأكبر الذي ولد أولًا أصبح قسيسًا ونهج نهج والديه

والنظام المؤسس، يمكن بذلك أن ينظر لمفاهيم ديدرو على أنها نتيجة لعلم النفس الباكر القائم على الأسرة - لكنها بالطبع ليست مثالًا جيدًا على فرضية الأب المختل.

كارل ماركس (١٨١٨م-١٨٨٣م): استثناء جزئي

كان كارل ماركس - الأب الفكري للماركسية ومقدمة الاشتراكية والشيوعية - أيضًا ملحدًا بارزًا، لكنه لم يُمضِ الكثير من وقته يقاتل في ساحات الإلحاد، فهم الإله في مصطلحات فيورباخ Feuerbach كإسقاط لما يجب أن يكون عليه الرجل المثالي، وفهم الدين - مثل باقي الظواهر الاجتماعية - كتعبير عن البنية المادية للزمن، لا يوجد تفسير يمكن أن يسمح لنا برؤية ماركس كمثال لفرضيتي، وعلى الرغم من أن والد كارل أتى من سلالة طويلة من أحبار اليهود فقد اعتنق المسيحية البروتستانتية، لأسباب اجتماعية خصوصًا، وكشاب أظهر كارل ماركس بعض المعتقد المسيحي، عرف كارل الصغير دون شك أن دخول والده المسيحية كان سطحيًا وكان من الممكن أن يقلّص هذا من احترام كارل لوالده. على الرغم من ذلك لا يوجد نزاع واضح أو جفاء بين ماركس الأب وكارل الابن، وعلى الرغم من أنه في بعض أوقات الفترة الأخيرة من مراهقته عندما كان في الجامعة رفض كارل فجأة وبشكل قطعي خلفيته البرجوازية - على الرغم من أنه استمر بقبول دعم والده المالي (كان الأمر في أربعينيات القرن التاسع عشر لكن يبدو أنه في ستينيات القرن العشرين) ومن هنا لا يوجد دليل

للإيمان بأن النقص الكبير لاحترام ماركس لأبيه يتدخل في عدائيته الكبيرة للطبقة البرجوازية، على أي حال يمكن أن تكون نظريته الاشتراكية هجمة عنيفة على كل شيء يمثله أبوه؛ وتتضمن بذلك أفكاره قضية واضحة جدًا لرفضه لأبيه.

سام هاريس (١٩٦٧): استثناءٌ محتمل

سام هاريس؛ عالم أعصاب وشكوكي أو ملحد معاصر مشهور، لكنه من ناحية أخرى يتعاطف مع الأديان الروحية غير الألوهية، مثل البوذية، وهو مؤلف كتاب نهاية الإيمان The End of Faith ورسالة إلى أمة مسيحية Letter to a Christian Nation وناقد شديد للمسيحية واليهودية والإسلام، لا تتوافر معلومات كثيرة عن سيرته الذاتية، لكنه نشأ في منزلٍ علمانيٍّ ليس فيه اهتمام كبير بالله أو الدين؛ ولا دليل على وجود جفاءٍ بينه وبين والده (من طائفة الكويكرز) أو والدته (اليهودية).

كان تخصصه في جامعة ستانفورد اللغة الإنكليزية، والذي من المفترض أنَّه لا يتوافق حتى مع أبسط درجات التوحد، وما لم يظهر دليل نفسي جديد افترض أن سام استثناءٌ من فرضيتي الأب المعيب والتوحد المطروحتين في هذا الكتاب[1].

(١) أشار العالم النفسي بيتر مارتين، كما لدينا أيضًا بخصوص أشخاص آخرين، إن كان لدى هاريس نمط رافض من الارتباط وهو أكثر شيوعًا عند الذكور، فسيكون أكثر عرضة لأشكال من «القوة غير الشخصية» للدين، مثل البوذية بدلًا عن المسيحية (عبر التواصل الشخصي، ١ أيلول، ٢٠١٢).

أسباب نفسية أخرى للكفر...

يعي كثير من الناس كيفية تأثير تجارب خاصة لممثلين عن الإله (المسيحية أو الكنيسة) في معتقدهم الديني، عرفت رجلًا كان ملحدًا في معظم حياته لكنه في النهاية عاد للمسيحية عضوًا في الكنيسة الأسقفية، ترك الكنيسة الكاثوليكية ورفض فكرة الإله بسبب موقف مؤلم حدث معه: عندما دخل القربان المقدس لأول مرة أسقط بالخطأ خبز القربان المقدس وعوقب علنًا، وفي الحقيقة أذله القسيس، شعر بجرح عميق جدًا أفقده إيمانه، لا يوجد أدنى شك بوجود أمثلة كثيرة لسلوكيات أولئك الذين يفترض أنهم يمثلون الإله تسبب مثل تلك الجروح للناس، من المهم من ناحية أخرى للشخص أن يبقي مدركًا أنه بغض النظر عن طبيعة وبشرية ردود الأفعال تلك فهي ليست منطقية لكن نفسية.

دعنا نتطرق لأساس نفسي آخر للابتعاد عن الإله، الإنكليزي التاريخي العظيم إدوارد غيبون المشهور بكتابه «انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية» Decline and Fall of the Roman Empire يشتهر جدًا بهجماته على الكنيسة المسيحية، والنتيجة الواضحة التي خلص لها هي أن نهوض المسيحية كان عادةً متصلًا بسقوط روما، كان يكتب بشكل متكرر - خصوصًا في حاشية كتابه - ملاحظات حاسمة عن الكنيسة المسيحية الباكرة. ناقش كُتَّاب السير نفسية غيبون الشخصية ببعض التفصيل، أشار أحد كتاب السير

الأساسيين جوزيف وارد سوين Joseph Ward Swain في كتابه «المؤرخ إدوارد غيبون» Edward Gibbon the Historian إلى وجود ميول دينية حقيقية لدى غيبون، وحال وصوله إلى أوكسفورد تحوّل فجأة للكاثوليكية الرومانية[٥٠]، صدم والده بهذا التحول غير المتوقع من ابنه إضافة إلى خطره الاجتماعي والسياسي (وجد في ذلك الوقت في المجتمع الإنكليزي الكثير من الإجحاف بحق الكاثوليكيين والعديد من القوانين المناهضة لهم كانت لا تزال سارية المفعول؛ خصوصًا أنه لا يحق لهم الانتساب إلى البرلمان وهو المستقبل الذي كان يأمله والد غيبون لولده)، لذا فقد أرسله والده على الفور ليبقى مع قس بروتستانتي في لوزان بسويسرا لعدة سنين، وخلال سنة واحدة من وصوله وتحت ضغط من القس ووالده عاد غيبون لبروتستانتية العائلة، من ناحية أخرى وعلى المدى البعيد أصبح أكثر أو أقل شكًا في تقليد عقلانية القرن الثامن عشر، وكما ذُكر أصبح ناقدًا للمسيحية.

يقتبس سوين نقدًا مشهورًا لغيبون: «غالبًا ما كان يخلق (غيبون) مناسبات - عندما لا يجد مناسبة - ليهين المسيحية التي يكرهها بشدة، حيث قد يبدو أنه ينتقم من جرح شخصيٍ ما»[٥١]، ذهب سوين إلى ملاحظة أنه «وكما بالنسبة لجرح شخصي لا يمكن أن يكون هناك شك، تخربت حياة غيبون لسنين بحديثه مع روما وحمل تلك الندبات طيلة حياته بعد ذلك، من ناحية أخرى لم يندفع غيبون

في هجومه على الكنيسة بسبب الرغبة بالانتقام من تلك المعاناة، إنما بسبب الخوف، الخوف الذي ربما قام مجددًا بشيء متهور إذا أطلق العنان لنفسه». رأى سوين أن غيبون عبارة عن رد فعل ضد الشخصيات الحماسية الدينية لبعض الأعضاء المشهورين من عائلته.

حقائق حول شخصية غيبون:

كان (غيبون) يرتعد من فكرة الاستسلام للعواطف الدينية، ولذلك كان يضبط نفسه بشدة ويتبنى موقفًا عقلانيًا باردًا تجاه الحياة ويبني صورة للمسيحية يمكننا رؤيتها في كتابه «التاريخ» History، ولذلك فإن النمط العام لعدائه للأكليروسية يشبه نمط عدائه لسوزان كوركود Suzanne Curchod [المرأة الوحيدة التي أبدى لها غيبون حبه العميق] أثناء بقائه الثاني في لوزان؛ عرف أنه بقدر ما كان يحبها فلن يتمكن من الزواج بها، لكنه علم أنه لن يتمكن من نسيانها أو حتى البقاء بعيدًا عنها؛ ولذلك اتهمها (ظلمًا) بارتكاب الكثير من الجنح ليقنع نفسه أنها لا تستحقه؛ لكن حالما تزوجت بأمان من م. نيكر Necker نسي تلك العيوب المزعومة وقبل بها بسرور كصديقة العمر العزيزة، اتخذ نفس الموقف الهجومي ضد الكنيسة على الرغم من اعتماده على الذكاء بدلًا من الامتعاض، لم يسخر أبدًا من نفقة سوزان ونادرًا ما كان يمتعض حقًا من الكنيسة الباكرة[٥٢].

وبالتزامن مع فرضية «ولد لكي يعصي» لسولواي، لدينا هنا نوعان آخران من الدوافع لرفض فكرة الإله: التجارب المؤلمة مع الشخصيات الدينية (كما

في الحالة الأولى المناقشة أعلاه) والكفاح المؤلم ضمن النفس (كما في حالة غيبون).

تشير فرضيتنا النفسية الأولى والدليل الذي يدعمها إلى أن التجربة الأساسية لوالد الشخص بكونها إيجابية أو سلبية تعتبر مساهمًا أساسيًا في التمثيلات المتفرقة أو المنقسمة (إحدى الصور سلبية والأخرى إيجابية)، في مثل هذه الحالات يمكن أن تتطور علاقة أكثر تعقيدًا مع الإله، على سبيل المثال يمكن أن تدعم سمات إيجابية للتمثيل الداخلي المعتقد بالإله المحب، في حين أن السمات السلبية يمكن تمثيلها بالشر أو بنظرة سلبية للمسؤولين الدينيين مثل البابا، والذي تدعوه الكاثوليكية «الأب المقدس»، إذا كان هذان التمثيلان المتنازعان قويين يمكن أن يحصل موقف ديني شديد متناقض، قد يحدث شيء من هذا القبيل في علم النفس للشخصيات الدينية المؤثرة أو الثورية.

قام زميل نفسي لي في حواره مع عديد من رجال الدين الكاثوليكيين بوصف نفسية عدد من القسيسين الذين قابلهم بطريقة تدعم مثل هذا التفسير، لدى هؤلاء القسيسين رابطة قوية مع المسيح، لكن تقابلها صلة ضعيفة مع الإله، خصوصًا بوصفه الإله الأب، كما أنهم رفضوا بشدة (وبعضهم حتى أنه كره) البابا، قال زميلي إنه في جميع تلك الحالات كانت الصلة النفسية بين أب القسيسين البعيد التأديبي ورفضهم للبابا واضحة جدًا، تبعًا لعالم النفس هذا فإن مثل هذه النفسية

ليست نادرة حتى بين الأساقفة، يجب دراسة التفسير النفسي المعقد - اعتمادًا على انقسام في التمثيلات الأبوية الداخلية - بشكل كامل ومثبت.

ومن هنا وعلى الرغم من تأثير الأب المعيب، توجد نفسيات مهمة أخرى أدت أيضًا إلى عقليات إلحادية أو «ما يشبه الإلحاد»، بعضها ذكرناه أو اقترحناه؛ وأخرى قد تكون تركيبات أو تقليبات لهذه النفسيات.

***

الجزء الثاني

حالات نفسية أخرى ذات صلة بالكفر

٥ - الإلحاد السطحي: قصتي الشخصية...

لا يوجد معيار نفسي للإلحاد يمكن أن يكون كاملًا دون فحص ضحالته الكبيرة وفحص أكثر لأشكاله الشائعة، دعني أبدأ مع حالتي التاريخية الخاصة. فبعد التربية المسيحية الضعيفة، أصبحتُ ملحدًا عندما كنت في الجامعة (في جامعة متشيغان Michigan في خمسينيات القرن العشرين) وبقيت على ذلك حتى تخرجي الدراسي (في جامعة ستانفورد)، وفي سنيني الأولى كعالم نفس متدرب شاب في جامعة نيويورك أعدت اكتشاف المسيحية في أواخر العقد الثالث في بيئتي العلمانية لعلم النفس الأكاديمي في مدينة نيويورك.

أحد الانعكاسات التي رأيتها أن أسبابي في أن أصبح ملحدًا شكاكًا وأحافظ على ذلك من عمر الثامنة عشرة حتى أصبحت في الثامنة والثلاثين كانت سطحية بالكامل وتفتقر لأساس روحي وفكري جدي، وعلاوة على ذلك اقتنعت أن هذه الأسباب شائعة بين الأمريكان.. خصوصًا في المجتمعات الفكرية والأكاديمية والفنية والإعلامية.

وكطالب لعلم النفس دعمتني الأفكار العامة المتنوعة في إلحادي، الجدال - الموصوف هنا - بأن الإله هو إسقاط للحاجات النفسية خصوصًا الحاجات الطفولية كان هو ما تبنيته، كان دعم هذا التفسير النفسي يشكل نقدًا ثقافيًا أو إنسانيًا للإيمان أيضًا، لست متيقنًا أين تعلمت ذلك، على الرغم من أني أتذكر استمتاعي بدرس في جامعة متشيغان يلقيه أستاذ ملحد جهرًا عن علم الإنسان[1].

كما آمنت بـ«التطور» بما فيه تطور الرؤية الكونية worldviews، بدا لي أن الإنسان البدائي كانت له آلهة وأرواح بأنماط متعددة: في هذا الطور الحياتي، سكنت الآلهة عديدًا من المناطق الطبيعية (فصول الربيع والأخشاب والحيوانات المؤثرة والأحجار المميزة الكبيرة وما أشبه ذلك)، في حين كان للثقافات الأكثر «تقدمًا» نوعًا ما آلهة أقل، لكنها ما زالت تعتمد تعدد الآلهة، وفي زمن ما كان عند اليونان والمصريين عدد قليل من الآلهة نسبيًا مع السلطة الواضحة الخفية، ثم قدَّمت اليهودية نموذج التوحيد كملخص طبيعي لهذا التقدم من التعددية إلى الأحدية، وبالطبع فإن الجواب النهائي بـ«العقل الحديث الناضج» كان التخلص من اللاهوت جملة واحدة لفهم العملية كاملة كشكل من النضوج أو التطور الفكري، وبذلك فإن التطور من تعدد الآلهة الكثيرة إلى عدد قليل منها إلى إله واحد إلى عدم وجود إله أساسًا بدا أنه تطور تاريخي ومنطقي.

طبعًا لم أتحقق من الدليل على هذه النظرة بشكل جدي أو أستفسر عنها بأي طريقة، بدا لي فقط أنها صحيحة وواضحة، ولو قمت بأداء ما يجب من البحث حتى بالعودة إلى خمسينيات وستينيات القرن العشرين لكنت استنتجت أن نموذج «التطور أو التقدم» ببساطة لا يتوافق مع البيانات، وفي حال كان موجودًا فإنه يجب أن يعكس أي شيء.

ثم جاءني الآن الدليل الذي يدعم الادعاء بأن الإنسان الباكر كان على العموم موحدًا، حيث إن المعتقدات الدينية لمعظم القبائل البدائية التي لدينا معلومات عنها تحافظ على هذه النظرة.

أشار أندرو لانغ Andrew Lang قبل سنين من وضع فرويد للنظرية الدينية إلى أناس بدائيين جدًا مثل السكان الأصليين لأستراليا لديهم دين فيه إله أسمى أو فوق الجميع، ليس شبحًا لشخص ميت ولا توجد آلهة أدنى منه تملك قوة عظيمة[٢]، وحديثًا ذكر إي. أو. جيمس - وهو باحث بارز للديانات الأولى - أن لانغ وويلهلم شميت Wilhelm Schmidt وزملاءه أثبتوا أن فكرة ذلك النوع من الإله الأعلى الواحد هي «سمة أصيلة في الأديان البدائية غير الملوثة بغيرها» تتكرر بين معظم الناس البدائيين مثل «القبائل المحلية في أستراليا، والـ Fuegians في جنوب أمريكا وقبائل كاليفورنيا في شمال أمريكا والسود الأصليين وباقي الزنوج في أفريقيا وفي أي مكان آخر»[٣]، عمومًا هذه القبائل الموجودة في

معظم البيئات السيئة قلدت جيرانها الأكثر تقدمًا؛ وتلك إحدى العلامات على بدائيتهم، هذه الحضارات هي حضارات البشر جامعي الطعام ومن ثم طوروا فنون الزراعة؛ وأي طريقة صيد كانوا يستخدمونها كانت بدائية جدًا.

ذكر شميت أن «اسم الأب يستخدم للشخص الأعلى الكائن في كل منطقة وحيدة في الثقافات البدائية، وقد وجدناها على شكل الأب ببساطة، كما وجدناها بالشكل الفردي (أبي) والجمع (أبانا)»[٤]، طبق أيضًا اسم «الخالق» لكن لم يكن له وجود عند الجميع، الاسم الشائع الثالث للكائن الأعلى هو «إله السماء» أو «سيد السماء»، بالإضافة إلى ذلك ينظر إلى هذه الشخصية على أنها مستقيمة جدًا، مسؤوليته الوحيدة لأي شيء سيئ روحيًا هي مقته ومعاقبته،.تتحدد الحياة الروحية لهذه القبائل البدائية بشكل كبير بفهمهم للكائن الأعلى الجيد روحيًا الذي ينظر له على أنه المسؤول عن العقاب والثواب.

ادعى بعض علماء السلوك مثل شميت أن معظم الناس البدائيين الذين لدينا معرفة عنهم يعرضون شكلًا ما من التوحيد البسيط، على الرغم من أن هذه الإشارة محل جدل[٥]، بالنسبة لهدفنا نحتاج فقط لملاحظة الموجودات غير المتنازع عليها، والتي خلصنا بها إلى أنَّ أكثر – وربما معظم – الناس البدائيين هم موحدون بالمعنى السابق، ومن هنا لا يوجد نموذج تطوري يمكن أن يجعل التوحيد مرحلة متأخرة نسبيًا من التطور يمكن القبول به في الواقع التجريبي، في

الحقيقة لاحظ عديد من المعتنين بالخلفيات المختلفة - الذين انتبهوا للتوحيد البدائي لهؤلاء الناس البسطاء - شبهه الكبير باليهودية والمسيحية والإسلام بهذا الخصوص.

يبدو أنَّ تعدد الآلهة وتكاثرها بدأ عندما تقابلت الثقافات أو القبائل واختلطت بعضها ببعض، خصوصًا عندما كانت قبيلة ما تغزو قبيلة أخرى، وبالتوسع يبدو أنه ظهر بتحول الثقافات في الإمبراطوريات السياسية بحيث أصبح عدد الآلهة أكبر. يمكننا أن ندعو هذا «تأثير بانتيون Pantheon»: فكان يحل السلام مع القبائل المجاورة أو القبيلة المغزوة بإضافة آلهتهم المهمة لقائمتك.

من هذا المفهوم كان التغير التاريخي الديني عمومًا إحدى وسائل التفويض أو الارتداد، انتقلت تلك الثقافات من إله واحد إلى بضعة آلهة إلى آلهة متعددة، وفي النهاية في الفترة الحديثة يكون لكل شخص إله، لا يوجد شك بأنَّ هذا تبسيط مبالغ به، لكنَّه يبدو أقرب للحقيقة من نموذج عدم النضج، ضمن هذا السياق كانت اليهودية استثناءً جديرًا بالملاحظة، ويمكن أن تفهم كعودة للحالة الأصلية من التوحيد البسيط، وهي حالة في الثقافات الأكثر «تقدمًا»، وفي هذا سقط العبريون القدامى، في الحقيقة نرى كثيرًا في تاريخ اليهود كيف أضعَفت العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع باقي الحضارات بشكل مستمر توحيدهم بتقديم آلهة جديدة (مثل بعل Baal وعشتروت Astarte)، ومرارًا اضطروا

في وجه الضغوطات الاجتماعية والسياسية للعودة إلى التوحيد للمحافظة على إيمانهم وهويتهم الثقافية.

لكن العوامل الأساسية الداخلة في جعلي ملحدًا - بالرغم من كوني سابقًا غير واعٍ تمامًا لها في ذلك الوقت - لم تكن فكرية، إنما اجتماعية ونفسية، لقد اتجهت لتلك العوامل حيث إنها نادرًا ما تناقش، على الرغم من وجود سبب جيد للإيمان بأنَّ العوامل الاجتماعية النفسية لها تأثير أكبر بكثير من النقاشات المنطقية (على الأقل بالنسبة للعديد من الناس).

التحضر العام...

كانت الصعوبة الاجتماعية الشديدة هي العامل الدافع الهام في شبابي، كنت محرجًا بعض الشيء من كوني من الطرف الشرقي، حيث إنهم يبدون لي بشكل كبير أغبياء وضيقي الفكر وقرويين، لم يكن أمرًا رومانسيًا أو مؤثرًا كوني أنتمي إلى سينسينتي بولاية أوهايو ومن خلفية مبهمة خليطة من الألمانية والإنكليزية والسويسرية. علاوة على ذلك.. وإلى جانب الهروب من الغباء، وبالنسبة إلى ماضيَّ الاجتماعي عديم القيمة، رغبت في أن أكون جزءًا من العالم العلماني الجديد الفاتن الذي كنت أتنقل فيه، وأن أكون مرتاحًا فيه، أنا متأكد أن مثل هذه الدوافع تؤثر بشكل كبير في الشباب المتنقلين بشكل متصاعد في القرنين الأخيرين.

إن التفكير بالغيتو اليهودي والإيطالي الذي هرب منه عدد كبير من الأمريكان، أو التفكير بالوصول الشبابي الأخير إلى نيويورك الذي كان يكبحه الآباء الأصوليون، قد دفع كنوع من الضغط الاجتماعي كثيرًا من الشباب إلى الابتعاد عن الإيمان بالإله وكل ما يتعلق بالإيمان بالرموز والمواريث.

تذكرت حلقة دراسية صغيرة في كليتي عبر فيها كل فرد في وقت ما عن هذا النوع من الإحراج والاستجابة للضغط للتحضر في «الحياة الحديثة»، حاول أحد الطلاب الهروب من خلفيته المعمدانية الجنوبية وآخر من طفولته في المورمون؛ إلا أن الثالث كان يحاول إبعاد نفسه عاطفيًا وفكريًا (وحتى جسديًا أيضًا) عن الغيتو اليهودي في بروكلين، أما النمط الرابع فكان أنا.

الاندماج الاجتماعي socialization...

أحد الأسباب الأخرى الأساسية لكوني ملحدًا كان رغبتي في أن يقبلني العلماء ذوو القوة والتأثير في مجال علم النفس، خصوصًا أني رغبت في أن يقبلني الأساتذة في الكلية، وكطالب خريج كنت جاهزًا بشكل كامل بـ«الثقافة» المحددة للبحث الأكاديمي النفسي، من ناحية أخرى قد لا يوافق أساتذتي في جامعة ستانفورد بشكل كبير بين أنفسهم على النظرية النفسية، حيث جمعت بشكل كبير بين شيئين: طموحات مهنتهم الشديدة ورفضهم للدين.

وكما تعلمت كيف أرتدي مثل طلاب الجامعة بانتقاء الألبسة المناسبة، تعلمت التفكير كعالم نفسي ملائم بتبني المواقف والأفكار الصحيحة وهي

إلحادية بطبيعة الحال، رغبت - مع وجود بعض العوائق لمهنتي الاحترافية - أن تكون عندي هذه الأفكار.

الاستقلال الشخصي...

منذ الحرب الأمريكية للاستقلال والثورة الفرنسية تبلورت رغبة جامحة في الاستقلال أكثر في المجتمع الغربي، وشاعت بعض الأفكار مثل أن يكون الشخص «متفردًا» وأن يكون «مستقلًا ذاتيًا» و«أصيلًا»، وقد أصبح الالتزام بعبارة «لا أحد يملي عليَّ ما أفعل» من الناحية الفكرية مصطلحًا له احترامه بشكل واسع وأصبح نموذجًا للثقافة الحديثة، مثل تلك المواقف كانت ملائمة جدًا وبشكل كبير لنفسية الشباب الذكور، يُعمم هذا النوع من المواقف بسهولة في التحرر من كل القيود، وبذلك يدعم رفض معتقد الإله، بالنسبة لي - كما من المفترض أنه بالنسبة لكثير غيري - كان تحولي للإلحاد جزءًا من الاستقلال الشخصي مع «رومانسية الاستقلال الذاتي».

الإقناع الشخصي...

وفي النهاية كانت هذه القائمة من الضغوطات السطحية سبب إلحادي (لكنها مع ذلك عقلانية قوية)، فلكي أصبح ملحدًا كان واجبًا عليَّ أن أدرج إقناعًا شخصيًا بسيطًا، الحقيقة هي أنه من غير المناسب أبدًا في عالم اليوم الوثني العلماني المفرط أن يكون الشخص مؤمنًا ملتزمًا، كان بودي أن أترك العديد من الأمور السارة (يمكنك تخيل ذلك) وكان ذلك غير مرغوب، وإلى جانب ذلك

فإن الدين يأخذ بمبدأ التعامل الجيد مع الوقت، ليس فقط في صباح أيام الأحد؛ حيث تستدعي الممارسة الجدية لأي ديانة القيام بأكثر من ذلك، توجد خدمات كنسية أخرى إضافة إلى وقت الصلاة وقراءة الكتاب، ناهيك عن الوقت اللازم لمختلف أنواع «الأعمال الجيدة»، لقد كنت مشغولًا بشكل كبير جدًا بمثل تلك النشاطات المستهلكة للوقت.

مثال آخر عن حالة: مورتيمير ألدر (١٩٠٢-٢٠٠١)

قد يظن المرء أن القضايا السابقة مقيدة بشباب ساذجين (مثلما كنت في عشرينياتي)، لكن الأشخاص الأكثر نضجًا من كلا الجنسين قد يفكرون بنفس الطريقة، وبالمحصلة إن لم يكن هناك إله؛ أي إن كان الإلحاد صحيحًا، فهذا يعني أنه لا توجد حياة بعد الموت ولا جنة ولا نار، كما أشار دوستويفسكي Dostoevsky: «إذا كان الإله ميتًا فإن كل شيء مسموح»، وعلى مستوى أدنى فإنني فهمت الرسالة على أنها «تمتع قدر استطاعتك!» على سبيل المثال كان سبب شيوع النتائج الإلحادية والمادية لنظرية التطور لداروين هو أثرها في سلوكنا الجنسي، كما بين ستانلي جاكي Stanley Jaki «لم يعترف غير ألدوس هوكسلي Aldous Huxley بأن الداروينية قدمت الرخصة الجنسية كمنفعة مباشرة تأتي من تصديق كتاب (أصل الأنواع)»[٦].

شكل مورتيمير آدلر Mortimer Adler مثالًا عن حالة، وهو فيلسوف وكاتب ومفكر وأستاذ لسنين عديدة في جامعة شيكاغو الأمريكية، أمضى معظم

حياته يفكر بالإله وبالأمور الدينية، في أحد كتبه «كيف تفكر بالإله: دليل لوثني القرن العشرين» How to Think about God: A Guide for the Twentieth-Century Pagan (١٩٨٠) أحكم آدلر بقوة الجدال حول وجود الإله، وفي الفصول الأخيرة اقترب كثيرًا من قبول وجود إله حي، لكنه تراجع في النهاية؛ بقي بين «الجماعة الكبيرة ذات عدم الالتزام الديني»[٧]، ترك آدلر انطباعًا بأن مشكلته هي مشكلة رغبة أكثر من كونها مشكلة فكرية، في سيرته الذاتية Philosopher at Large (١٩٧٦) وحين استكشافه أسبابه في التوقف مرتين قبل الالتزام الديني الكامل اعترف آدلر بأن الجواب «يقبع في حالة رغبة الشخص وليس في حالته الفكرية»[٨]، هو يعرف أنه لكي أصبح متدينًا بشدة «قد يتطلب الأمر تغيرًا جذريًا في طريقة الحياة، بديلًا أساسيًا في الأشياء النهائية لتكون غاية» ولقد أقرَّ أن «الحقيقة البسيطة للموضوع هي أنني لا أتمنى العيش بحيث أكون شخصًا متدينًا بصدق»[٩].

لدينا هنا حالة فيلسوف ناضج واضحة الدلالة على أن كون الشخص متدينًا بشكل جديٍّ قد يكون صعبًا أو على الأقل يسبب له الكثير من المشاكل، في حالتي الخاصة، أرى الآن أن حاجتي الاجتماعية للاستيعاب وحاجتي المهنية لأكون مقبولًا كجزء من العالم النفسي الأكاديمي وحاجتي الشخصية للاستقلالية والطريقة المقبولة للحياة هي الأسباب التي اخترتها لأكون ملحدًا، ومن هنا فإن

الأساس الفكري لإلحادي - مثل الكثيرين غيري - يظهر بعد إعادة النظر أنَّه أكثر ضحالة من المنطق الموضوعي.

***

٦- الإلحاد والتوحد: توسع أكثر للنظرية

ونتطرق الآن إلى دراسة أنواع جديدة ومهمة من العلاقات الإنسانية الباكرة التي تدفع المرء وبدرجة كبيرة للإلحاد، ونجد صداها في السِيَر الذاتية للأشخاص الذين استشهدنا بهم سابقًا، والأهمُّ من ذلك، أنَّ دراسة هذه العلاقات تسمح بتوسيع النظرية في مجال جديد، حيث يركز النموذج القائم على الأب المَعيب على المعاناة الفعلية للطفل خلال فترة تربيته (أو بالأحرى حصول قصور في تربيته)، بينما التوسع في دراسة مرض التوحد يوصلنا - كما هو معروف - إلى عوامل حيوية أو طبيعية له.

اضطرابات طيف التوحد

أصبح مرض التوحد في العقود القليلة الماضية من الأمراض المألوفة، وتوصيفه اليوم معروف بدقة[1]، وعلى ضوء هدفنا من البحث سوف نركز على النزعة السائدة لمرضى التوحد في ملاقاتهم صعوباتٍ كبيرة في التواصل مع من

---

(١) كتاب من تحرير يو. فريث U. Frith، التوحد ومتلازمة أسبرجر Autism and Asperger Syndrome (كامبريدج، المملكة المتحدة: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩١)؛ يو. فريث U. Frith وف. هاب F. Happe، «اضطراب طيف التوحد»، علم الأحياء الحالي Current Biology ١٥ (٢٠٠٥): ٧٨٦-٧٩٠.

حولهم من الأشخاص؛ فهم عاجزون عن تطوير علاقات مع الإنسان السوي، وعوضًا عنها، تكون علاقاتهم ضعيفة نسبيًا أو منعدمة تمامًا.

والتفسير المعروف لمعاناة هؤلاء الأطفال المصابين بالتوحد هو أنَّ لديهم مشكلة كبيرة في فهم أنَّ الآخرين يفكرون، ونتيجة لذلك فإن لديهم صعوبة كبيرة في بناء علاقات مع آبائهم ومقدمي الرعاية لهم، والآخرين عمومًا[1]. وبشيء من التفصيل يواجه هؤلاء الأفراد صعوبات في فهم نوايا الآخرين وعواطفهم؛ أي أنهم كأفراد، يميلون إلى رؤية الآخرين أشياءَ مجردةٍ من الحياة العقلية، وغالبًا ما يوصف هذا العجز في فهم الآخرين والتواصل معهم بأنه (العمى العقلي) أو أنه عدم القدرة على تطوير (نظرية العقل).

في بداية مناقشتنا للتوحّد، تجدر الإشارة إلى أن هذا العجز الذي يعاني منه مريض التوحد غالبًا ما يلاحظ بدايةً عند فشل الطفل في التواصل مع أمه، بيد أننا سنركز اهتمامنا على العجز في بناء العلاقات، وعلى العمى العقلي كسمة عامة لهذا المرض، ومع الوقت يصل هذا الإرباك إلى تواصله مع أبيه حتمًا، ومن ثم مع الآخرين عمومًا، وباختصار، سيصيب العمى العقلي جميع علاقاته مع الآخرين بالشلل أو الإرباك، ومن ضمنها، كما سنرى، علاقته مع الله.

ومن المهم جدًا أن نعرف أن مرض التوحد يظهر تمايزًا شديدًا بين الجنسين، وقد وصف بارون كوهين Baron-Cohen مؤخرًا ميل مرضى التوحد إلى

(١) المرجع السابق، آخرون كثر.

رؤية العالم يتكون من أشياء لا من أشخاص بأنه «الفارق الأساسي ما بين أدمغة الذكور وأدمغة الإناث»(١)، وهو أن الرجال عادة ما يكونون أكثر اهتمامًا بالأشياء أو الأجساد مقارنة بالنساء، إضافة إلى تفكيرهم المنهجي حول الأشياء، في حين أن النساء أكثر اهتمامًا بالأشخاص مقارنة بالرجال، وكذلك أكثر ميلًا للتفكير بالمشاعر والعلاقات، وبالطبع، هناك كثير من التداخلات بين الرجال والنساء، فمعظم الرجال يدركون تمامًا قيمة تواصلهم مع الآخرين في علاقات شخصية مهمة.

ومع ما سبق، وحسب رأي بارون كوهين أنَّه يُنظر للأطفال المصابين بالتوحد بأنهم يعانون - إذا صح التعبير - من فرط انزياح أدمغتهم نحو النمط الذكوري(٢). ومن الجدير بالذكر أنَّ الأطفال المصابين بالتوحد يكونون ذكورًا في كثير من الأحيان، وبنسبة تصل إلى ثلاث أرباع الإصابات(٣)، ومن المهم أن نعلم أيضًا

(١) س. بارون كوهين S. Baron-Cohen، الفارق الجوهري: عقول الرجال والنساء وحقيقة مرض التوحد The Essential Difference: Male and Female Brains and the Truth about Autism (نيويورك: الكتب الأساسية، ٢٠٠٣).

(٢) المرجع السابق، هنا وهناك، مثلاً الفصل العاشر.

(٣) س. بارون كوهين S. Baron-Cohen و س. ويلرايت S. Wheelwright «قسمة التعاطف: دراسة على البالغين المصابين بمتلازمة أسبرجر أو التوحد الوظيفي الشديد، والاختلافات الجنسية الطبيعية The Empathy Quotient: An Investigation of Adults with Asperger Syndrome or High Functioning Autism and Normal Sex Differences»، مجلة التوحد والاضطرابات النامية Journal of Autism and Developmental Disorders ٣٤ (٢٠٠٤): ١٦٣-١٧٥؛ س. بارون كوهين S. Baron-Cohen وزملاؤه، «قسمة طيف التوحد: دليل من متلازمة أسبرجر/ التوحد الوظيفي الشديد، الرجال =

أن مرض التوحد في حالته الشديدة يعد الأسوأ من طيف من الحالات بما فيها متلازمة أسبرجر، وأولئك المصنفون بالإصابة بالتوحد الوظيفي الشديد (إتش.أف.أيه HFA) (ويُشار بـ: «أيه.أس.دي ASD» إلى الذين يعانون من أي اضطراب من طيف التوحد).

اضطراب طيف التوحد (أيه.أس.دي ASD) والدّين

جرت مؤخرًا بعض الدراسات حول المعتقدات الدينية لأولئك الأشخاص الذين يعانون من اضطراب طيف التوحد (أيه.أس.دي)، فقد كتب ديلي Deeley أنه لاحظ وجود ارتباط وثيق بين البالغين الوظيفيين المصابين بدرجة متقدمة من التوحد من جهة ونقص المعتقدات الدينية - وخاصة الإلحاد - من جهة أخرى[1]. ونرى أنَّ تفسير ديلي يدعم المخطط العام للإلحاد الذي قدمناه هنا، والتركيز هنا أساسًا منصب على نموذج الأب المعيب، حيث يُنظَر إلى سلوك الأب «السيئ» أو المعيب بأنَّه يهيئ الظروف لرفض كل شيء يمكن أن يرتبط بـ «الأب» بما فيه الاعتقاد بالله.

=والنساء، العلماء والرياضيين The Autism Spectrum Quotient (AQ): Evidence from Asperger Syndrome/High Functioning Autism Males and Females Scientists and Mathematicians، مجلة التوحد والاضطرابات النامية Journal of Autism and Developmental Disorders ٣١ (٢٠٠١): ٥-١٧.

(١) ك. ديلي، «النمط الإدراكي والروحي والفهم الديني: حالة التوحد Cognitive Style Spirituality and Religious Understanding: The Case of Autism»، مجلة الدين والإعاقة والصحة Journal of Religion Disability and Health ١٣ (٢٠٠٩): ٧٧-٨٢.

يمكن أن تنشأ العلاقة السيئة أو الضعيفة مع الأب نتيجة (ضعفٍ في العلاقات) أو نتيجة (عمىً عقلي) موروث، يبتدئ بها الطفل حياته البائسة، التوحد حالة مبكرة في الطفل تحرمه كليًا - أو تعيقه بشدة - من إنشاء علاقة أو صلة مع أبيه، ومع الناس عمومًا، وبما أنَّ المعتقدات الدينية (على الأقل في الديانتين المسيحية واليهودية) يقتضي وجودها بناء علاقة مع الذات الإلهية، وأن الذي يعاني من مرض التوحد يعاني من صعوبة إنشاء علاقة مع أي أحد، سيكون من الصعب جدًا عليه أن ينشئ علاقة مع الله، وأن يستوعب المعتقد الديني، فعلى سبيل المثال يفسر أغلب المسيحيين دينهم بأنه امتلاك قاعدة شخصية وتجريبية قوية تربطهم بالله الآب، ويسوع الابن والروح القُدُس، وهذه العلاقات هي جوهر حياتهم الدينية، لقد كانت الديانة اليهودية من عهد إبراهيم وموسى والأنبياء دائمًا متصلة بشدة بالله بعلاقة بين أفراد من اليهود وبين عمومهم، أنا لا أتجاهل الكم الهائل من علم اللاهوت المنطقي والمنظَّم والفكر اللذين انتجتهما هاتان الديانتان، ولكن أريد أن أؤكد على أنَّ الطبيعة الحية لهاتين الديانتين متأصلة في العلاقات[1].

---

(١) لعرض فلسفي حديث عن الطبيعة الشخصية لله وعلاقاته الشخصية مع المؤمنين التي تدعم كثيرًا الموقف المطروح مع أخذ الأشخاص المصابين بالتوحد بالحسبان، راجع ر. سكروتون، وجه الله: محاضرات جيفورد ٢٠١٠ The Face of God: The Gifford Lectures ٢٠١٠ (لندن: كونتينوم، ٢٠١٢).

فإذا كان لدينا شخص مصاب بصمم النغم، فمن البديهي أنَّه لن يستطيع الحكم على نوعية وأهمية موسيقى ما، أو أنه قد ينكر حتى أنَّ الموسيقى أصوات متميزة عن غيرها، وبالمثل، شخص مصاب بـ «صمم العلاقات»، بمعنى «أعمى العقل» أو انطوائي للغاية، هل سيكون قادرًا على فهم وجود ذات إلهية، وعلى فهم الأديان المتعلقة بهذا الإله؟ ومن المثير للاستغراب أن العديد من البالغين المصابين باضطراب طيف التوحد (أيه.أس.دي) يملكون فكرًا تجريديًا وتنظيمًا منطقيًا، شبيهًا بالميزات والخصائص الفكرية التي تزدان بها عقول العلماء، وخبراء الرياضيات، والفلاسفة وغيرهم... وكما ذُكر أن لديهم حياة عقلية هي أكثر شيوعًا في الرجال منها في النساء[1]، وتشمل الخصائص النفسية المرتبطة بمرضى المستوى العالي من اضطراب طيف التوحد (التوحد الوظيفي الشديد أتش.أف.أيه HFA): التفكير الحرفي المتحجر، والانزعاج من الإيحاءات الرمزية، وتجنب التعابير المجازية، والانجذاب نحو العلمية كرؤية شاملة للعالم، والحاجة إلى التشابه، وعدم القدرة على التنبؤ[2]، وبالتالي يمكن أن يتنبأ هذا التفسير التوحدي للإلحاد بنزعة مزاجية لنسبة كبيرة من الأشخاص

---

(١) بارون كوهين، فارق جوهري Essential Difference، هنا وهناك.

(٢) سي. كالدويل-هاريس C. Caldwell-Harris وزملاؤها «النظم العقائدية الدينية عند الأشخاص المصابين بالتوحد الوظيفي الشديد Religious Belief Systems of Persons with High Functioning Autism»، قدمت في اللقاء السنوي للجمعية المعرفية (بوسطن، ٢٠١١)، ص. ٣٣٦٣.

الذين يستخدمون التفكير التجريدي والمنهجي، مع ميلٍ تجاه المعنى المتحجر، ويكرهون التفكير المجازي، بالإضافة إلى ضعف علاقاتهم الشخصية أو انعدامها، فيكونون مهيئين عصبيًا للإلحاد كنتيجة لإصابتهم المفترضة بالمستوى الخفيف إلى المتوسط من اضطرابات طيف التوحد، وهذا لا يعني بالتأكيد أن جميع الأشخاص المعنيين بهذا النوع من الحياة العقلية سيكونون حتمًا ملحدين أو أنهم جميعًا يعانون من اضطراب طيف التوحد الخفيف (أيه.أس.دي)، إنما نسبة أكبر من المعدل الطبيعي ستلائم هذا التفسير، وبطبيعة الحال، فإن هذا من شأنه أيضًا جعلنا نتوقع بأن يكون الإلحاد أكثر شيوعًا في الرجال منه في النساء طالما أنَّ اضطراب طيف التوحد (أيه.أس.دي) أكثر شيوعًا عند الرجال، وهناك أدلة كثيرة لميل الذكور إلى الإلحاد مقارنة بالإناث[1]، وباختصار شديد، ليست مشكلة الإلحاد مجرد آباء معيبة تدفع بالأبناء نحو الإلحاد، ولكن أيضًا إصابة

---

(١) ل. روث L. Roth وج. سي. كرول J. C. Kroll، «أعمال محفوفة بالمخاطر: تقييم التفسيرات الخطرة والتفضيلية للاختلافات الجنسية في التدين Assessing Risk-Preference Explanations for Gender Differences in Religiosity»، المراجعة الاجتماعية الأمريكية American Sociological Review ٢٧ (٢٠٠٧): ٢٠٥-٢٢٠؛ ر. ستارك R. Stark، «الفيزيولوجيا والإيمان: مقابلة الاختلاف الجنسي 'العالمي' في الالتزام الديني Physiology and Faith: Addressing the ‹Universal› Gender Difference in Religious Commitment»، مجلة الدراسات العلمية للدين Journal of the Scientific Study of Religion ٤١ (٢٠٠٢): ٤٩٥-٥٠٧؛ ت. والتر T. Walter و ج. ديف G. Davie، «تدين النساء في الغرب الحديث The Religiosity of Women in the Modern West»، المجلة الاجتماعية البريطانية British Journal of Sociology ٤٩ (١٩٩٨): ٨٧٩-٨٩١.

الأشخاص أنفسهم بالعمى العقلي وما يرافقه من نزعات تؤدي إلى عجزه في بناء علاقات مع الآخرين تجعله أيضًا ميالًا للإلحاد.

وقد أجرت كالدويل هاريس Caldwell-Harris وميرفي Murphy وفيلاسكيز Velazquez وماكنمارا McNamara بحثًا يدعم تفسير ديلي[1]. فقد وجدوا أن الأشخاص المصابين بالتوحد الوظيفي الشديد (إتش إف إيه) كانوا أكثر قربًا مقارنة مع مجموعة مقارنتنا العصبية ليكونوا ملحدين أو لأدريين (وهم الذين لا يُؤمنون بالله، ولا يكفرون به)، وإذا كانوا مؤمنين يكونون أقرب إلى بناء نظام معتقدات دينية خاص بهم، كما كانت نسبة الكفر والإلحاد أعلى أيضًا عند أولئك الذين تجذبهم الأنشطة المنظمة بقياس ذلك بقسمة ممنهجة[2] Systemizing Quotient، وقد أعلن آخرون مؤخرًا نتائج مشابهة في أبحاثهم، من أمثال: نورنزاين Norenzayan وجيرفيه Gervais وترزاسنوسكي Trzesniewski، وقد فُسِّرت بوضوح بمعنى أنَّ النقائص العقلية تكبح إيمان المرء بذات إلهية[3].

(١) كاثرين كالدويل-هاريس C. Caldwell-Harris وزملاؤها «النظم العقائدية الدينية Religious Belief Systems»؛ راجع أيضًا نورنزايانNorenzayan وزملاؤه، «العيوب العقلية تعيق الإيمان بذات إلهية Mentalizing deficits constrain belief in a personal God، بلوس ون PLoS One 7، عدد ٥ (٢٠١٢) http://www.plosone.org/article/info%3Adoi%2F10.1371%2Fjournal.pone.0036880.

(٢) كالدويل-هاريس C. Caldwell-Harris وزملاؤها «النظم العقائدية الدينية Religious Belief Systems»؛ ص. ٣٣٦٢.

(٣) أيضًا نورنزايان Norenzayan وزملاؤه، «العيوب العقلية تعيق الإيمان بذات إلهية Mentalizing

وينبغي أن نضع في اعتبارنا ونؤكد على أن هذا لا يعني بالضرورة أن التدين والإيمان بذات إلهية مستحيل على كل من يعاني من التوحد، ولكن على ما يبدو أنه أكثر صعوبة عليهم من غيرهم، وقد سمعت أمثلة عن مرضى توحد كانوا مؤمنين متدينين، وحتى أنَّ البعض ذكر أن التوحد يمكنه تهيئة معرفة حدسية - وفوق اعتيادية تقريبًا - بالله، ولكن ومع ذلك لا تصل حينها لخبرة أو معرفة شخصية. وكما ذكر فقد حدد بارون كوهين عند نقاشه الفوارق الطبيعية بين عقول الذكور وعقول الإناث، وطريقة التفكير القياسية لكل منهما، حدد التفكير المنهجي والمجرد والهرمي غالبًا بكونه صفة سائدة أكثر عند الرجال نسبيًا. كما أنَّ بعض النتائج الأخيرة غير المنشورة لبيتر مارتن Peter Martin تبدو ذات صلة بموضوعنا[1]، فباستخدام بيانات دراسة منتدى بيو لعام (٢٠٠٧) Pew Forum ٢٠٠٧ Study اقترح أنَّ الرؤى الكونية (دينية أو غير دينية) المرتبطة باعتقاد شديد بإله أكثر تجريدًا بكونه قوة روحية أو كونية غير شخصية (ليست ذات) نسبتها (هذه الرؤى) عند الذكور المؤمنين أكبر مقارنة مع رؤى الذكور المؤمنين الكونية المرتبطة بذات إلهية (إلهي شخصي)، وما يدعم ذلك أنَّه وجد

deficits constrain belief in a personal God، بلوس ون PLoS One 7، عدد ٥ (٢٠١٢) http://www.plosone.org/article/info%3Adoi%2F10.1371%2Fjournal.pone.0036880. ٣دبليو. ستيلمان، التوحد والصلة مع الله Autism and the God Connection (نابيرفيل، ولاية إلينوي: الكتب المصدرية، ٢٠٠٦).

(١) ب. إي. مارتين، الإلحاد المحدد: نتائج تجريبية من العلوم الاجتماعية، رسالة ماجستير في العلوم قيد التحضير.

نسبة الرؤى الكونية عند الذكور male proportion of worldviews في عينات المجموعات كانت كالتالي:

الملحدين: ٧٠٪

اللا دينيين: ٦٤٪

البوذيين: ٥٣٪

المسلمين: ٥٤٪

الكاثوليك: ٤٦٪

مجموع البروتستانت: ٤٦٪

وتُظهر هذه البيانات ترتيبًا معكوسًا تقريبًا إذا ما تحول السؤال للإيمان بذات إلهية، وتظهر أيضًا أن المجموعة الأقوى إيمانًا والأكثر تصديقًا عمليًا بذات إلهية في هذه المجموعات، كان عدد الرجال فيها أقل من عدد النساء.

واستشهد بارون كوهين بألبرت أينشتاين كمثال على شخص ربما عانى من متلازمة أسبرجر، وذلك لأنه وُصِفَ عندما كان طفلًا بالانطوائية والخجل، وأظهر أنماطًا سلوكية شبيهةً بالتي لمرضى التوحد، وعندما بلغ سن الرشد، تابع حياته بنفس العقلية لكن مع كثير من المصاعب الاجتماعية[1].

(١) بارون كوهين، «النظم العقائدية الدينية»، ص. ١٦٧.

لم يكن أينشتاين ملحدًا؛ بل كان يملك وجهات نظر دينية خاصة وفريدة، ويبدو جليًا أن إلهه الذي يؤمن به كان إلهًا مجردًا غير شخصي (ليس ذاتًا) وضع هذا النظام المنهجي للكون[١]، ويبدو الفرق بين إدراك آينشتاين وإدراك باسكال للإله واضحًا من قطعة الرق الشهيرة المسماة (النصب التذكاري Memorial)، التي وُجِدَت مخاطة داخل معطفه بعد وفاته ومكتوب عليه: «النار، إله إبراهيم وإله إسحق، وإله يعقوب ليس إله الفلاسفة والعلماء، اليقين، اليقين، محبة، فرح، سلام، إله يسوع المسيح. . . لن أنسى كلامك.. آمين»[٢].

ولا عجب أنَّ باسكال نال شهرة بسبب بعض الأقوال مثل:

للقلب أسبابه التي لا يدري بها العقل.

شيئان متساويان في درجة خطرهما: الإقصاء المطلق للعقل، وعدم الاعتراف إلا بالعقل[٣].

وحرِّي بنا أن نذكر هنا أنَّ الفيلسوف دانيال دينيت انتقد الأهمية النوعية لتجربة الإنسان الأول كمصطلح عقلي فريد وهام للعقل، وقد أعاد تعريف مثل هذه التجارب ضمن مصطلح الشخص الثالث، وبقيام دينيت بهذا (كما فعل

(١) إله أينشتاين الشخصي معروف جدًا. تتوافر كثير من المصادر لإثبات هذا.

(٢) تُعرف كذلك بـ «ليلة نار» لباسكال. تتوافر عدة مصادر لها على الإنترنت.

(٣) هذه الاقتباسات المعروفة جدًا استُذكِرَت من كتاب لـ غودريدز Goodreads بعنوان «اقتباسات لبليز باسكال Blaise Pascal Quotes»، http://www.goodreads.com/author/quotes/10994.Blaise_Pascal.

الفيلسوف المُلحد جلبرت رايل Gilbert Ryle الذي أثّر فيه) أنكر دينيت صلة الخبرة المباشرة لعقولنا بإمكانية الوصول لأي فهم لطبيعة الواقع[1]. ويمكننا تعليل استبعاد الفلاسفة والعلماء لمثل هذا النوع من الخبرات ذات الصلة بأنه استجابة توحدية لشخص لا يقدر نظرية العقل[2].

---

(١) دينيت، «دانيال دينيت: السيرة الذاتية (الجزء ١)»، الفلسفة الآن Philosophy Now ٦٨ (أيار/حزيران ٢٠١٣): http://philosophynow.org/issues/68/Daniel_Dennett_Autobiography_Part_1.

(٢) هذا الانعكاس مثير للاهتمام، فهو انعكاس على الطبيعة «التوحدية» للنظرة الحديثة للعلم التي أصبحت مهيمنة في زمن غاليلو وباكون، وخصوصًا مع ديكارت. إنَّ رفض الميتافيزيقيا الكلاسيكية لأرسطو كان رفضًا يركز أكثر ما يركز على الفكرة القائلة بأنَّ السبب النهائي جزء من الواقع الطبيعي. فيفترض أن تكون الطبيعة بلا غاية أو سبب نهائي؛ بالمختصر الطبيعة – وبأخذ التوحد بالحسبان فكل العالم وليس الطبيعة فقط – يجب فهمها دون أي خصائص شبيهة بالعقل. لطالما أثبت هذا الافتراض إنتاجية شديدة في العلم الحديث، لكنَّه افتراض رفضَ كثيرٌ من العلماء الكبار ملائمته لمجمل الواقع، علماء رأوه بصدق افتراضًا وليس طريقة لفهم الأمور. دعي هذا بـ افتراض الطبيعية والذي تدعمه فلسفة العلمية. ورفضه كثير من العلماء الكبار من أمثال نيوتن وليبنز وماكسويل وأمثالهم بكونه حركة فكرية عندما طبق على الواقع ككل. أما تفسيرنا فهو كالتالي: الافتراض الذي يمكن فهم الواقع كله فيه دون مرجع لأي حالات عقلية (حالات مثل التجُربة النوعية والمعنى والنية) هو تعبير عن التوحد والتجريد وإنكار العقل وتفكير مفرط الذكورة، وبذلك هو طريقة تفكير فقيرة.
يجب ذكر أنَّه دخل مجال فلسفة الرياضيات والعلم مؤخرًا عدد كبير من المفكرين عاليي المستوى يدافعون عن ميتافيزيقيا أكثر دينامية، وفي بعض الحالات – مثل تالبوت Talbot (انظر أدناه) – عن ميتافيزيقيا أرسطوية جديدة. النمو الأخير النسبي لنظرية الأصناف (رياضيات مجردة وعامة ومهمة للغاية) كانت مدفوعة جزئيًا بفهم أنَّ العلاقات - وربما النوايا – يجب أن تكون بين أساسيات أي تفسير عام للرياضيات. فمثلًا علق الرياضي والفيلسوف جون سي. بايز John C. Baez من جامعة كاليفورنيا على نظرية الأصناف category theory بالتالي:
«أحد أكثر الإنجازات الرائعة لبواكر القرن العشرين كانت تشكيل كل الرياضيات بلغة ذات مفردات فقيرة بتأن deliberately: لغة نظرية المجموعات set theory ... لكن تمثل [نظرية المجموعات et theorys] ذروة النظرة العالمية التي يمكن اعتبار الأشياء من خلالها أكثر أساسية من العمليات أو العلاقات.»

من الملائم والمفيد بعد الانتقادات الكثيرة للإلحاد، أن نذكر بعض المساهمات الإيجابية لبعض المفكرين الملحدين.

فرغم ميل «الملحدين الجدد» إلى التشدد بإفراط، إلا أنَّ هذا التشدد ليس سمة عامة عند كثير الملحدين المفكرين، حيث تبيَّن لي من خلال تجاربي، أن

«إحدى الأجزاء المهمة لنظرية الأصناف التعليمية هي كسر عادات معينة ربما اكتسبت من نظرية المجموعات. فمثلًا في نظرية الأصناف يجب على المرء مقاومة إغراء «استراق النظر في الأشياء». فتقليديًا الشيء الأول الذي يسأل عنه المرء عن مجموعة ما هو: ما هي عناصرها؟ فأي مجموعة أشبه بحاوية، ومحتوياتها هي أكثر ما يهم فيها. لكن في نظرية الأصناف فإنَّ أي جسم ليس بالضرورة أن يحوي «عناصر» أو أي نوع من البنى الداخلية. حتى إذا حوى بعضها، فليس ذلك هو ما يهم! ما يهم فعلًا عن جسم ما هو تشكيلاته من وإلى باقي الأجسام. وبهذا تشجع نظرية الأصناف رؤية كونية علائقية لا توصف فيها الأشياء من ناحية مكوناتها، إنما بعلاقاتها مع أشياء أخرى» (جي. سي. بايز J.C. Baez «بُعد أعلى للجبر وفيزياء مقياس بلانك Higher-Dimensional Algebra and Planck-Scale Physics»، في الفيزياء تلتقي بالفلسفة في مقياس بلانك Physics Meets Philosophy at the Planck Scale، تحرير سي. كاليندر C. Callender و ن. هوغيت N. Huggett [كامبريدك، المملكة المتحدة: مطبعة جامعة كامبريدج، ٢٠٠١]. اقتباسات من ٢٨ كانون الثاني، ١٩٩٩، ماجستير في العلوم، الأقسام sec. ٥، ١٤، ١٥).

من منظورنا الحالي يعدُّ اختزال الرياضيات وكثير من الأشياء الأخرى معها لمجموعات من الأشياء هو مثال آخر للتحيز التوحدي لكن ضمن فكرٍ أكثر حداثة.

ومن الأمثلة الأخرى المعاصرة لادعاء أرسطوي أولي أكبر بكثير هو العمل الذي قام به عالم الأحياء النظرية ستيف تالبوت .Talbot راجع س. تالبوت S. Talbot، «تخطي وهم الشفرة Getting over the Code Delusion»، أطلنطس الجديدة The New Atlantis، صيف ٢٠١٠، ٣-٢٧؛ «الشمولية التي لا تطاق للكائنات The Unbearable Wholeness of Beings»، أطلنطس الجديدة The New Atlantis، خريف ٢٠١٠، ٢٧-٥١؛ «ماذا تعني الكائنات الحية؟ What Do Organisms Mean?» أطلنطس الجديدة The New Atlantis، شتاء ٢٠١١، ٢٤-٤٩. جادل تالبوت فيما يتعلق بالأنظمة الحية أنَّ وجود غاية أو غاية نهائية أمر ضروري.

مثل هؤلاء الملحدين عادةً ما يكونون فلاسفة على مستوىً عالٍ من الفلسفة أو علماءَ واسعي المعرفة الفلسفية (غالبًا ما يكونون علماء فيزياء) وهم على اطلاع بالطبيعة التاريخية للمناقشات، كما أنهم يدركون صعوبة الوثوق بحجة أو نظرية ما، وبإيجاز، هم يناقشون قضية الإلحاد من منظور عقلاني حقًا، ولمثل هؤلاء اللادينيين والملحدين أرفع قبعتي بإجلال، فهم ليسوا فقط صادقين في شكهم وارتيابهم، ولكنهم نافعون أيضًا، حيث يعدون تحديًا ضروريًا للدفاع العقلي عن الاعتقاد بالله، وينبغي على جميع المفكرين أن يكونوا مستعدين للاعتراف بشجاعة أنَّ تفسيراتهم قد تكون خاطئة، أو على الأقل يمكن أن تكون في حالات كثيرة قاصرةً، وإحدى هذه المآثر للملحدين العقلانيين والمشكِّكين المعاصرين هي وضع المؤمنين - وخاصة المسيحيين واليهود - تحت النار المصفية refiner's fire في مواجهات نقدية خطيرة، إلا أنَّ هذه المواجهات - بحسب اعتقادي - زادت الحالة المعاصرة للإيمان بالله قوةً.

قد يثير كلامي آنف الذكر حفيظة البعض، لأن ادعائي يطرح قضية تقييم الحالة العقلية لوجود الله، وبحثنا الحالي في الحقيقة غير معنيٍّ بحجة منطقية معينة بطريقة أو بأخرى، ولكنه يُركِّز على الدوافع غير العقلية أو النفسية المستبطنة عن السبب الكامن لمَ يجد بعض الناس صعوبة بالإيمان بالله ويجد آخرون سهولة بذلك، لا شك أنَّه من وقت لآخر يطرح التساؤل المتعلق بالحالة المنطقية للإيمان

بالله، ولهذا اعتدتُ في مثل هذه الحالات على استخدام الحواشي لتذكير القُرَّاء بالمصادر المناسبة، لكُتَّاب فلاسفة وعلماء.

إن الدافع الذي يجعل الملحد يطعن في فكرة الايمان بوجود الإله، هو أنه لا يرى وجودًا لمثل هذا الإله؛ إنما يرى فقط بنية نفسية تمثل الله أنشأها – بحسب ظنه – كل واحد منا بنفسه، وأنَّ هذه البنية الداخلية أيضًا نشأت نتيجة احتياجاتنا الأنانية المقنَّعة، أو نتيجة احتياجات أخرى، وأنَّ التطور نفسه ربما هو ما أنشأها. وأرى هذا النقد صحيحًا إلى حد ما؛ لأن ما نلمسه من التمثيل النفسي لله عند بعض البشر ما هو إلا تبرير ذاتي، وهذا النقد يجد ما يؤيده من النصوص فهو يشبه تمامًا الموقف الديني التقليدي الذي جاء ذكره الله في الوصية الأولى من الوصايا: «لا يكن لديك إله غيري».

إن الوثنية هي عبارة عن عبادة الأشياء التي يصنعها الإنسان بنفسه ولنفسه. وهي في الأصل، أشياء خارجية صنعها الإنسان، ولكن عبادة الأصنام تعني أيضًا عبادة أشياء عقلية داخلية شُيِّدت لتلبي احتياجاتنا النفسية، وإن خطورة محبة الإنسان لإله صنعه البشر يرضي معتقداته ورغباته لطالما أدركتها شخصيات دينية عظيمة، وذكر باسكال – رغم أنَّه مؤمن قوي الإيمان – هذه المشكلة جيدًا بقوله: «لا يقترف الرجال الشر بطريقة مكتملة وبسرور بالغ بنفس الدرجة التي

يفعلونها عندما يكون دافعهم في ذلك هو الإيمان الديني»[1].

وتُوصف فترة النضوج الروحي في أغلب الأحيان بأنها صراع تفسير الله ضمن نطاق تبريراتنا الذاتية الخاصة، وتتطلب الرحلة الروحية عادة ما يسمى «النار المُصفِّية refiner's fire» والتي تحرق التركيبات النرجسية التي تعيق فهمنا لله أو البدائل النفسية عنه، فتلك النيران ستحرق بألم كل الدفاعات والإسقاطات وباقي «الراحة» مما سيسمح في النهاية بحب الله في غياب جوائز للنفس، وهذه العملية يمكن أن تسبب معاناة شديدة، شبيهة بمعاناة أيوب، حيث كانت الغاية من «البلاء» الذي وقع عليه هو إظهار أنَّه حتى بزوال جميع الجوائز

سيظل يحب الله، وباختصار، يمكن أن يكون النقد النفسي الذي يقدِّمه الإلحاد مذكِّرًا ذا قيمة يساعد المؤمن في كفاحه في تجنب عبادة إسقاطٍ من نفسه؛ تجنب عبادة نوع من المعبود النفسي الداخلي.

***

(١) غود ريدز Goodreads، «اقتباسات بليز باسكال»،
http: / /www.goodreads.com /author /quotes /10994.Blaise_Pascal.

٧- إضافات أخيرة في التحليل النفسي

اعتبارات تاريخية

يتبادر إلى الأذهان تساؤلٌ هامٌ يتعلق بفرضيتنا القائمة على الجانب النفسي للإلحاد وهو: أين كان كل هؤلاء الملحدين قبل حلول القرن الثامن عشر؟ فقد كان هنالك العديد من الآباء المعيبين وتواجد الكثير من مرضى التوحد على مرِّ السنين! لكن رفض الله كموقف فكري وديني ظهر في الثقافة الغربية منذ قرون قليلة فقط، فكيف يمكننا تفسير ذلك؟ يبدو لي واضحًا أن الآباء السيئين أو الضعاف أو الميتين رغم أنَّهم مساهم أساسي في هذا الإلحاد، إلا أنَّ الاقتصار عليهم بعيدٌ كل البعد عن التفسير الكامل للظاهرة، وعلينا ألا ننكر أنَّ القوى الثقافية والدعم في هذه الحقبة الزمنية كانت داعمة بقوة لظاهرة الإلحاد الصريح والعلني، وليس معنى هذا أنَّ الجانب النفسي الذي ركز عليه هذا الكتاب لم يكن موجودًا في القرون السابقة للإلحاد، إنما عُبِّر عنه بطريقة مختلفة عندما كانت الثقافة غير مهيئة لتقبل الإلحاد، وهذا يثير التساؤل التالي: كيف كان يعبر عن الجانب النفسي فيما يتعلق بالأب المعيب قبل ظهور هذا الكفر المنهجي؟

يُفترض أنه كان هناك العديد من طرق للتعبير عن مثل هذا، فعلى سبيل المثال:

انتشار العداء والكراهية للآباء ورموز السلطة، كالملك، والإله، والباباوات، ورجال الكنيسة رفيعي المستوى.

التعبير عن مواقف الكراهية تلك بأشكال كثيرة ومتعددة من هجاء وسخرية.

المشاركة في التمرد، والعصيان والهرطقة والبدع والعديد من التعابير الاجتماعية الأخرى لهذه العقلية المبطنة.

وكُتب مؤخرًا الكثير عن ظاهرة غياب الآباء في الأُسَر الأمريكية[1]، ومن المحتمل أن هذا الانتشار الواسع لظاهرة الأب المعيب سيسبب زيادة في المواقف المتشككة من وجود الله، ولكن قد يؤدي أيضًا إلى تزايد أعداد الذين سيشعرون بـ «الجوع الأبوي»، والذي يمكن أن يعبر عن نفسه بعدة طرق، بدءًا بالعودة إلى الأديان التقليدية، وحتى تقديم الدعم للديماغوجيين السياسيين demagogues (الأغلبية المستبدة).

الذكاء والطموح

إضافة إلى العوامل الثقافية والتاريخية، ثمة عامل أساسي آخر مساعدٌ لانتشار الإلحاد رغم عدم كفايته، وهو سمة الكفاءة الفكرية التي يتمتع بها الملحدون الشعبيون الأساسيون، وليس هناك أدنى شك في أن كل من ذكرت

(١) د. بلانكينهورن D. Blankenhorn، أمريكا فاقدة الأب Fatherless America (نيويورك: الكتب الأساسية، ١٩٩٥).

من الملحدين البارزين كانوا أيضًا متفوقين فكريًا، وبالتالي قادرين على كيل الانتقادات الفكرية الذكية والمبتكرة في كثير من الأحيان، فكل لاعب كرة سلة ماهر تجده طويل القامة نسبيًا؛ وبالمثل، كل الملحدين البارزين أذكياء للغاية.

وهناك سمة أخرى تبدو أنها متواجدة بكثرة بين أغلبية الملحدين، ألا وهي تحليهم بمستوىً عالٍ من الطموح وما يتصل به من غطرسة فكرية، فلكي تصبح شخصية مشهورة في عالم الفكر، ينبغي أن تمتلك طموحًا وقوةً كبيرتين؛ ويستدعي التمسك برأي معارض للأغلبية الساحقة ثقة بالنفس من النوع القائم على الغطرسة أو يؤدي إليها، ولدينا الآن كثير من أمثال هؤلاء الملحدين المتغطرسين الطموحين حسبما وصفهم كُتَّاب سيرهم الذاتية.

فقد وُصف فولتير Voltaire بأنه نادرًا ما كان يحاول إخفاء تفوقه الفكري، وذكر أحد أساتذته في مدرسة الليسيه lycée (مدرسة ثانوية فرنسية) أنه لم يلتقِ قط بطالب مثله «متعطش إلى أقصى حد من الشهرة»[1]. وفي الحقيقة، لقد أجمع كل كُتَّاب سيرته الذاتية على طموحه وغروره الفكري، وكان شغفه ينصب على الشهرة؛ ولم يكن بكل تأكيد مدفوعًا بدافع حبه للآخرين، وبالمثل، وُصف فيورباخ Feuerbach بأنه شخصية منعزلة، ما «كان نتاج غروره الفكري غير المشبع»، ويعتبر فيورباخ نفسه «فيلسوفًا بالغ

(١) أ. د. ألدريدج A.D. Aldridge، فولتير وعصر النور Voltaire and the Century of Light (برينستون، مطبعة جامعة برينستون، ١٩٧٥)، ص. ١٢.

الأهمية»، «وهذا الموقف هو ما ساعده كثيرًا في «ثباته الراسخ على غطرسته الفكرية»[1]، ونرى مثل تلك الغطرسة والطموح في نيتشه Nietzsche وفرويد Freud وراسل Russell، وقد كان غرور وكبرياء نيتشه - الذي وصل به في الغالب حد الشفقة - معروفًا للجميع، وكانت فلسفته في الواقع، مهرجانًا لتمجيد الرغبة بالسلطة، والرجل الخارق، وجرأته في التهكم على الله بمقولته: «لقد مات الله» كانت فلسفته عبارة عن هجوم عنيف مستمر على المسيحية، وخصوصًا على السيد المسيح في بعض الأحيان، ولكن وإلى جانب ادعاء أنَّه رجل خارق فقد كان يشير لنفسه بأنه «الشخص المصلوب»، ما يشير إلى مثقال ذرة من تواضع، وكذلك سيغموند فرويد Sigmund Freud، فكثيرًا ما كان يصفه كاتب سيرته بالطموح، وأفضل ما يلخص هذه السمة في شخصية فرويد هي الجملة التي قاله عن نفسه: «إنني في الواقع لست رجل علم على الإطلاق، لست مراقبًا، ولا مجربًا.... وأنا بطبعي فاتح منتصر، أنا مغامر»[2]. وكثيرًا ما ذكر نقاد فرويد طموحه وثقته الفكرية المفرطة؛ وغالبًا ما كان يرفض بغرور

كل من يخالفه، وأما غرور بيرتراند راسل وكراهيته الشديدة وبروده النفسي

---

(١) إي. كامينكا E. Kamenka، فلسفة لودفيج فيورباخ Philosophy of Ludwig Feuerbach (نيويورك: بريجير، ١٩٧٩)، ص. ١٥٥.

(٢) م. شور M. Schur، فرويد: العيش والاحتضار Freud: Living and Dying (نيويورك: مطبعة الجامعات العالمية، ١٩٧٢)، ص. ٢٠١.

وأكاذيبه المتكررة، كل تلك الصفات نوقشت في سيرة حياته الرئيسية الأخيرة التي دوَّنها الكاتب راي مونك .. Ray Monk[1]

استياء ووصية

يرفض بعض الناس الدين والإيمان بالله بسبب الأشياء المخيفة التي تُرتكب في بعض الأحيان باسم الدين أو باسم الله، رفضهم هذا يمكن أن يكون منطقيًا تمامًا وله ما يبرره في الواقع، فيجب على المؤمنين مناقشة هذه الانتقادات لا رفضها دون دليل على بطلانها، وقد يرفض البعض الدين والإيمان بالله بسبب ما عانوه مع الألم والأذى، أو لأن كل ما تعرَّفوا عليه من تعاليم الكتاب المقدس كان ساذجًا جدًا، وإنَّ ردود الأفعال الكفرية هذه في مواجهة قضايا الإيمان ليست بعيدة عن المنطق، إلا أنها من وجهة نظر المؤمن العاقل غير مبررة لوجود فهم أعمق لتلك القضايا.

ولكن أحيانًا تُخفي هذه الحجج المختلفة عن الدين السيئ وراءها سببًا أعمق لرفض الله والدين؛ فبعض الناس لديهم كراهية شديدة وخوف من الخير، ومن الحقيقة، ومن الجمال، فكل هذه الأشياء تنسب إلى الله، وغالبًا ما تتواجد في الأشخاص المتدينين الأتقياء، ولكن لماذا قد يحمل أي شخص مثل هذه الدوافع؟ كيف يمكن أن يحصل ذلك؟ والجواب أن هؤلاء الأفراد يشعرون بالاستياء من الخير لأنه يفضح حالهم عند مقارنتهم به، ويُكشفون أمام الملأ

(١) ر. مونك، بيرتراند راسل: روح الخلوة، ١٨٧٢-١٩٢١ (نيويورك: المطبعة الحرة، ١٩٩٦).

أنهم ليسوا خيرين، وربما أشرار للغاية؛ ويستاؤون من الحقيقة لأنَّهم يفضلون الأكاذيب على القيود التي توجد بقبول الحقيقة، وحتى أنَّ الكثيرين منهم يفضِّلون قبحهم وأعمالهم السيئة أكثر من الأشياء الجميلة الحسنة التي يقدمها غيرهم، ويشعرون بالمتعة في العبث وتدمير كل ما هو حسن أو جميل أو صحيح، حسدًا وغيظًا من عند أنفسهم.

وأخيرًا، هناك العامل الشخصي الأكثر أهمية، وهو ما يمكن التعبير عنه بأفضل وصف بأنَّه الإرادة الحرة، وبعد هذا، يتوجب على كل إنسان، مهما تعرَّض من ضغوط ثقافية وشخصية، سواء كانت لصالح الإلحاد أو معارضة له، عليه أن يختار في نهاية المطاف، وبمحض إرادته، الطريق الذي يسلكه، فكل شخص يمكنه أن يختار في أي لحظة من لحظات عمره - أو على الأقل في مرات عديدة - السير إلى الله، أو بعيدًا عنه، أو ضده.

ومن الأمثلة على أهمية الإرادة نذكر القصة التالية عن أدولف هتلر، يرويها ألبرت سبير Albert Speer رئيس المهندسين المعماريين لدى هتلر، حيث قال إنَّه قبل سقوط الرايخ الثالث لم يرَ هتلرَ منزعجًا بشدة بالغة إلا مرة واحدة. وقد اقتبستُ القصة كما لخصها بنديكت السادس عشر جروسكل Benedict Groeschel:

«في عام ١٩٣٥ كان لفوهرر Führer ما يفترض أنَّه لقاء هامشي وروتيني

مع رئيس الأساقفة المتعنتين والمناهضين للنازية في ميونيخ، الكاردينال فليبر Cardinal Faulhaber، استمرت نصف الساعة المقررة للاجتماع عدة ساعات، وكان هتلر ينتفض غضبًا في نهاية المقابلة، وبالنظر إلى المستقبل الوظيفي للكاردينال، الذي كان واحدًا من نقاد هتلر الأكثر جرأة في ألمانيا، ومدافعًا قويًا عن اليهود حتى النهاية، فعلى الأرجح أنَّ ما جرى بينهما هو أن فليبر بيَّن لهتلر العواقب الروحية (والأخلاقية) الوخيمة للطريق الذي كان هتلر يقود ألمانيا فيه. لم يعتقل هتلر فليبر لتماديه وجرأته ووضعه نجمة داود مع الشارة الصفراء yellow armband على تماثيل المسيح والسيدة مريم في كنائسه الأبرشية»[١].

وعلى الرغم من هذا اللقاء المثير، إلا أن هتلر لم يغير من سياساته المعادية لليهود، كما هو معروف، ولدينا كثير من الأسباب التي تجعلنا نعتقد بأن هتلر[٢] في عام ١٩٣٥ كان لا يزال يملك الخيار؛ ففي النهاية كان ينتفض من الغضب بعد اجتماعه مع الكاردينال فليبر وليس غاضبًا فقط، وكما أشرت سابقًا، كان لهتلر والد معيبٌ للغاية، ولكن هذا ليس العامل الوحيد الذي دفعه - أو يمكن أن يدفع أي شخص - للإلحاد، وقد أثار جون لوكاش John Lukacs هذه النقطة في كتابه بأنَّه كان هنالك انعكاس تاريخي هام يؤثر على هتلر.

---

(١) ب. ج. غروشيل B. J. Groeschel، الممرات الروحية: علم نفس التنمية الروحية Spiritual Passages: The Psychology of Spiritual Development (نيويورك: مطبعة كروسرودز، ١٩٨٣)، الصفحات ٦٤-٦٥.

(٢) ج. لوكاش J. Lukacs، التاريخ History (نيويورك: نوف، ١٩٩٧).

وقد وصَّف لوكاش دافع هتلر بأنَّه كان الكراهية الشديدة داخله؛ كراهية غالبًا ما كانت تتغذى في جزء كبير منها على الكراهية الكامنة في ذاته، لدرجة شبه تأكيدية. واعترف لوكاش أيضًا عدة مرات أنَّ هتلر كان قد تعرَّض لسوء المعاملة والإهانة عندما كان طفلًا صغيرًا، ومع ذلك، وضَّح لوكاش أن هتلر كان على علم تام بما كان يقوم به، وقراره بتنمية كراهيته لم يكن ليتخلص منها أو ليكبحها.

***

٨- النموذج الكامل

إن نيتشه وماركس وفرويد هم من أصحاب الشهرة في صياغة النظريات القوية، ولكن هؤلاء السادة الملحدين لم يكلِّفوا أنفسهم عناء البحث ما إذا كانت المعتقدات الدينية صحيحة أم خاطئة، وبدلًا من ذلك توغلوا في السؤال عن الدوافع التي قد تدفع الناس لاعتناق مثل هذه المعتقدات، وكما رأينا خلال هذا البحث، فإنَّ هذا الأسلوب المنصف من التحقق الذي اتبعناه قابل للتطبيق تمامًا على أفكارهم ونظرياتهم، والآن أصبح الوقت مناسبًا لتطبيق النقد - وخصوصًا التأويل من الشك hermeneutics of suspicion - على الملحدين والبنى الاجتماعية «الإلحادية» التي ظهرت مؤخرًا في عصرنا[١].

(١) أثناء تواصل شخصي في العاشر من أيلول عام ٢٠١٢ ذكرت كيث هود Keith Houde أنَّ البابا جون بول الثاني استشهد بالمفكر البروتستانتي بول ريكور الذي سماه فرويد وماركس ونيتشه «سيد الشك» وأنَّه «ثلاث مدمرات عظيمة» (لاهوت الجسد Theology of the Body [TOB]، ترجمة م. فالدشتين M. Waldstein [بوسطن: إعلاميات وكتب بولين، ٢٠٠٦]، ٤٦:١). ويظهر بوضوح تطبيق هذا التأويل الشكي هنا على الملحدين أنفسهم. وبمقارنة إيجابية بالتأويل من الشكوك (لاهوت الجسد ٤٦:١٦) قدم جون بول «تأويلات الهبة» (لاهوت الجسد ١٣:٢).

ربما لهذا نتائجه على علم النفس المتعلق بالإيمان والإلحاد، أي أنَّ أولئك الذين يقبلون بتواضع قبول هدايا الحياة والحب هم متصلون بالله، وأولئك الذين يرفضون هذه الهدايا بكل تكبر ليسوا متصلين به.

وبعدم إغفال هذا فقد أضحى من المناسب وضع توصيف كامل للنموذج الذي عملنا عليه هنا.

وتفسيري النهائي للملحدين هو أن إلحادهم ما هو إلا نتاج وثمرة:

١ - الحقبة التاريخية.

٢ - الصدمات الشخصية وما رافقها من فقدان الشعور بالأمان (على سبيل المثال، الأب المعيب) و/ أو في كثير من الحالات، العجز الشخصي (على سبيل المثال، الخصائص العقلية للتوحد).

٣- الذكاء فوق المتوسط.

٤ - الطموح والحقد وأحيانا الحسد.

٥ - وأخيرًا وليس أقل أهمية: حرية اختيارهم الخاصة.

وبطبيعة الحال، كان تركيزي منصبًا على الآباء المعيبين، وفقدان الشعور بالأمان المرافق لموقف من الاستهتار، ولدرجة أقل الحساسية الشخصية المحدودة أو الناقصة كما هو الحال في التوحد.

***

٩ - الخاتمة

في الواقع، وبناء على التأثير الفعلي المتبادل ما بين المؤمنين وغير المؤمنين، تؤيد الدراسة السابقة ما توصلنا إليه من نتائج، وهي أنَّ الكثير من «الأسباب» الشخصية الشديدة تكمن وراء رفض الكثيرين لوجود الله؛ فإذا كان لدى أحدٍ الرغبة الصادقة في التوصل إلى تفسير سلوك مثل هؤلاء الملحدين، فلا بد له من دراسة نفسيتهم المستبطنة ولو بطريقة غير مباشرة، وبصرف النظر عن الأسباب الشائعة والسطحية، فمن المحتمل أن يكون كثير من غير المؤمنين الكبار يحملون ذكريات أليمة كانت وراء تقبلهم الإلحاد، يجب أن يأخذ المؤمنون هذه الجراحات الداخلية بعين الاعتبار ويحاولوا معالجتها.

بعض من هذه النوعية الشخصية لنفسية الأب المعيب واضحة في السيرة الذاتية لراسل بيكر، وهو صحفي مشهور، ومعروف بكتاباته الفكاهية لصحيفة نيويورك تايمز فعندما كان بيكر في الرابعة من العمر، أُدخل والده فجأة إلى المستشفى، وتوفي هناك، فبكى راسل، وتحدَّث إلى مدبِّرة منزلهم «بيسي Bessie» وقال في ذلك:

لأول مرة أفكر في الله بجدية، وقلت لبيسي وأنا أتنهد: إذا كان الله يمكن أن يفعل مثل هذه الأشياء فينا، فسيكون الله بغيضًا، وليس لي حاجة به بعد الآن.

فحدَّثتني «بيسي» عن السلام في الجنة، وعن السرور الذي يغمر الشخص من وجوده بين الملائكة، وعن السعادة التي تعتري والدي هنالك الآن، ولكن كلامها هذا لم يهدئ من ثورة غضبي، وقالت لي: «إن الله يحبنا جميعًا مثل أبنائه تمامًا» فقلتُ لها: «إذا كان الله يحبني، فلماذا أمات أبي؟».

قالت بيسي حينها أنَّي سأفهم هذا يومًا ما، لكنها كانت محقةً جزئيًا، فبعد ظهر ذلك اليوم، رأيت أنَّه لا يمكنني التعبير عما في داخلي بهذه الطريقة، ومن ثم أيقنتُ أن الله غير مكترث بالناس أكثر مما قد يعترف به أي شخص في منطقة موريسونفيل، وفي ذلك اليوم توصلت إلى أن الله لا يمكن الوثوق به كليًا.

وبعد ذلك لم أعد أبكي أبدًا لأي إيمان conviction، وأصبحت لا أنتظر من إله أي أحد إلا اللامبالاة، وأصبحت لا أشعر بحب عميق دون خوف أن يكلفني ذلك كثيرًا من الألم لاحقًا، وأصبحت في سن الخامسة من المشككين[1].

دعونا نختتم كتابنا بالإشارة إلى أنَّه رغم انتشار الاختيار العنيد بالكفر عند مثقفين طموحين أو متغطرسين أو مستائين، أو رفض ذاتٍ إلهية (إله شخصي) عند المصابين «بالتوحد» والمصابين بالعمى العقلي ومن أصحاب العلم، رغم

(١) ر. بيكر، التقدم بالعمر Growing Up (نيويورك: كونغدون وويد، ١٩٨٢)، ص ٦١.

هذا الانتشار إلا أنَّه ما يزال هنالك في كثير من الحالات مصادر أخرى عميقة ومقلقة للكفر، ومن السهل علينا صياغة فرضية الأب الروحي المعيب، ولكن لا ننسى أو نبالغ في تبسيط الألم والأسباب المعقدة التي تكمن وراء تلك الحالات الفردية. وأما بالنسبة لأولئك الذين هَيَّأَتْ لهم الظروف قبول الإلحاد نتيجة أب رفض ابنه أو أنكره أو كرهه أو أب لعوب أو اعتدى عليه جسديًا أو جنسيًا أو أهمله، هؤلاء الأشخاص يجب فهمهم والتعاطف معهم، وطبعًا بالنسبة للأطفال الذين اضطروا إلى مقت آبائهم، أو وصلوا إلى حالة من اليأس بسبب ضعف آبائهم، فقد عاشوا مأساة حقيقية، كل الأطفال يرغبون بحب آبائهم، وأن يحبهم آباؤهم بدورهم[1].

***

(١) انتظر، سأرسل إليك النبي أليجه قبل قدوم اليوم العبوس القمطرير. وهو سيحول قلوب الآباء إلى أبنائهم وقلوب الأبناء إلى آبائهم» (مالاتشي ٤: ٥-٦، نسخة منقحة قياسية)

هذا الانتشار إلا أنَّه ما يزال هنالك في كثير من الحالات مصادر أخرى عميقة ومقلقة للكفر، ومن السهل علينا صياغة فرضية الأب الروحي المعيب، ولكن لا ننسى أو نبالغ في تبسيط الألم والأسباب المعقدة التي تكمن وراء تلك الحالات الفردية. وأما بالنسبة لأولئك الذين هَيَّأَتْ لهم الظروف قبول الإلحاد نتيجة أب رفض ابنه أو أنكره أو كرهه أو أب لعوب أو اعتدى عليه جسديًا أو جنسيًا أو أهمله، هؤلاء الأشخاص يجب فهمهم والتعاطف معهم، وطبعًا بالنسبة للأطفال الذين اضطروا إلى مقت آبائهم، أو وصلوا إلى حالة من اليأس بسبب ضعف آبائهم، فقد عاشوا مأساة حقيقية، كل الأطفال يرغبون بحب آبائهم، وأن يحبهم آباؤهم بدورهم[1].

* * *

(١) انتظر، سأرسل إليك النبي أليجه قبل قدوم اليوم العبوس القمطرير. وهو سيحول قلوب الآباء إلى أبنائهم وقلوب الأبناء إلى آبائهم» (مالاتشي ٤: ٥-٦، نسخة منقحة قياسية)

المقدمة...

(١) الكسيس دو توكفيل، الديمقراطية في أمريكا، ترجمة جي. لورانس، تحرير ج. بي. ماير (جاردن سيتي، نيويورك: دوبل داي المرساة، ١٩٦٩)، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣.

(٢) جيمس تيرنر، من دون إله وبدون عقيدة: أصول الكفر في أمريكا (مطبعة جامعة جونز هوبكنز، ١٩٨٥)، ٤٤.

(٣) المرجع السابق، الفصل الخامس والسادس.

(٤)راجع على سبيل المثال كتاب الدين في أمريكا، ٥٠ سنة: ١٩٣٥-١٩٨٥.

تقرير غالوب. التقرير رقم ٢٣٦، أيار ١٩٨٥: برينستون، إن ج، بالإضافة للمزيد من نتائج المسوحات الأخيرة.

(٥) ريتشارد جون نيوهاوس، الساحة العامة العارية (غراند رابيدز، ميشيغان: إيردمانس، ١٩٨٤).

(٦) استمر نيهاوس بتوثيق ومناقشة غياب الدين عن الحياة العامة في عموده «المربع العام» في مجلة أول الأشياء.

يوجد تشابه بين الإلحاد الحديث والمواقف الفلسفية اليونانية القديمة الرافضة للآلهة، أو التي تفترض تفاهتها على الأقل، مثل كبت الغرائز وسمات الأبيقورية... الخ.

(٧) سيغموند فرويد، مستقبل وهم (نيويورك: نورتون، ١٩٦١) حضارة ومآسيها (نيويورك: نورتون، ١٩٦١).

(٨) أول النسخ القصيرة المطبوعة للأطروحة الحالية كانت في بي. سي. فيتس «علم نفس الإلحاد»، الحقيقة ١ (١٩٨٥): ٢٩-٣٦؛ بي. سي. فيتس، «علم نفس الإلحاد: نظرية الأب المعيب»، الإخلاص ٥: ٤ (١٩٨٦): ٢٩-٣٦؛ وبي. سي. فيتس «علم نفس الإلحاد والديانة المسيحية»، Anthropotes. ٦: ١ (١٩٩٠): ٨٩-١٠٦.

١ / الإلحاد الحاد...

(١) لمن يرفض الإرادة الحرة (مثل أتباع المذهب المادي وبعض الكالفينين المتشددين) يمكنهم قراءة هذا الكتاب كأطروحة حول تحديد وضع الإلحاد نفسيًا.

(٢) إلى جانب نظرية الإسقاط، يوجد تفسير آخر ذو صلة بالإيمان بوجود الله

طوره فرويد أيضًا، لكن على الرغم من ذلك فله شخصية نفسية بسيطة جدًا، كما أنها أيضًا تعد تبنيًا لموقف فيورباخ بحق، هذا التفسير هو الاستخدام المهمل لفرويد للأنا المهملة، فالأنا الخارق -بما فيه الأنا المثالي، هو «وراثة لعقدة أوديب»، وهو ما يمثل إسقاط الأب المثالي، وبافتراض الإله الأب. راجع سيغموند فرويد، الأنا والهوية، ترجمة وتحرير جي. ستراتشي (نيويورك: نورتون، ١٩٦٢)، ٢٦-٢٨، ٣٨.

الصعوبة هنا هي أن الأنا المثالية لا تتلقى انتباهًا كافيًا أو تطورًا ضمن كتابات فرويد، وعلاوة على ذلك فمن السهل تفسيرها كَتَبَنٍّ لنظرية الإسقاط لفيورباخ، وهكذا يمكننا أن نخلص إلى أن التحليل النفسي لا يزود في الواقع بمفاهيم نظرية لتحديد سمات الإيمان بالله على أنه ذو منشأ عصبي، إما أن فرويد استخدم إسقاط فيورباخ الأقدم أو نظرية الوهم أو أنه أدخل مفهوم فيورباخ للأنا المثالية، يفترض أن هذا هو السبب الكامن وراء إقرار فرويد لـ فيستر أن الـ الوهم في هذه الحالة من الإسقاط لم يكن جزءًا حقيقيًا من التحليل النفسي.

(٣) سيغموند فرويد، مستقبل وهم، ترجمة وتحرير ج. ستراتشي (نيويورك: نورتون، ١٩٦١).

(٤) المرجع السابق، ٣٠.

(٥) لودفيغ فيورباخ، جوهر المسيحية، تحرير إي. جي. وارنج وف. دبليو. ستروثيمان (نيويورك: أونجار، ١٩٥٧).

(٦) أتش. تروسمان، «الخلفية الثقافية لفرويد» في الكتاب الذي حرره ج. غيدو وجي. بولوك، فرويد: دمج العلوم والإنسانية (نيويورك: الصحافة الدولية الجامعات، ١٩٧٦)، ٤٧.

(٧) فيورباخ، ٣٣، ١١، ٤٩. وزيدت تركيزًا.

(٨) سيغموند فرويد وأوسكار فيستر، التحليل النفسي والإيمان: خطابات سيغموند فرويد وأوسكار فيستر، تحرير إتش. منغ وإي. فرينش، ترجمة إي. موسباشر (نيويورك: الكتب الأساسية، ١٩٦٢)، ١١٧.

(٩) ذكر ب. سوالز أن أحد مرضى فرويد (هر إي) كان يؤمن بالكاثوليك، إذا كان الأمر كذلك فإنه المثال الوحيد المعروف لمريض مثله، فطبقا لسوالز فإن هر إي كان مهما لتطوير فرويد لعقدة أوديب، بالطبع من الصعب جعل مريض واحد من فرويد خبيرًا بالدين، كما أن تاريخ هذا المريض لم ينشر أبدًا، ناقش سوالز هر إي في محاضرة لم تنشر، «فرويد، مريضه أور، وأجدادهم ما قبل التاريخ: دور «هر إي» في مفهوم التحليل النفسي، «جمعية علم النفس الوطنية للتحليل النفسي، نيويورك، نيويورك، ١٦ أيار ١٩٩٧.

(١٠) للاطلاع على بحوث ذات صلة راجع أ. إي. بيرجن «التدين والصحة النفسية: إعادة التقييم النقدي والتحليل اللاحق، علم النفس المهني: البحوث والممارسة ١٤:٢ (١٩٨٣): ١٧٠-١٨٤. دي. بي. لارسون وإس. إس. لارسون، «الصحة والالتزام الديني: تقييم العلاقة،» ١٧:١ (١٩٩١): ٢٦-٤٠.

(١١) لمعرفة تطور مفصل لهذا الموقف راجع بي. سي. فيتس وج. غارتنر، «المسيحية والتحليل النفسي، الجزء ١: عيسى كمنافي لأوديب»، مجلة علم النفس واللاهوت ١٢ (١٩٨٤): ٤-١٤؛ فيتس وغارتنر، «المسيحية والتحليل النفسي، الجزء ٢: عيسى كمتحول من المثالية الأنا، «مجلة علم النفس واللاهوت، ن (١٩٨٤): ٨٢-٩٠.

راجع أيضا: بي. سي. فيتس، اللاوعي المسيحي لسيغموند فرويد (غراند رابيدز، ميشيغان: إدمانس، ١٩٩٣). الفصول ٤ و٥.

(١٢) سيغموند فرويد، الإصدار القياسي، المجلد. ١٧، (١٩١٩)، ١٩٣.

(١٣) فرويد، الطوطم والتابو، ترجمة ج. ستراتشي (نيويورك: نورتون، ١٩٥٠).

(١٤) المرجع السابق، ١٤١.

(١٥) المرجع السابق.

(١٦) المرجع السابق، ١٤٢.

(١٧) المرجع السابق، ١٤٣.

(١٨) فرويد، الأنا والهوية، ترجمة ج. ريفيير، تحرير ج. ستراتشي (نيويورك: نورتون، ١٩٦٠).

(١٩) راجع ب. مالينوفسكي، الأب في علم النفس البدائي (نيويورك: نورتون، ١٩٢٧) والجنس والقمع في المجتمع المتوحش (لندن: روتليدج T6 كيغان بول، ١٩٢٧)؛ جورج شميدت، أصل ونمو الدين الطبعة الثانية، ترجمة إتش. ج. روز (لندن: ميثوين، ١٩٣٥)؛ و أ. كروبير وسي. كلوخون، الثقافة (نيويورك: فينتاج، ١٩٥١)؛ و أ. آر. رادكليف براون، الهيكلية والوظيفة في المجتمع البدائي (لندن: كوهين والغرب، ١٩٥٢).

(٢٠) شميت، ١٠٩-١١٥.

(٢١) يتطلب الأمر الكثير من الوقت بعد تطور هذه الفرضية، مررت بعمل الفيلسوف جون ماكموراي حيث إن له أفكارًا مشابهة للمبادئ «الفرويدية»، وبرز ذلك بكتابته: «الرغبة في تدمير الأب وأخذ مكانه هي إحدى أحلام الطفولة ألن يكون ذلك حجة جيدة كتلك التي لفرويد، إذًا سنخلص إلى أن الإلحاد البالغ كان

إسقاطًا لهذا الحلم لكن على مستوىً عالمي». ج. ماكموراي، أشخاص تربطهم علاقة (مرتفعات الأطلسي، ن ج: مطبعة العلوم الإنسانية، ١٩٦١)، ١٥٥.

(٢٢) ن. توري، «فولتير»، في ب. إدواردز، المحرر، موسوعة الفلسفة، المجلد ٨. (نيويورك: ماكميلان، ١٩٦٧)، ٢٦٤-٢٦٥.

(٢٣) أو. الدريدج، فولتير وعصر النور (برينستون، نيو جيرسي: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٧٥)، ٤.

(٢٤) المرجع السابق، ٢٨-٣٣.

(٢٥) اقتباس لفرويد من ابن أخ رامو في المحاضرة الحادية والعشرين من محاضراته التمهيدية ١٩١٦-١٩١٧، أس. إي. المجلد.١٦، ٣٣٨.

(٢٦) فرويد، ليوناردو دافينشي (نيويورك: فينتاج/ راندوم هاوس، ١٩٤٧)، ٩٨.

(٢٧) على سبيل المثال: أ. م. ريزوتو، ولادة الإله الحي (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٧٩)؛ ج. دبليو. جونز، الدين والتحليل النفسي المعاصر (نيو هيفن، كونيتيكت: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩١)؛ إم. إتش. سبيرو، أمور دينية كهياكل نفسية (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٩٢)؛ دابليو. دابليو. ميسنر، التحليل النفسي والخبرة الدينية (نيو هيفن، كونيتيكت: مطبعة جامعة ييل، ١٩٨٤).

٢/ الملحدون وآباؤهم...

(١) ج. باولبي، المرفق (نيويورك: الكتب الأساسية، ١٩٦٩)، ٢٥٦-٢٥٧، و٢٦١ وج. باولبي، الفصل (نيويورك: الكتب الأساسية، ١٩٧٣)، ٣٤-٣٥.

(٢) فردريك نيتشه، ما وراء الخير والشر، ترجمة والتر كاوفمان (نيويورك: خمر، ١٩٦٦)، ١٣-١٤.

(٣) نيتشه، إيك هومو، ترجمة آر. ج. هوللينغدال (لندن: البطريق، ١٩٧٩)، ٥١.

(٤) رونالد هايمان، نيتشه: الحياة الحرجة (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٠)، ١٧.

(٥) المرجع السابق، ١٨.

(٦) المرجع السابق، ١٧.

(٧) آر. ج. هوللينغدال، نيتشه (باتون روج: مطبعة جامعة ولاية لويزيانا، ١٩٦٥)، ١٠.

(٨) هايمان، ١٨.

(٩) المرجع السابق، ٢٦.

(١٠) نيتشه، رسالة مختارة: لفردريك نيتشه، ترجمة وتحرير سي. ميدلتون (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٦٩)، ٤٧.

(١١) المرجع السابق، ٣٠٠.

(١٢) نيتشه، إيك هومو، ٣٨.

(١٣) رؤية هايمان، ٢٥٩، وج. لافرين، نيتشه: مقدمة السيرة الذاتية (نيويورك: سكريبنر، ١٩٧١)، ٥١.

(١٤) نيتشه، إيك هومو، ٤١.

(١٥) جي. إبراهام، نيتشه (نيويورك: دار هاسكل، ١٩٧٤)، ٢٢.

(١٦) نيتشه، إيك هومو، ٤٧.

(١٧) ذكر في هايمان، ١٨.

(١٨) ميدلتون، ٢٠٦.

(١٩) راجع، على سبيل المثال، إي. سي. موسنر، حياة ديفيد هيوم، الطبعة الثانية. (أكسفورد: كلارندن، ١٩٨٠)، ٧.

(٢٠) المرجع السابق، ٢٧.

(٢١) المرجع السابق، ٣٢-٣٤، ٥٩٧. لقراءة مناقشة الاهتمام الفكري الدائم بالدين لهيوم يمكن الاطلاع على: «القلق هيوم مع الدين» تحرير ك. ميريل وآر. شاهان، ديفيد هيوم: الكثير من العباقرة المناصرين (نورمان، ولاية أوكلاهوما: جامعة أوكلاهوما برس، ١٩٧٦)، ٥٩-٨١.

(٢٢) يمكن تلخيص ظرافته بمعرفة أنه كان مشهورًا بلقب «ديفيد الجيد». وللاطلاع على نقاش قصير عن شخصيته يمكن قراءة: إي. سي. موسنر، «الفلسفة والسيرة الذاتية: حالة ديفيد هيوم» في كتاب حرره فير شبل، هيوم (نوتردام في ولاية إنديانا: مطبعة جامعة نوتردام، ١٩٦٨)، ٦-٣٤.

(٢٣) د. ماكناب «ديفيد هيوم» تحرير ب. إدواردز، موسوعة الفلسفة، المجلد. ٤ (نيويورك: مطبعة ماكميلان والحرية ١٩٦٧)، ٧٤.

(٢٤) موسنر، حياة ديفيد هيوم، ٢٦.

(٢٥) سي. مورهيد، برتراند رسل: قصة حياة (نيويورك: فايكنغ، ١٩٩٣)، ٨.

(٢٦) المرجع السابق، ١٨.

(٢٧) المرجع السابق، ٢٢.

(٢٨) المرجع السابق، ٣٥.

(٢٩) ك. تارت، أبي، برتراند راسل (نيويورك: هاركورت، بريس، جوفانوفيتش، ١٩٧٥)، ١٨٣.

(٣٠) المرجع السابق، ص١٨٤.

(٣١) المرجع السابق.

(٣٢) مورهيد، ٢٣.

(٣٣) المرجع السابق، ٢٤.

(٣٤) المرجع السابق. (١)، (كُتِب بمناسبة مرور ثمانين عامًا على ميلاد بيرتراند راسل).

(٣٥) تارت، ٤٦-٤٧.

(٣٦) المرجع السابق، ١٨٤.

(٣٧) ج. ب. سارتر، الوجودية، ترجمة ب. فريختمان، (نيويورك: المكتبة الفلسفية، ١٩٤٧)، ٥٨.

(٣٨) R. هايمان، سارتر: حياة (نيويورك: سيمون وشوستر، ١٩٨٧)، ٣١.

(٣٩) المرجع السابق، ٣٣.

(٤٠) المرجع السابق، ٤٠.

(٤١) المرجع السابق، ٤١.

(٤٢) المرجع السابق، ٤٣.

(٤٣) ج. ب. سارتر، الكلمات (نيويورك: برازيلر، ١٩٦٤)، ٢٠.

(٤٤) هايمان، سارتر، ٣٥٨.

(٤٥) آر. هارفي، البحث عن والد: سارتر. الأبوة ومسألة الأخلاق (آن أربور،

ميشيغان: جامعة ميشيغان برس، ١٩٩١).

(٤٦) سارتر، الكلمات، ١٩.

(٤٧) هارفي، ٥٣ التأكيد في النص الأصلي.

(٤٨) المرجع السابق، ١٥.

(٤٩) المرجع السابق، ١٢٨.

(٥٠) م. ليبيسكو، صورة كامو (نيويورك: هيردر وهيردير، ١٩٧١)، ١١-١٢.

(٥١) ألبير كامو، الرجل الأول (نيويورك: كنوبف ١٩٩٥).

(٥٢) المرجع السابق، ١٣٦. راجع أيضًا ب. مكارثي، كامو (نيويورك: راندوم هاوس، ١٩٨٢)، ١١.

(٥٣) روديغر سافرانسكي، سكوبنهاور والسنوات الطائشة من الفلسفة، ترجمة إي. أوسيرز (كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة دمشق، ١٩٩٠)، ٥٤.

(٥٤) دبليو، بي. بريدجووتر، التعليم الدراسي لآرثر سكوبنهاور (لندن: روتليج، ١٩٨٨)،١٢.

(٥٥) سافرانسكي، ١٦.

(٥٦) المرجع السابق، ١٦،١٧.

(٥٧) المرجع السابق، ٢٦.

(٥٨) المرجع السابق، ٥٥.

(٥٩) المرجع السابق، ٥٨.

(٦٠) أر. أس. بيترز، هوبز (لندن: بنغوين، ١٩٥٦)، ١٣-١٤.

(٦١) أر. أس. بيترز، «توماس هوبز»، في إدواردز، موسوعة الفلسفة، المجلد ٤، ٤٥.

(٦٢) أ. ب. مارتينيش، إلاهي لويثان (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٢)، ٥٦.

(٦٣) راجع ب. سبرينتغبورد، «هوبز متدين» في كتاب حرره ت. سوريل، صاحب هوبز من كامبريدج (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٦)، ٣٥٠.

(٦٤) فارتانيان، «جان ميسلير» في إدواردز موسوعة الفلسفة، المجلد ٥، ٢٨٣.

(٦٥) م. دومانغيت، علاج مسلير: الملحد والشيوعي والثوري تحت حكم لويس الرابع عشر (باريس: رسائل نوفيل، ١٩٦٥)، ٥١. قام بالترجمات أي. ب. فيتس.

(٦٦) المرجع السابق، ١٨.

(٦٧) إيغور شافارفيتش، ظاهرة الاشتراكي (نيويورك: هاربر ورو، ١٩٨٠)، ٢٢٤.

(٦٨) دومانغيت، ٧٤-٧٦.

(٦٩) المرجع السابق، ٧٦ والصفحات التي تليها.

(٧٠) المرجع السابق، ١٧ والصفحات التي تليها.

(٧١) المرجع السابق، لتأثيره على فولتير، راجع أيضًا أ. مورهاوس، فولتير وجان مسلير، نيو هيفن، (كونيتيكت: مطبعة جامعة ييل، ١٩٣٦).

(٧٢) توري، «فولتير» ٢٦٤-٢٦٥.

(٧٣) ج. أوريكس، فولتير، ترجمة ب. براي وإتش. لين (غاردن سيتي، نيويورك: دوبل داي، ١٩٧٩)، ٩-١٢.

(٧٤) د. ألدريدج، فولتير وعصر النور (برينستون، نيوجرسي: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٧٥)، ٤، ٧.

(٧٥) المرجع السابق، ٤.

(٧٦) المرجع السابق.

(٧٧) ج. آير، فولتير (نيويورك: راندوم هاوس، ١٩٨٦)، ٤.

(٧٨) المرجع السابق، ٧

(٧٩) المرجع السابق.

(٨٠) ر. غريمزلي، جان دالمبرت (أوكسفورد، مطبعة كالريندون، ١٩٦٣)، الفصل ١.

(٨١) ن. ج. بابس، «جان طريق دالمبرت» في إدواردز، موسوعة الفلسفة، المجلد ١، ٦٨-٦٩.

(٨٢) راجع غريمزلي، ٢٨٩.

(٨٣) فارتانيان، «بول هنري ثيري، بارون هولباخ» في إدواردز، موسوعة الفلسفة، المجلد ٤، ٤٩.

(٨٤) نافيل، بول ثيري هولباخ (باريس: غاليمارد، ١٩٤٣)، ١٣-١٤.

(٨٥) المرجع السابق، ١٥.

(٨٦) سي. كورز، جماعة هولباخ (برينستون، نيوجرسي: مطبعة جامعة برينستون)، ١٥٨.

(٨٧) المرجع السابق.

(٨٨) المرجع السابق.

(٨٩) المرجع السابق، الفصل ١ و٢.

(٩٠) إي. كامينكا، فلسفة لودفيغ فيورباخ (نيويورك: بريغر، ١٩٧٩)، ١٥.

(٩١) المرجع السابق، ٢٠.

(٩٢) المرجع السابق، ٢٠-٢١.

(٩٣) قدم إيان بنسون مساهمة كبيرة في هذه المناقشة مع صموئيل بتلر.

(٩٤) مالكوم موغيريدج، الملحد الجدي: دراسة صموئيل بوتلر (لندن: آير وسبوتسوود، ١٩٣٦)، ٩-١٠، ١٦.

(٩٥) ج. شيroood ويبر، «في كتابة صموئيل بوتلر، طريق الجسد (نيويورك: الكلاسيكيات النهائية، ١٩٦٠). ٣٨٠.

(٩٦) صموئيل بوتلر، طريق الجسد (نيويورك: الكلاسيكيات الختامية، ١٩٦٩)، ٣٩.

(٩٧) المرجع السابق، ٢٠٢.

(٩٨) المرجع السابق، ٢٤٢.

(٩٩) راجع على سبيل المثال: ب. روزن، فرويد وأتباعه (نيويورك: كنوبف، ١٩٧٥)، ٣٧-٣٨.

(١٠٠) المرجع السابق، ٢٤-٢٥؛ راجع أيضًا إي. جونز، حياة وأعمال سيغموند فرويد، المجلد ١ (نيويورك: الكتب الأساسية، ١٩٥٣)، ٢٢.

(١٠١) راجع ج. م. ماسون، ترجمة وتحرير، الرسائل الكاملة لسيغموند فرويد لويلهلم فليس: ١٨٨٧-١٩٠٤ (كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفرد/ بيلكناب، ١٩٨٥)، ٢٣٠-٢٣١، ٢٦٤.

(١٠٢) راجع: فيتس، اللاوعي المسيحي لسيغموند فرويد، ٣٤، وإي. أ. غرولمان، اليهودية في عالم سيغموند فرويد (نيويورك: بلوخ، ١٩٦٥)، ٥٠.

(١٠٣) فرويد، ليوناردو دافينشي، ٩٨.

(١٠٤) يدين هذا القسم بالكثير لإيان بنسون.

(١٠٥) مارغريت درابل، المحرر، الصاحب للأدب الإنكليزي من أكسفورد، الطبعة الخامسة (أوكسفورد: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٨٥)، ١٩٥٦.

(١٠٦) جوي ديفيدمان، التي تزوجت في النهاية من سي. إس. لويس، والتي يعزى قبولها للإلحاد -والذي تركته في النهاية - لقراءتها كتاب ويلز في عمر الثامنة. راجع: ليل دورسيت، وأتى الإله (نيويورك: ماكميلان، ١٩٨٣)، ١٢ جي. كـ. تشيسترتون كتب أحد أكثر أهم كتبه ردًا على ويلز بشكل جزئي. راجع تشيسترتون، الرجل الأبدي (لندن: هودر وستوغتون، ١٩٢٥).

(١٠٧) ميشيل كورين، الرجل الخفي: حياة وحريات إتش. جي. ويلز (تورونتو: راندوم هاوس، ١٩٩٣)، ٢٢.

(١٠٨) إتش. جي. ويلز، تجربة في السيرة الذاتية (نيويورك: ماكميلان، ١٩٣٤)، ٤٤-٤٥.

(١٠٩) المرجع السابق، ٥٢-٥٣.

(١١٠) آر. إي. سوليفان، جون تولاند والخلاف الربوبي (كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفرد، ١٩٨٢)، ١٢٧.

(١١١) المرجع السابق، ٢. معظم مواد السيرة الذاتية مأخوذة من ١-٩.

(١١٢) ج. هيريك، ضد الإيمان: مقالات عن الربوبيين والمشككين والملحدين (بوفالو، نيويورك، بروميثيومس، ١٩٨٨).

(١١٣) المرجع السابق، ١٤٥.

(١١٤) المرجع السابق، ١٥٠.

(١١٥) المرجع السابق.

(١١٦) المرجع السابق، ١٥٣.

(١١٧) دبليو. ج. موراي، حياتي من دون الإله (ناشفيل، ولاية تنيسي: توماس نيلسون، ١٩٨٢)، ٧.

(١١٨) المرجع السابق، ٨.

(١١٩) المرجع السابق، ١١.

(١٢٠) د. فينر، ألبير أليس: العاطفي المشكك (نيويورك: بريغر، ١٩٨٨)، ٧.

(١٢١) المرجع السابق، ١٢.

(١٢٢) المرجع السابق، ٢١.

(١٢٣) المرجع السابق، ٤١.

(١٢٤) المرجع السابق، ٤٢.

٣/ المؤمنون وآباؤهم...

(١) ج. شتيمان، باسكال، ترجمة م. تورنيل (نيويورك: هاركورت وبراس وورلد، ١٩٦٢)، ٨.

(٢) المعلومات مأخوذة من معجم السير الذاتية الوطني (الآخرة، DNB)، المجلد ٢ (١٩١٧)، ٣٤٨-٣٥٦، ومن آرثر أ. لوسي، حياة جورج بيركلي، أسقف كلوفو (لندن: توماس نيلسون، ١٩٤٩).

(٣) لوسي، ٢٦.

(٤) المرجع السابق، ٢٢.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق، ٢٤.

(٧) معجم السير الذاتية الوطني ٢:٣٥٢.

(٨) المرجع السابق، ٣٥٠.

(٩) المرجع السابق، ٣٥٣.

(١٠) معجم السير الذاتية الوطني، ٣: ٥١٨-٥٢٤.

(١١) معجم السير الذاتية الوطني، ١٦: ٨٧٩-٨٨٢.

(١٢) المرجع السابق، ٨٧٩.

(١٣) ألكسندر كامبيل فريزر، توماس ريد، السلسلة الإسكتلندية الشهرية (أدنبرة ولندن: أوليفانت أندرسون وفرير، ١٨٩٨)، ١٠.

(١٤) المرجع السابق، ٣٤-٣٥.

(١٥) معجم السير الذاتية الوطني، ١٦: ٨٨١.

(١٦) المرجع السابق.

(١٧) معجم السير الذاتية الوطني ٣: ٣٤٥-٣٦٥.

(١٨) روبرت إتش. موراي، إدموند بيرك، سيرة ذاتية (أوكسفورد: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٣١).

(١٩) المرجع السابق، ٧.

(٢٠) المرجع السابق، ٤.

(٢١) المرجع السابق.

(٢٢) إدموند بيرك، تأملات في الثورة الفرنسية، تحرير إل. جي. ميتشل (أوكسفورد: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٩٣)، ٨٦.

(٢٣) المرجع السابق، ٩٠-٩١.

(٢٤) راجع موراي، الفصل الحادي عشر.

(٢٥) معلومات السيرة الذاتية لمندلسون مأخوذة من الموسوعة اليهودية، المجلد ٨ (نيويورك: فونك وواغنلز، ١٩٢٥)، ٤٧٩ والصفحات التي تليها، ومن الموسوعة اليهودية، المجلد الثاني، (نيويورك: ماكميلان، ١٩٧١)، ١٣٢٨ والصفحات التي تليها.

(٢٦) للاطلاع على التأثير الباكر لوالده راجع، أ. ألتمان، موسى مندلسون: دراسة سيرة ذاتية، (مطبعة جامعة ألاباما، ١٩٦٣)، ٩.

(٢٧) معجم السير الذاتية الوطني ١٥: ١٩١-١٩٩.

(٢٨) المرجع السابق، ١٩١.

(٢٩) المرجع السابق.

(٣٠) المرجع السابق، ١٠٥.

(٣١) ج. بولوك، ويلبرفورس (لندن: كونستابل، ١٩٧٧)، ٥.

(٣٢) أو وارنر، ويليام ويلبرفورس وأوقاته (لندن: باستفورد، ١٩٦٢)، ٢٤.

(٣٣) أ. موريس، شاتوبريان، ترجمة في. فريزر (نيويورك: هاربر وبروذرز، ١٩٦٢)، ٢٤.

(٣٤) ك. دبليو. كليمانتس، فردريك شليرماخر: رائد في علم اللاهوت الحديث (لندن: كولين، ١٩٨٧)، ١٥.

(٣٥) المرجع السابق.

(٣٦) المرجع السابق، ١٨.

(٣٧) ج. كير، جون هنري نيومان: سيرة ذاتية (أوكسفورد: مطبعة كلاريندون، ١٩٨٨).

(٣٨) المرجع السابق، ١٥.

(٣٩) المرجع السابق، ٢٣.

(٤٠) ج. ب. ماير، أليكسس دو توكفيل (غلوستر، ماساشوستس: بيتر سميث، ١٩٦٦)، ١٧-١٨.

(٤١) المرجع السابق، ١.

(٤٢) المرجع السابق، ٣.

(٤٣) ج. سي. هاردويك، أكمام العشب: حياة صموئيل ويلبرفورس القصيرة (أوكسفورد: باسيل بلاكويل، ١٩٣٣)، ٧.

(٤٤) أ. ر. أشيل ور. ج. ويلبرفورس، حياة القس المحق صموئيل ويلبرفورس (نيويورك: دوتن، ١٨٨٣)، ٢.

(٤٥) هاردويك، ٢.

(٤٦) المرجع السابق.

(٤٧) المرجع السابق، ٣.

(٤٨) س. ميتشام، القس السيد: حياة صموئيل ويلبرفورس ١٨٠٥-١٨٧٣ (كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٧٠)، ٧.

(٤٩) م. شانينغ بيرس، «سورين كيركيغارد» في كتاب حرره دونالد أتاوتر، الثورات المسيحية الجديدة (فريبورت، نيويورك: مطبعة كتب المكتبات، ١٩٤٧)، ٣-٨٥.

(٥٠) المرجع السابق، ٧.

(٥١) المرجع السابق، ٩.

(٥٢) المرجع السابق.

(٥٣) المرجع السابق، ١١.

(٥٤) المرجع السابق.

(٥٥) م. نيدونسيل، البارون فردريك من هوغل، ترجمة م. فيرنون (لندن: لونغمان، غرين، ١٩٣٧)، ٤.

(٥٦) المرجع السابق، ٥.

(٥٧) المرجع السابق.

(٥٨) م، فينش، ج. ك. تشيسترتون (لندن: ويدنفلد ونيكلسون، ١٩٨٦)، ٨.

(٥٩) المرجع السابق.

(٦٠) المرجع السابق.

(٦١) المرجع السابق.

(٦٢) جوزيف بيرس، الحكمة والبراءة: حياة ج. ك. تشيسترتون (لندن: هودر وستوتون، ١٩٩٦)، ٦.

(٦٣) فينش، ١٣.

(٦٤) بيرس، ٤.

(٦٥) ألزينا ستون ديل، الخطوط العريضة لسلامة العقل: سيرة ج. ك. تشيسترتون الذاتية (غراند رابيدز، ميشيغان: إيدرمانز، ١٩٨٢)، ١٢.

(٦٦) ميشيل كوران، غيلبرت: الرجل الذي كان عليه ج. ك. تشيسترتون (نيويورك: باراغون هاوس، ١٩٩٠)، ١٤.

(٦٧) ج. ك. تشيسترتون، السيرة الذاتية لـ ج. ك. تشيسترتون (نيويورك: شيد ووارد، ١٩٣٦)، ٢٢-٢٣.

(٦٨) ألبرت شفيتسر، مذكرات الطفولة والشباب (نيويورك: ماكميلان، ١٩٣١)، ٨١.

(٦٩) المرجع السابق، ٦١.

(٧٠) المرجع السابق، ٨٠-٨١.

(٧١) م. فريدمان، لقاء على الحافة الضيقة: حياة مارتن بوبر (نيويورك: باراغون هاوس، ١٩٩١)، ٣.

(٧٢) المرجع السابق، ٤.

(٧٣) المرجع السابق.

(٧٤) المرجع السابق،٩.

(٧٥) إي. بوش، كارل بارث: حياته من الرسائل ونصوص السيرة الذاتية، ترجمة ج. بودين (غراند رابيز، ميشيغان: إيدرمان، ١٩٩٤)، ٦٨. جلبت باقي معلومات السيرة الذاتية من هذا المصدر أيضًا.

(٧٦) م. بوسانكويت، حياة وموت ديتريش بونهوفر (نيويورك: هاربر ورو، ١٩٦٨)، ٢٣.

(٧٧) المرجع السابق، ٢١.

(٧٨) المرجع السابق، ٢٢.

(٧٩) المرجع السابق، ٤٥.

(٨٠) س. إتش. دريزنر، هيشيل، الرجل (نيويورك: ماكميلان، ١٩٨٥)،١٣.

(٨١) المرجع السابق، ٢٣.

٤/ الامتدادات والمؤهلات...

(١) ل. فون مات وإتش. بوسكو، دون بوسكو، ترجمة ج. بينيت (نيويورك: كتب الجامعة، ١٩٦٥)، ٩-١٠.

(٢) المرجع السابق، ٢٨-٢٩.

(٣) المرجع السابق، ٢٩.

(٤) المرجع السابق، ٢٧.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق.

(٧) معظم معلومات السيرة الذاتية في هذا القسم مأخوذة من أ. ن. ويلسون، هيلر

بيلوك (نيويورك: أثينيوم، ١٩٨٤).

(٨) المرجع السابق، ٩-١٠.

(٩) المرجع السابق، ٢.

(١٠) هيلر بيلوك، جولة نونا البحرية (لندن: كونستابل، ١٩٢٥)، ٥٤.

(١١) كانت معظم هذه المعالجة لولكر برسي مساهمة من إيان بنسون.

(١٢) باتريك، إتش. ساموي، ولكر بيرسي: قصة حياة (نيويورك: فارار وشتراس وجيرو، ١٩٨٧).

(١٣) المرجع السابق، ٣٤.

(١٤) المرجع السابق، ٣٧.

(١٥) المرجع السابق، ٣٨.

(١٦) المرجع السابق، ٣٨-٣٩.

(١٧) المرجع السابق، ٤٩.

(١٨) المرجع السابق، ٥٩.

(١٩) المرجع السابق، ١٢٠.

(٢٠) أ. بلوك، هتلر وستالين: حياة مشابهة (نيويورك: كنوبف، ١٩٩٢)، ٥.

(٢١) إي. إي. سميث، ستالين الشاب (نيويورك: فارار وشتراس وجيرو، ١٩٦٧)، ٤.

(٢٢) بولوك، ٩.

(٢٣) أ. بولوك، هتلر: دراسة في ظل الاستبداد (نيويورك: هاربر بيرنيه، ١٩٧١)، ٤.

(٢٤) ج. تولاند، أدولف هتلر (جاردن سيتي، نيويورك: دوبل داي، ١٩٧٦)، ٩.

(٢٥) المرجع السابق، ١٢.

(٢٦) إتش. آر. تريفور روبر، «عقل أدولف هتلر» في محادثات هتلر السرية ١٩٤١-١٩٤٤ (نيويورك: فارار وشتراس وجيرو، ١٩٧٢)، xxiv. قدم هتلر إلى موسوليني نسخة من أعمال نيتشه بإهداء أنيق، وكان يوجد مع المجلد رسالة من مارشال كيسيرلينغ، يقول فيها: «سيعتبر فوهرر نفسه سعيدًا إذا أسعدك هذا العمل العظيم في الأدب الألماني قليلًا، سنعتبره أنا ودوس تعبيرًا عن الارتباط الخاص لفوهرر بك». لاري آزار، الفلسفة واللاهوت، الطبعة الثانية (دودوك: كيندال هونت، ١٩٨٣)، ٧٠.

(٢٧) ج. ب. شنيويند، «جون ستيوارت ميل «في إدواردز، موسوعة الفلسفة، ٥:٣١٤.

(٢٨) كارول غيليغان، بصوت مختلف (كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة

هارفارد)، ١٩٨٢).

(٢٩) س. ل. أرتشر، «اختلافات الجنسين في تطوير الهوية: قضايا في المعالجة والمجال والتوقيت، «مجلة المراهقة ١٢ (١٩٨٩): ١١٧-١٣٨؛ ن. شادورو، خصوبة الأمومة (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٣).

(٣٠) م. هوفمان، «الاختلافات الجنسية في التعاطف والسلوكيات ذات الصلة»، النشرة النفسية ٨٩ (١٩٧٧): ٧١٢-٧٢٩.

(٣١) سي. أشر، سيمون دي بوفوار (بوسطن: مطبعة بيكون، ١٩٨١)، ١٢-١٣.

(٣٢) سيمون بوفوار، مذكرات ابنة مطيعة، ترجمة ج. كيركوب (كليفلاند، أوهايو: العالمية للنشر، ١٩٥٩)، ٧٧-٧٨.

(٣٣) المرجع السابق، ١٤٣.

(٣٤) المرجع السابق، ١٤٥.

(٣٥) مقتبس من آشر، ٢٥.

(٣٦) توري موي، سيمون دي بوفوار: صناعة امرأة مثقفة (أوكسفورد: بلاكول، ١٩٩٤)، ١٥.

(٣٧) باربرا براندن، عاطفة آني راند (غاردن سيتي، نيويورك: دبلداي، ١٩٨٦)، ٤-٥.

(٣٨) المرجع السابق، ٣١.

(٣٩) المرجع السابق.

(٤٠) المرجع السابق.

(٤١) المرجع السابق، ١٣.

(٤٢) المرجع السابق.

(٤٣) المرجع السابق، ١٧.

(٤٤) المرجع السابق، ١٨.

(٤٥) ج. جونستون، رابطة الأم: سيرة ذاتية في البحث عن أب (نيويورك: كنوبف، ١٩٨٣).

(٤٦) جونستون، أمة السحاق: حل النسوية (نيويورك: سيمون وشوستر/ توشستون، ١٩٧٣).

(٤٧) معلوماتي عن كيت ميليت، ما لم يذكر خلاف ذلك، حصلت عليها من المقابلات الشخصية مع أختها الصغرى مالوري ميليت دانار، في كانون الأول ١٩٩٦.

(٤٨) التايم، ٣١ آب ١٩٧٠: ١٨.

(٤٩) ف. سولواي، ولدت لأتمرد: أمر من الولادة: حيوات إبداعية وحيوية أسرية (نيويورك: بانثون، ١٩٩٦).

(٥٠) ج. دبليو. سوين، المؤرخ أدوارد جيبون (لندن: ماكميلان، ١٩٦٦).

(٥١) المرجع السابق، ٦٨.

(٥٢) المرجع السابق، ٦٨-٦٩.

٥/ الإلحاد السطحي: تقدير شخصي...

(١) كانت الأستاذة هي ليزلي أ. وايت. كتابه -والذي استخدم ككتاب مدرسي في الصف- كان علم الثقافة: دراسة رجل وحضارة (نيويورك: فارار وشتراوس، ١٩٤٩). كتاب وايت إلحادي بالكامل لكن دروسه كانت أكثر إلحادية.

(٢) أ. لانغ، صناعة دين (لندن: لونغمان، غرين، ١٨٩٨).

(٣) إي. و. جيمس، دين ما قبل التاريخ: دراسة في علم آثار ما قبل التاريخ (نيويورك: بارنيز ونوبل، ١٩٦٢)، ٢٠٦.

(٤) فيلهام شميت، أصل ونمو الدين، الطبعة الثانية ترجمة وتحرير إتش. ج. روز (لندن: ميثون، ١٩٣٥)، ٢٦٧.

(٥) جيمس، ٢٩٦-٢٩٩.

(٦) ستانلي ل. جاكي، مخلص العلوم (إدنبره: مطبعة الأكاديمية الأسكتلندية، ١٩٩٠)، ١٢٤؛ راجع أيضًا ألدوس هكسلي، نهايات ومعان (نيويورك: هاربر، ١٩٣٧)، ٣١٦.

(٧) دبليو. إي. غرادي، «الجسر الذي لم يعبر»، مراجعة جديدة لأكسفورد (حزيران، ١٩٨٢): ٢٣-٢٤.

(٨) مورتيمر أدلر، فيلسوف على مستوىً كبير (نيويورك: ماكميلان، ١٩٧٧)، ٣١٦.

(٩) المرجع السابق، تغلب أدلر في النهاية على رغبته بالإيمان: في ربيع ١٩٨٤ عمد ودخل في الكنيسة الأسقفية. راجع شيكاغو تريبون، ٢٩ نيسان ١٩٨٤، القسم ١، ص.٣.

٦/ الخاتمة...

(١) ديفيد بلانكنهورن، أمريكا اليتيمة(نيويورك: الكتب الأساسية، ١٩٩٥).

(٢) أ. د. فولتير وعصر النور، ١٢.

(٣) كامينكا، فلسفة لودويغ فيورباخ، ١٥٥.

(٤) المرجع السابق.

(٥) م. شور، فرويد: الحياة والموت (نيويورك: مطبعة الجامعات العالمية، ١٩٧٢)، ٢٠١.

(٦) ر. مونك، برتراند رسل: روح الخلوة، ١٨٧٢-١٩٢١ (نيويورك: المطبعة الحرة، ١٩٩٦).

(٧) ب. ج. غروسشل، المقاطع الروحية: علم نفس التطور الروحي (نيويورك: كروسرود، ١٩٨٣)، ٦٤-٦٥.

(٨) ج. لوكاس، التاريخ (نيويورك: كنوبف، ١٩٩٧).

(٩) ر. بيكر، الترعرع (نيويورك: كونغدون ويد، ١٩٨٢).

(١٠) المرجع السابق، ٦١.

***